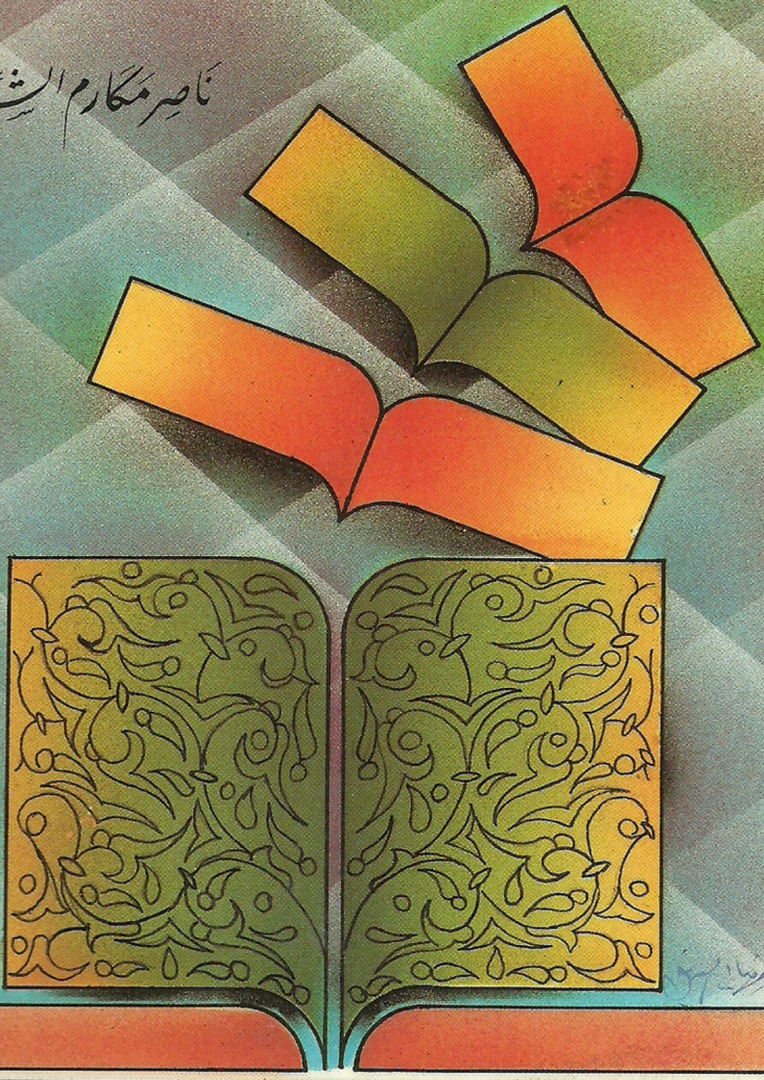
أصول العقائد

للشباب

ناصر مكارم الشيرازي



دار الهادي
بيروت لبنان

الطّبعة الثّالثة
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/ ٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص. ب: ٢٨٦/ ٢٥ غبيري - بيروت - لبنان
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

- ١ -

عشرة دروس
في معرفة الله (عز وجل)

الدرس الأول

البحث عن الله (تعالىٰ)
لماذا، لمعرفة خالق الكون، نفكر ونطالع؟

١ ـ يوجد في باطن كل واحد منا حب للوعي ومعرفة عالم الوجود. الحقيقة أننا جميعاً نريد أن نعرف:

هل أن هذه السماء المرتفعة بنجومها وكواكبها الجميلة...

وهذه الأرض المتسعة بمناظرها الآسرة..

وهذه الموجودات المختلفة؛ الطيور الجميلة، الأسماك المتنوعة، البحار والجبال، البراعم والورود، وأنواع الأشجار الباسقة.. وغيرها.. هل ظهرت إلىٰ الوجود من تلقاءِ نفسِها، أم أن هذه المشاهد العجيبة رُسِمت بيد رسامٍ ماهرٍ، قادرٍ؟.

بغض النظر عن ذلك، فإن أول سؤال يتبادرُ إلىٰ أذهاننا في الحياة هو: من أين جئنا؟ أين نحن؟ وإلىٰ أين نذهب؟.

نحن كم نكون سعداء لو عرفنا جواب هذه الأسئلة الثلاثة؟ يعني أن نعرف من أين بدأت حِياتُنا وإلىٰ أين نذهب؟ وما هو واجبنا الآن؟.

إن أرواحنا المتطلعة تقول لنا: يجب أن لا تتكاسلوا في البحث عن أجوبة هذه الأسئلة.

أحياناً يحدث أن يجرح شخص ويغمىٰ عليه في حادث سياقة، ولمعالجتِه ينقل إلىٰ المستشفىٰ، وعندما تتحسن حالته، فإن أول ما يسأل عنه، من الأشخاص الذين حواليه؛ ما هذا المكان؟ ولماذا جيءَ به إلىٰ هنا؟ ومتىٰ سيغادر هذا المكان؟.

إن هذا يدل علىٰ أن الإنسان لا يستطيع أن يسكت عن مثل هذه الأسئلة. وعليه فإن أول ما يدفعنا نحو البحث عن الله عز وجل ومعرفة خالق الكون والوجود هو تلك الروح العطشىٰ المتطلعة فينا.

٢ ـ إحساس الشكر: تصوّروا أنكم دعيتم إلىٰ ضيافةٍ محترمة، وأنه قد أُعدّ لكم كل شيء، ولكنك لا تعرف المضيف جيداً لأنك رافقت أخاك الأكبر المدعو لهذه الضيافة، ولا شك أن أول ما يتبادر إلىٰ ذهنك لدىٰ دخولك إلىٰ الضيافة، أن تتعرف علىٰ المضيف وتقدمُ له الشكر.

ونحن أيضاً عندما ننظر إلىٰ هذه المائدة الإلٰهية، ونرىٰ أنواع النعم التي أُنعم بها علينا، العيون الباصرة، والآذان السامعة، والعقل والذكاء الكافي، والقوىٰ الجسمية والنفسية المختلفة وأنواع وسائل الحياة، والأطعمة، ونرىٰ في هذه المائدة أنواع النعم، فيخطر لنا أن نعرف واهب جميع هذه النعم، حتىٰ ولو كان في غير حاجةٍ لشكرنا، يجب أن نقدم إليه الشكر، ونشعر بعدم الراحة إن لم نفعل ذلك، وهذا دليل آخر يدفعنا إلىٰ معرفة الله تبارك وتعالىٰ.

٣ ـ علاقتنا بفائدة وضرر هذه المسألة: ـ تصوّر أنك خلال سفرك تصل إلىٰ مفترق طرق، فتجد رخاماً، ويقول لك الجميع لا تتوقف هنا، إذ

يوجد خطر كبير، ولكن كل مجموعة من هؤلاء الناس يدعونك إلىٰ الذهاب من جهةٍ معينة، يقول أحدهم من الأفضل أن تذهب من الشرق. وآخر يذكر أن طريق الغرب هو الأكثر اطمئناناً، وثالث يدعوك إلىٰ طريق بين هذين الطريقين، ويقول: إن هذا الطريق هو الطريق الوحيد للنجاة من الخطر والوصول سالماً آمناً إلىٰ الهدف.

ولكن هل نسمح لأنفسنا، دون دراسة، أن نتجنب طريقاً؟.

وهل يقبل عقلنا أن نتوقف هناك ولا نتجنب طريقاً؟

بالتأكيد لا..

وإنما يقول لنا عقلنا يجب أن نسرع بالدراسة والتحقيق، ونستمع بدقةٍ لكل واحدٍ من أولئك، ونقبل من نجد لديه الصدق والدلائل المقنعة، وننتخب الطريق الذي دلّنا عليه بكل اطمئنان.

وحالنا في الحياة الدنيا هي كذلك، فالمذاهب والمدارس، كل يدعونا نحوه، ولكن بما أن مصيرنا، سعادتنا وتعاستنا، تقدمنا وتخلفنا، يحتاج للدراسة وانتخاب أفضل الطرق، فإننا مضطرون أن ننتخبَ الطريق المؤدي إلىٰ التقدم والتكامل، وأن نبتعد عن الهاوية المؤدية إلىٰ الفساد والضياع..

وهذا دليل آخر يدعونا إلىٰ التحقيق في خالقِ الكون..

يقول القرآن الكريم: ﴿ **فبشّر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه** ﴾[1].

* * *

(١) سورة الزمر ـ الآية ١٨.

فكّر وأجب:

١ ـ هل فكرتَ في معرفة الله، غير ما ذكره لك والداك عن هذا الموضوع؟.

٢ ـ هل تستطيع أن تذكر ما الفرق بين (البحث عن الله) و (معرفة الله)؟.

٣ ـ هل شعرت أثناء الدعاء والابتهال لله تعالىٰ بنوعٍ من اللذة الروحية العميقة؟.

* * *

الدرس الثاني

آثار معرفة الله تعالىٰ في حياتنا

١ ـ معرفة الله وتقدم العلوم:

تصوّر أن صديقاً لك قَدِمَ من السفر وجاءَ إليك بكتاب هدية، وقال لك إنه كتاب مفيد جداً لأن مؤلفه عالم شهير، له معلومات كثيرة، وهو دقيق وماهر ونابغة في فرعِهِ وأستاذ. ولهذا من المؤكد فإنك سوف لن تطالع هذا الكتاب مطالعة سطحية، بل إنك ستدقق في كل جملة وعبارة، وإذا حدث ولم تفهم جملةً منه ربما أخذت تطالع ذلك عدة مرات ولساعات وربما أيام متوالية وكلما سنحت الفرصة تعيد القراءة حتىٰ يتوضح لك الغامضِ منه، لأن مؤلف هذا الكتاب ليس شخصاً عادياً بل هو عالم كبير لا يسطِرُ كلمة دون حساب.

وإذا حدث العكس وقالوا لك إن هذا الكتاب، رغم ظاهره الجميل، لمؤلف جاهل لا علم له ولا يمكن الاعتماد علىٰ آرائه. من المؤكد أنك ستلقي نظرة عابرةً علىٰ الكتاب، وكلما وجدت عبارة أو جملةً غامضة فإنك

ستقول إن المؤلف لا يعرف شيئاً عما يتحدث، ومن الحيف أن يضيّع الإنسان وقته في مطالعةِ هذا الكتاب.

إن عالم الوجود يشبه كتاباً كبيراً، وكل موجود يؤلف كلمة أو جملة منه، وبالنسبة للإنسان المؤمن فإن جميع ذرات هذا الكون موضع دراسة، والإنسان المؤمن، وفي ضوء عبادة الله تعالىٰ، يقوم، بشغف خاص، بدراسةِ أسرار الخَلْق، وهذا الموضوع يساعدُ كثيراً في تقدم العلوم البشرية، كما أنه يعلم أن خالق هذا الجهاز له علم وقدرة لا ينتهيان، وجميع أعماله بحكمة وفلسفة، ولهذا فإن الإنسان يقوم بدراسةٍ أدق وأعمق ليدرك الأسرار بصورة أفضل.

أما الإنسان المادي فإنه لا يملك دافعاً لكي يقوم بدراسةٍ عميقة لأسرارِ الخَلْق، لأنه يعتقد أن خالقها هي الطبيعة التي لا تشعر، وإذا كنا نرىٰ بعض المكتشفين الماديين بين مكتشفي العلوم، فلأنهم يعتقدون في الغالب بوجود الله تبارك وتعالىٰ، وإنما يضعون له عز وجل اسم (الطبيعة)، ولأنهم يعتقدون بوجود (نظام) و (حساب) و (برنامج) لعمل الطبيعة.

الخلاصة أن عبادة الله سبحانه وسيلة لتقدم العلوم.

* * *

٢ ـ عبادة الله والسعي والأمل:

عندما تقع حوادث صعبة ومعقدة في حياة الإنسان، وتغلق الأبوابُ في وجهه من كل الجهات، ويشعر بالضعف أمام المشكلات، فإن الإيمان بالله تعالىٰ يأتي لمساعدته وبث القوة فيه.

إن الذين يؤمنون بالله لا يجدون أنفسهم وحيدين ضُعَفاء، ولا يشعرون باليأس، ولا يحسون بالضعف والعجز، لأن قدرة الله تعالىٰ فوق جميع المشاكل وتهون أمامها جميع الأشياء وتصبح بسيطة، وهؤلاء يقفون

صامدين أمام المشاكل بلطف الله وحمايتِهِ ومساعدتِه، فيستجمعون جميع قواهم ويسعون برغبة وأمل فينتصرون علىٰ المصاعب.

نعم، إن الإيمان بالله تعالىٰ عماد كبير للإنسان.

والإيمان بالله يبعث العزم والثبات.

والإيمان بالله ينير الأمل دائماً في القلوب.

ولهذا السبب فإن المؤمنين لا يُقْدمون علىٰ الانتحار أبداً، لأن الانتحار مبعثه اليأس وفقدان الأمل والإحساس بالهزيمة، أما المؤمنون فإنهم لن ييأسوا ولا يشعرون بالهزيمة.

* * *

٣ ـ عبادة الله والإحساس بالمسؤولية:

نعرف أطباء عندما يراجعهم مريض فقير، ليس فقط أنهم لا يأخذون منهم حق أتعابهم، بل يدفعون إليهم تكاليف الدواء، وإذا شعروا أن حالة المريض خطرة فإنهم يمضون الليل إلىٰ جانبه في بيته الحقير، إن هؤلاء الأطباء أشخاص يعبدون الله ومؤمنون.

كما نعرف أطباء لن يخطوا خطوةً دون أجرة، لأنهم يفتقدون للإيمان القوي. والإنسان المؤمن، في أي فرع كان، يشعر بالمسؤولية، ويحس بالواجب، وهو خيّر، ويحملُ في باطنه بصورةٍ دائمة شرطياً معنوياً يراقبُ كافة أعمالِه.

وأما الأشخاص غير المؤمنين فإنهم مغرورون وخطرون ولا يقبلون بأية مسؤولية والظلم والاستبداد بحق الآخرين سهل بالنسبة إليهم، ويندر أن يقوموا بعمل خير.

* * *

٤ ـ عبادة الله والهدوء:

يقول علماء النفس إن الأمراض النفسية في عصرِنا الحاضر هي أكثر شيوعاً من الأزمنة الغابرة، ويقولون أيضاً، إن أحد عوامل هذا المرض هو الإحساس بالقلق، من حوادث المستقبل، ومن الموت، ومن الحرب، والفقر والهزيمة والفشل.

ويضيفون: إن من بين الأشياء التي تُبعد القلق عن نفس الإنسان هو الإيمان بالله تعالىٰ، لأنه كلما أرادت عوامل القلق أن تنفذ إلىٰ نفسه فإن الإيمان بالله يرفعها عنه.

إن الله الرؤوف، الرحيم، الرزاق، الذي يعرف حالات عبادهِ الذين يتوجهون دائماً إليه، يساعدُ هؤلاء المؤمنين ويُبعدُ عنهم القلق.

ولهذا السبب فإن المؤمنين الحقيقيين يشعرون بالهدوء، ولا يوجد قلقٌ في نفوسهم، ولأنَّ أعمالهم لله تعالىٰ، حتىٰ ولو أصيبوا بالضرر فهم يشعرون بأن الله عز وجل يعوّضُهم، بل إن الابتسامة تكون علىٰ شفاههم في زمن الحرب.

والقرآن الكريم يقول:

﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن** ﴾ (سورة الأنعام: ٨٢).

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ هل تتذكر شخصية تاريخية تعكس مظاهر الإيمان والآثار المذكورة في الدرس؟.

٢ ـ هل تعلم لماذا يفتقد بعض الأشخاص الذين يتحدثون عن الإيمان

بالله تعالىٰ ولديهم سيئات أخلاقية، إلىٰ الآثار الأربعة المذكورة في الدرس؟.

* * *

الدرس الثالث

معرفة الله عن طريقين مطمئنين

حول معرفة الله سبحانه وتعالىٰ أُلفت كتب كثيرة منذ أقدم الأزمنة وحتىٰ اليوم، وكانت هناك أبحاث طويلة بين العلماء وغير العلماء في هذا المجال. وكل فريق كان ينتخب أسلوباً للوصول إلىٰ كُنه هذه الحقيقة، وأفضل الأساليب والطرق التي بإمكانها أن توصلنا إلىٰ معرفةِ المُبدیء الكبير لعالم الوجود؛ طريقان هما:

١ ـ طريق من الباطن (أقرب الطرق).
٢ ـ طريق من الخارج (أوضح الطرق)[١].

في الطريق الأول نتجه إلىٰ أعماق وجودنا ونستمع إلىٰ صوت التوحيد من باطننا.

وفي الطريق الثاني نتجول في عالم الخَلْق الواسع، ونشاهد العلامات الدالّة علىٰ (الله) تبارك وتعالىٰ في جميع الموجودات، وفي كل ذرّة.

---

(١) سيأتي توضيح الطريق الثاني (من الخارج) في الدرس السادس. (المترجم).

ولكل من هذين الطريقين أبحاث طويلة، وأما سعينا فسيكون مختصراً في حديث واحد مختصر، حيث سنتطرق إلىٰ الطريقين بصورة إجمالية.

أ ـ الطريق من الباطن:

لنتأمل هذه المواضيع:

١ ـ يقول العلماء: كل إنسان، من أي عنصر وطبقة كان، إذا تُرك لحالِهِ ولم يُلقن بتعليمات خاصة، وكان بعيداً عن أبحاث المؤمنين والماديين، فإنه يتجه من تلقاء نفسِهِ نحو قوة مقتدرة تفوق كل قوىٰ العالم المادي وتحكم عليه، ويشعر في زوايا قلبِهِ وأعماقِ نفسِهِ بنداءٍ لطيف مملوء بالمحبة ولكنه واضح وقوي يدعوه نحو مبدىءٍ عظيم للعلمِ والقدرة، نسميه نحن (الله)، عزَّ اسمُه.

وهذا النداء هو نداء الفطرة الطاهرة التي لا تشوبها شائبة.

* * *

٢ ـ من الممكن أن تُشغِلَ ضجةُ العالمِ والحياةُ اليومية وزخارفُها الإنسان، ويغفل بصورةٍ وقتية عن سماع هذا النداء، ولكن عندما يجد نفسه أمام المشاكل والأزمات، وعندما يشاهد الحوادث الطبيعية المدمِّرة، كالزلازل والعواصف والطوفان، واللحظات المخيفة في طائرةٍ تتعرض لجوٍ عاصف وخطر، في هذه الأوقات التي يفتقد لأية وسيلة مادية، أو ملجأ، فإن النداء يقوىٰ في باطنه، ويشعر أن قوةً تدعوه من باطنه، وهذه القوة هي أقوىٰ من جميع القدرات، قوة غامضة تسهل أمامها جميع المشاكل والمصاعب.

ويندر أن تجد شخصاً لا يتجه هذا الاتجاه في الحياة أمام الحوادث الصعبة، ولا يذكر الله عز وجل، وهذا الموضوع يدل علىٰ مدىٰ قُربنا منه عز وجل، وكم هو قريبٌ منا، فهو سبحانه في أرواحنا وأنفسنا.

طبعاً إن نداءَ الفطرة موجود في باطن الإنسان، ولكن في مثل هذه اللحظات المحرجة يكون قوياً.

* * *

٣ ـ إن التاريخ يُرينا أن كثيراً من الأقوياء، الذين كانوا يمتنعون عن ذكر الله سبحانه وتعالىٰ في الأوقات العادية من حياتهم، ولكنهم في اللحظات التي يرون فيها أن أعمدة حياتهم توشك علىٰ الانهيار، فإنهم يتوجهون عندئذ إلىٰ المبدىء العظيم فيستمعون عند ذلك إلىٰ صوتِ الفطرة الذي يتعالىٰ من بواطنهم.

يقول التاريخ: عندما رأىٰ فرعون نفسه بين الأمواج الهائجة، هذه المياه، التي كانت مصدر جميع قدرتِهِ المادية، أصبحت الآن تنفّذ فيه حكم الموت، ولاحظ أنه عاجز أمام هذه الأمواج فما كان منه إلاّ أن صاح: ﴿ آمنت الآن بأن لا إله إلاّ رب موسىٰ ﴾، إن هذا النداء في الحقيقة نابع من باطنه، من فطرته، وليس فرعون وحده وإنما جميع الأشخاص الذين يكونون في مثل ظروفه، يسمعون هذا النداء.

٤ ـ إنكم عندما تراجعون ضمائركم ستجدون أن هناك في الأعماق يوجد نور يضيء ويدعوك إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ، وربما واجهتكم في الحياة الكثير من المشاكل والأزمات الصعبة تجدون أنفسكم عاجزين أمامها، وفي تلك اللحظات، من المؤكد أنكم فكرتم أن هناك قوة عظمىٰ في عالم الوجود هذا بإمكانها أن تحل هذه المشاكل بسهولة وراحة. وفي هذه اللحظات، يشع أمل ممزوج بالحب لذلك (المبدىء) العظيم ويشمل هذا الأمل الروح والنفس ويبددُ سحب اليأس المعتمة من قلوبكم.

نعم، إن هذا هو أقصر طريق يمكن لكل واحد أن يجده في أعماقه، والذي يقوده إلىٰ (الله) عز وجل، المبدىء العظيم لعالم الوجود.

* * *

سؤال واحد:

نحن نعلم أنه من الممكن أن يتساءل أحدكم هذا السؤال:

ألا يحتمل أن هذه الفكرة خطرت لنا نتيجة التعليمات التي تلقيناها من مجتمعنا ومن والدينا في اللحظات الحساسة؟ ثم مددنا يد الدعاء إلىٰ الله؟.

نحن نعطي الحق لهذا التساؤل، ولدينا له جواب مقنع سنذكره في الدرس القادم.

يقول القرآن الكريم:

﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلىٰ البر إذا هم يشركون ﴾ (العنكبوت: ٦٥).

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ حاول أن تحفظ الآية المذكورة والسورة ومعناها كلمة كلمة، وتتعرف شيئاً فشيئاً علىٰ القرآن الكريم.

٢ ـ هل حدث لك أن واجهت حادثة معقدة وبقيت أمامها عاجزاً، وكان أملُكَ الوحيد هو لطف ورعاية الله عز وجل؟ اشرح ذلك ضمن مقالة أو كلمة قصيرة.

٣ ـ لماذا أسمينا هذا الطريق بأنه؛ أقصر طريق؟.

* * *

الدرس الرابع

الإجابة على سؤال مهم

السؤال:

وصلنا في الدرس السابق إلىٰ أن صوت التوحيد وعبادة الله عز وجل نسمعه من باطننا، خاصة في المشاكل والأزمات، حيث يعلو هذا الصوت ويصبح أقوىٰ، ونحن ودون إرادة نذكرُ (الله) سبحانه وتعالىٰ، ونطلب العون من قدرتِهِ التي لا تُحد ورحمتِهِ التي تسع كل شيء.

ربما، هنا، يتبادر هذا السؤال إلىٰ الأذهان؛ هل أن هذا النداء الباطني، الذي أسميناه (نداء أو صوت الفطرة)، من الممكن أن يكون قد ولد نتيجة التعليمات التي تلقيناها من المجتمع والمدرسةِ أو من الوالدين، وأصبح ذلك عادةً لنا؟!.

الجواب:

يتضح جواب هذا السؤال مع مقدمة مختصرة.

إن العادات والتقاليد، هي أعمال وأشياء تتغير، أي أننا لا يمكن أن

نجد عادةً أو تقليداً بقي علىٰ حالِهِ مدىٰ التاريخ الإنساني لدىٰ الأقوام والشعوب، فالمسائل التي تصبح اليوم عادة أو تقليداً من الممكن أن يتغير غداً، ولهذا السبب فإنه من الممكن أيضاً أن لا نجد تقليداً، متبعاً لدىٰ شعب، مرسوماً لدىٰ الشعوب الأخرىٰ.

وعليه فإذا شاهدنا موضوعاً معيناً بين جميع الأقوام والشعوب دون استثناء خلال العصور والأزمنة، عندها يجب أن نعرف أن له جذوراً فطرية في روح ونفس الإنسان، مثلاً علاقة الأم بالابن لا يمكن أن تكون نتيجة التلقين أو العادة، لأننا لا يمكن أن نجد أُماً، في أي قوم أو شعب، وفي أي عصرٍ أو زمان، لا تحب ابنها.

طبعاً من الممكن أن تقضي أم علىٰ نفسها نتيجة صدمة نفسية، أو يقوم أب، في العصر الجاهلي، بوأد ابنته نتيجة أفكار ومفاهيم خاطئة وخرافية، ولكن هذه الحالات نادرة واستثنائية سرعان ما زالت وتجلت حالة حب الأبناء بصورة واضحة.

* * *

مع الأخذ بنظر الاعتبار هذه المقدمة، سنلقي نظرة علىٰ مسألة (عبادة الله) لدىٰ البشر في الماضي واليوم:

(ملاحظة: نظراً لأن هذا الدرس معقد بعض الشيء لذا يستوجب الدقة).

١ ـ طبقاً لأقوال علماء الاجتماع والمؤرخين الكبار فإننا لا نجد عصراً أو زمناً لا يوجد فيه مذهب ودين لدىٰ البشر، وكان يوجد نوع من المذهب في كل عصر من العصور في نقطة من نقط الدنيا، وهذا دليل واضح علىٰ أن (عبادة الله) تنبع من أعماق روح وفطرة الإنسان، وليست نتيجة التلقين والعادات والتقاليد، لأنها لو كانتَ كذلك لما كانت عامة وخالدة هكذا.

ولدينا أدلة تبيّن أنه كانت هناك أقوام تعيش قبل التاريخ كان لديهم

نوع من أنواع الدين أو المذهب (عندما نقول ـ قبل التاريخ ـ نقصد الزمن الذي لم تكن الكتابة قد اخترعت بعد حتىٰ يترك الإنسان القديم آثاراً مكتوبة). طبعاً مما لا شك فيه أن الأقوام البدائية، لأنها لم تكن تعرف أن (الله) سبحانه باعتباره (وجوداً ما وراء الطبيعة)، لذا كانت تبحث عنه، من خلال الموجودات الطبيعية، فأخذ يصنع منها أصناماً وأوثاناً، ولكن الإنسان مع التقدم الفكري استطاع تدريجياً أن يجد (الحق)، ويصرف النظر عن الموجودات المادية، ويتعرف إلىٰ القدرة العظيمة لله تبارك وتعالىٰ من خلال العالم المادي.

* * *

٢ ـ بعض علماء النفس الكبار يقولون بصراحة إن هناك أربعة أبعاد أو أربعة حواس لروح الإنسان:

١ ـ حس المعرفة؛ الذي يدفع بالإنسان نحو العلوم والمعارف، ويجعله متعطشاً للعلوم مهما كانت، مفيدة مادياً أم لا.

٢ ـ حس الخير؛ وهو مصدر المسائل الأخلاقية والإنسانية في عالم البشر.

٣ ـ حس الجمال؛ وهو منبع الشعر والأدب والفن بمعناه الواقعي.

٤ ـ الحس الديني؛ الذي يدعو الإنسان إلىٰ معرفة الله تبارك وتعالىٰ وتنفيذ أوامره، وهكذا نرىٰ أن الحس الديني هو أحد الأحاسيس المتجذرة في روح الإنسان، أي أنه لا يتجزأ عنه ولن ينفصل عنه.

* * *

٣ ـ سنلاحظ في الأبحاث القادمة أيضاً أن أكثر الماديين الملحدين يعترفون بنحوٍ من الأنحاء بوجود الله عز وجل، وإن لم يذكروا اسمه سبحانه، ويطلقون عليه تعالىٰ اسم (الطبيعة) أو أسماء أخرىٰ، ولكن الصفات التي يصفون بها الطبيعة هي شبيهةٌ بصفات الله عز وجل. مثلاً

يقولون؛ إن الطبيعة عندما منحت الإنسان كليتين اثنتين، فلأنها تعلم أنه إذا عطبت إحدىٰ الكليتين فإن الإنسان يستطيع أن يعيش بكلية واحدة.

وهكذا فإنهم يستعملون مثل هذه التعبيرات، ولكن هل إن هذا الموضوع ينطبق مع الطبيعة التي لا تشعر؟! أم إنه إشارة إلىٰ ربٍّ لا يحد علمُهُ ولا تنتهي قدرتُهُ، حتىٰ ولو كان اسمُهُ (الطبيعة)؟!.

إن ما نستنتجه من هذا البحث هو:

إن علاقتنا وحبنا لله عز وجل كان دائماً موجوداً في وجودنا وسيبقىٰ.

إن الإيمان بالله تعالىٰ شعلة خالدة تدفىء قلبنا وروحنا.

لمعرفةِ الله سبحانه لسنا مجبرين علىٰ قطع طرق طويلة، وإنما علينا أن نشاهدَ أعماق وجودنا حيث سنجد الإيمان به عز وجل هناك، يقول القرآن الكريم: ﴿ **نحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ (سورة ق: ١٦).

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ هات عدة أمثلة للعادة، وعدة أمثلة للفطرة.

٢ ـ لماذا كان الناس الجاهلون ينساقون لعبادةِ الأوثان؟.

٣ ـ لماذا يطلق المادّيون اسم (الطبيعة) علىٰ الله عز وجل؟!.

* * *

الدرس الخامس

قصة واقعية

قلنا إن الأشخاص الذين ينكرون وجود الله عز وجل بألسنتهم، يوجد في أعماقِ أرواحهم إيمان بالله تبارك وتعالىٰ.

لا شك أن النجاحات، خاصة لبعض الأشخاص من الضعاف، تخلق الغرور، الذي هو مصدر النسيان، لدرجة أن الإنسان ينسىٰ حتىٰ فطرته، ولكن عندما تهزّه الحوادث وتقلق حياته، وتنزل عليه المشاكل من كل صوب، حينئذ ينزاح ستار الغرور من أمام عينيه، وتظهر فطرة التوحيد ومعرفة الله عز وجل.

يذكر التاريخ لنا نماذج كثيرة من أمثال هذه الشخصيات، إليكم إحداها:

كان هناك وزير مقتدر وقوي جداً، كان يمسك بزمام كل الأمور ولا يجرؤ أحد علىٰ معارضته، وذات يوم دخل مجلساً يحضره جمع من علماء الدين، فقال لهم: حتىٰ متىٰ نقول إن للعالم ربّاً؟ إن لدي ألف دليل ينفي ذلك.

قال الوزير عبارته بكل غرور، وكان العلماء الحاضرون يعلمون أنه ليس رجل منطقٍ واستدلال بل إن قوته جعلته مغروراً لدرجة لم يعد يعرف معها كلمة الحق، ولذا فإنهم صمتوا صمتاً ذا معنىً يتجلىٰ فيه الحقارة.

ومضىٰ زمن علىٰ ذلك، وبعد مدة اتهم الوزير فألقت الحكومة القبض عليه وسجنته.

وفكر أحد العلماء الذي كان موجوداً في ذلك المجلس بأنه قد حان وقت تفهيم الوزير، فهو الآن في وضعٍ تحطم فيه غروره وانزاح ستاره من عينيه، واستيقظ فيه شعور تقبّل الحقّ، فإذا اتصل به ونصحه فستكون النتيجة مثمرة. طلب العالم لقاءه، ثم ذهب إلىٰ رؤيته في السجن، وما إن اقترب حتىٰ شاهد الوزير يمشي مفكراً ويتمتم شعراً، فأصغىٰ إليه فسمعه يقرأ هذا الشعر المشهور:

ما همه شيران ولي شيران علم   حمله مان ازباد باشد دم بدم
حمله مان پيدا وناپيداست باد   جان فداي آن كه ناپيداست باد

وهذا يعني أننا كرسم الأُسود علىٰ عَلَم يتحركُ بفعل الريح، فتظهر الأُسود وكأنها تهاجم بينما الحقيقة أنها لا تعدو أكثر من رسوم تحركها الريح التي تمنحها هذه القدرة، وهكذا نحن مهما أصبحنا أقوياء فإننا لا نملك أية قوة، والله سبحانه وتعالىٰ الذي منحنا هذه القوة يستطيع أن يسلبنا إياها في أية لحظة يشاء.

ورأىٰ العالِم أن الوزير ليس ملحداً فقط بل أصبح من أكثر المؤمنين إيماناً بالله تعالىٰ، سأله عن حاله ثم قال له: هل تتذكر يوم أن قلت إن لديك ألف دليل علىٰ عدم وجود الله، فها أنا قد جئت لأجيب علىٰ ذلك بدليل واحد؛ إن الله تعالىٰ هو الذي سلب منك بسهولة تلك المقدرة والقوة العظيمة التي كنت تمتلكها.

أحنىٰ رأسه حياءً ولم يُجب لأنه عرف الخطأ الذي كان فيه، ورأىٰ

النور الذي بدأ يشع من باطنه. يقول القرآن الكريم:

﴿ حتىٰ إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴾ (سورة يونس: ٩٠).

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ اكتب في بضعة أسطر نتيجة هذه القصة الواقعية.

٢ ـ لماذا أسموا (بني إسرائيل) بهذا الاسم؟.

٣ ـ من كان فرعون، وأين كان يعيش، وماذا كان يدّعي؟.

* * *

الدرس السادس

الطريق الثاني لمعرفة الله

طريق من الخارج:

بإلقاء نظرة بسيطة علىٰ العالم الذي نعيش فيه، فإننا نصل إلىٰ حقيقة أن عالم الوجود ليس شيئاً مضطرباً، وإنما كل شيء فيه يتحرك وفق نظام معين، وأن أجهزة العالم أشبه ما تكون بوحدات منظمة مقسّمة تتحرك نحو هدف معين.

النقط التالية بإمكانها أن توضح كل ما هو غامض في هذا المجال:

١ ـ لبقاء أية ظاهرة في كل موجود حي لا بد من سلسلة قوانين وشروط خاصة، مثلاً لظهور شجرة يلزم وجود الأرض، الماء، والجو المناسب، والحرارة المعينة حتىٰ نبذر البذرة فتتغذىٰ وتتنفس، فتخضر وتنمو، وفي غير هذه الظروف فإن نموها يصبح مستحيلاً، إن إعداد هذه الظروف والمقدمات يحتاج إلىٰ عقل وعلم ومعرفة.

* * *

٢ ـ إن لكل موجود أثراً خاصاً به، مثلاً للماء والنار آثار خاصة بكل واحدٍ منهما، لا تنفصل عنهما وتتبع قانوناً خاصاً.

* * *

٣ ـ هناك تعاون بين جميع الموجودات الحية، مثلاً بدن الإنسان الذي هو عالَمٌ بذاته، فإن جميع أجهزته تلقائياً تعمل متناسقة بشكلٍ خاص، فلو تعرض الجسم لخطر فإن جميع الأجهزة تتعاون لمقاومة الخطر والدفاع عن الجسم، إذن فهذا الارتباط والتعاون الوثيق دليل آخر علىٰ وجود نظام في عالم الوجود.

* * *

٤ ـ إن نظرة علىٰ العالم تبينُ أنه ليس فقط جسم الموجود الحي، وإنما جميع الموجودات المختلفة في العالم أيضاً لها تنسيق خاص مع بعضها الآخر، مثلاً لنمو الموجودات الحية يلزم وجود ضوء الشمس، والسماء تمطر، والريح تهب، وتقدم الأرضُ والمصادر الأرضية مساعداتها، كل ذلك دليل علىٰ وجود نظام معين في عالم الوجود.

* * *

رابطة (النظام) و (العقل):

إن هذه الحقيقة ظاهرة أمام كل إنسان أن (النظام) في كل جهاز يدل علىٰ (العقل والفكر والتخطيط والهدف)، لأن الإنسان عندما يرىٰ في كل مكان نظاماً وحساباً وقوانينَ ثابتة، يعلم أنه لا بد من وجود مبدأ علم وقدرة، ولإدراك ذلك فإنه لا يحتاج إلىٰ استدلال كثير، فهو يعلم أنَّ شخصاً جاهلاً وأعمىٰ لا يمكنه أن يكتب علىٰ الآلة الكاتبة إنشاءً أو مقالة اجتماعية انتقادية، كذلك لا يتمكن طفل في عامه الثاني أن يمسك قلماً أو فرشاة ويرسم لوحةً جميلةً، بل إننا إذا رأينا مقالة جيدة فإننا سوف نعلم أن

شخصاً ذا عقل وذكاء دبّجها، وأما إذا رأينا لوحةً جميلة جداً في متحف فإننا لا نشك أن رساماً بارعاً رسمها، حتىٰ ولو لم نكن قد رأينا ذلك الكاتب أو الرسّام.

إذن ففي أي مكان يكون فيه جهازٌ منظم فإنه سيكون إلىٰ جانبه حتماً عقل، وكلما كان ذلك الجهاز كبيراً ودقيقاً فإن العلم والعقل سيكونان كبيران بنفس النسبة.

ولإثبات هذا الموضوع، في أن كل جهاز منظم بحاجةٍ إلىٰ عقل وعلم، يُستفاد من (حساب الاحتمالات) الموجود في علم الرياضيات المتقدِّمة، فعن هذا الطريق يمكن إثبات مثلاً أن شخصاً جاهلاً إذا أراد أن يكتب مقالةً فإنه يضغط علىٰ مفاتيح الحروف في آلة طابعة، فيكتب تلك المقالة عن طريق الصدفة، وطبقاً لحساب الاحتمالات فإن هذا الدليل أو الإثبات لا يمكن إثباته خلال مليارات السنوات، أو حتىٰ بطول عمر الأرض «لتوضيح هذا الموضوع أكثر يراجع كتاب (آفريدگاجهان ـ خالق العالم) أو كتاب (البحث عن الله)».

يقول القرآن الكريم:

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبين لهم أنه الحق أوَلم يكف بربّك أنه علىٰ كل شيء شهيد ﴾ (سورة فصّلت: ٥٣).

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ هات عدة أمثلة (غير ما ذُكر في الدرس) للأجهزة المصنوعة التي تدل علىٰ أن الصانع له عقل وذكاء.

٢ ـ ما الفرق بين (الآفاق) و (الأنفس)؟ أذكر أمثلة في الآفاق والأنفس تدل علىٰ وجود الله تبارك وتعالىٰ.

الدرس السابع

نماذج عن نظام (الخَلْق)

في كافة أرجاء عالم الوجود نجد (النظام) و (الهدف) و (التخطيط) بشكل واضح، والآن ندرس نماذج من ذلك: ونحن قد انتخبنا لكم نماذج صغيرة وكبيرة.

لحسن الحظ اليوم، ومع تقدم علوم الطبيعة وكشف أسرار وعجائب عالَم الطبيعة، ودقائق هيكل الإنسان والحيوان والنبات، والبناء العجيب لخلايا الجسم، والذرّة، والنظام العجيب للسيارات في الفضاء، فإن أبواب معرفة الله تبارك وتعالىٰ قد تفتّحت أمامنا، بحيث يمكن القول، بكل جرأة، إن جميع كتب علوم الطبيعة إنما هي كتب توحيدية، تعلِمُنا بعظمة الخالق سبحانه وتعالىٰ، لأن هذه الكتب أزاحت الستار عن النظام العجيب لموجودات هذا العالم، وتدل علىٰ مدىٰ علم وقدرة خالق هذا العالم.

* * *

١ ـ مركز قيادة دولة (الجسم):

تملأ مادة رمادية اللون داخل جمجمة كل واحد منا، نطلق عليها اسم

(مخ) وهذا المخ هو أهم وأدق جهاز في أجسامنا، لأن عمله هو (قيادة) جميع أعضاء الجسم وإدارة شؤون جميع أجهزة البدن. ولمعرفة أهمية هذا المركز المهم لا بأس أن ننقل إليكم أولاً هذا الخبر:

جاء في الصحف أن شاباً جامعياً من شيراز قد تعرض لضربة في المخ أثناء حادثة سيارة، ولكنه في الظاهر لم يصب بأي سوء، فقد كانت جميع أعضائه سالمة، ولكنه وللعجب قد نسي جميع وقائع حياته بينما كان ذهنه يعمل بشكل جيد، وكان يفهم المواضيع التي يقرأها ويعمل كأيّ شخص عادي، ولكن عندما كانوا يقولون له إن هذه هي أُمّك، كان يتعجب إذ لم يكن يعرف والديه، فأخذوه إلىٰ بيته في شيراز، وأروه الأعمال اليدوية التي صنعها بنفسه والمعلقة علىٰ الجدران، فكان ينظر إليها بتعجب ويقول إنها المرة الأولىٰ التي يرىٰ فيها هذه الأشياء. ثم اتضح أن الضربة قد أصابت قسماً من الخلايا التي تربط في الحقيقة بين الفكر ومخزن حافظة الذهن، وهذا يشبه قَطْع الاتصال الكهربائي عن الأسلاك، وبذلك فقد غرق قسم من ذكرياته وماضيه في ظلام النسيان.

ربما كانت النقطة التي أصابها العطب لا تزيد عن رأس دبوس من المخ، ولكن انظروا مدىٰ الأثر الذي تركه في حياة هذا الشخص، ومن هنا يتضح كم هو معقد جهاز المخ، ومدىٰ أهميته.

يتألف المخ وسلسلة الأعصاب من قسمين رئيسيين:

١ ـ قسم الأعصاب الإرادية التي تنشأ عنها جميع الحركات الإرادية في الجسم مثلاً: السير، النظر، التكلم و.. الخ..

٢ ـ قسم الأعصاب غير الإرادية، التي تقوم بحركات القلب والمعدة، وأمثال هذه الأجهزة، ويكفي توقف جزء من هذا القسم من المخ إلىٰ توقف القلب أو أي جهاز آخر عن العمل.

* * *

إن مركز الذكاء والإرادة والشعور والحافظة في (المخ) هو أكثر الأقسام حساسيةً في المخ، وأكثر ردود الفعل النفسية كالغضب والخوف وأمثالهما ترتبط به.

ولو أزيل هذا القسم من المخ من حيوان وكانت أعصابه سالمة فإنه يبقىٰ حياً، ولكنه يفتقد الفهم والشعور كلّياً، فقد أزيل هذا القسم من المخ عن طير فبقي حياً لمدة من الزمن، ولكنه لم يكن يعرف أن يتناول الحبوب التي كانت توضع أمامه رغم جوعه، وإذا كانوا يدفعونه للطيران فإنه كان يصطدم بكل ما يقع أمامه ويسقط.

* * *

القسم العجيب الآخر في المخ هو (الحافظة):

هل خطر لكم أن تفكروا يوماً كم هي عجيبة قوة الحافظة؟ ولو افتقدنا، لمدة ساعة، لقوة الحافظة فأي مصير مُحزن سنؤول إليه؟!.

إن مركز (الحافظة)، الذي يشكل قسماً صغيراً من المخ، يخزّن لنا جميع ذكريات العمر بكل ما تمتاز به، فهو يخزّن لنا كل ما يرتبط بالأشخاص الموجودين حولنا، من حيث الشكل، واللون، والأخلاق، والنفسيات، وغير ذلك، فهو بذلك يحتفظ لنا بإضبارة كاملة خاصة لكل واحد، ولذا فإننا ما إن نلتقي كل شخص حتىٰ يبدأ المخ بإخراج إضبارة ذلك الشخص، ويقدّمُ لنا مطالعة فورية عنه، ثم يأمرنا بردود الفعل المناسبة، فلو كان صديقاً نحترمه، ولو كان عدواً نواجهه بكُره. ولكن جميع هذه الأعمال تجري بسرعة بحيث أننا لا نشعر بمدةٍ زمنية لها.

إن العجيب في هذه المسألة يتوضّح لنا إذا ما أردنا أن نسطِّر كل ما هو موجود في ذهننا أو نصوّره أو نسجّله، فلا شك أن ذلك يقتضي منا أن

نستعمل كمية كبيرة جداً من الأوراق والأشرطة قد تملأ مخزناً كبيراً، والأعجب من ذلك أنه إذا أردنا استخراج ورقة أو شريط من بين تلك الكمية الهائلة فإن ذلك يستوجب تكليف عدد كبير من الأشخاص للقيام بهذا العمل، أما أذهاننا ـ أو ما اصطلحنا علىٰ تسميته بالحافظة ـ يقوم بهذا العمل بسرعة وبكل بساطة!.

* * *

كيف يمكن للطبيعة التي لا تشعر أن تخلق شعوراً؟!.

حول عجائب المخ البشري أُلفت كتب كثيرة، قسم منها مذكور في كتب الدراسة الثانوية والجامعية. ولكن هل يمكن أن نصدق أن جهازاً دقيقاً جداً ومعقداً وغامضاً أن يُصنَع من قبل طبيعةٍ لا تشعر؟! والأعجب من ذلك أن نتصوّر أن طبيعةً لا عقل لها، تخلق العقل!!.

يقول القرآن الكريم: ﴿ ... **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ (سورة الذاريات: ٣١).

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ هل تعرف مواضيع أخرىٰ عن عجائب مخ الإنسان؟.

٢ ـ ما هي التدابير التي أوجدها الله تبارك وتعالىٰ للمحافظة على مخ الإنسان أمام الحوادث المختلفة؟.

* * *

الدرس الثامن

عالم عجيب في طائر صغير

لنخرج، في هذا الدرس، من بلاد أحسامنا الكبيرة، رغم أننا لا نزال في أول منعطف من مدنها السبعة، ثم نمر بسرعة هنا وهناك، ونتناول نماذج من نظام الموجودات:

ننظر إلىٰ السماء في ليلة مظلمة فنرىٰ طائراً عجيباً يطير بكل شجاعة بين أستار الظلام كالشبح الغامض وراء طُعمه، إن هذا الطائر هو (الخفاش) الذي كل شيء فيه عجيب ولكن طيرانه في ظلام الليل أعجب من كل شيء، فهو يطير بسرعة في الظلام الدامس دون أن يصطدم بأي مانع، ونحن كلما درسنا ذلك اطلعنا علىٰ جانب من أسرار هذا الطائر، فهو يطير في قلب الظلام بشجاعة وسرعة تماماً كالطائر الذي يطير في وضح النهار، فهو إن لم يكن مزوداً بوسيلة تمنعه من الاصطدام بالموانع، لَمَا تمكن من الطيران. ولو تُرِك في نفق مملوء بالدخان وله منعطفات كثيرة، فإنه يجتاز هذه المنعطفات بسرعة وبسهولة دون أن يصطدم بالجدران مرة واحدة ودون

أن يؤذيه الدخان. إن هذا الوضع العجيب لدىٰ الخفاش لوجود سبب خاص به، يشبه الرادار.

هنا يجب أن نتعرف قليلاً علىٰ الرادار حتىٰ ندرك الرادار الموجود في حجم الخفاش الصغير. هناك بحث في الفيزياء عن أمواج ما فوق الصوتية، وهي ذات تردد طويل بحيث أن آذان الإنسان لا تسمعها، ولهذا السبب سميت (ما فوق الصوتية). ولو تم إرسال مثل هذه الأمواج من مُرسلة قوية، فإن هذه الأمواج تنطلق إلىٰ الأمام، ولو اصطدمت بمانع (مثلاً طائرة معادية، أو مانع آخر) فإنها كالكرة التي ترتدّ عندما تصطدم بالحائط، تماماً كالصوت الذي نطلقه باتجاه جبل، أو حائط، ومن خلال ارتداد الصوت نستطيع التعرف علىٰ المسافة حتىٰ ذلك الجبل أو الحائط من خلال إطلاق الصوت وارتداده.

إن أغلب الطائرات والبواخر تُقادُ بواسطة جهاز الرادار، إذ يتمكنون من الذهاب في أي جهة يريدون، أو العثور علىٰ طائرات وبواخر الأعداء.

يقول العلماء إنه يوجد جهاز صغير يشبه الرادار في هذا الطائر.. بدليل أننا لو أطلقنا هذا الطائر في غرفة، ووضعنا هناك مكبرة صوت يجعل من المستطاع سماع الأمواج ما فوق الصوتية، فإننا سنسمع همهمةً تصم الآذان في الغرفة، ونسمع في كل ثانية ٣٠ ـ ٦٠ مرة الأمواج ما فوق الصوتية تصدر من الخفاش.

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه؛ أي عضو في الخفاش يطلق هذه الأمواج، أي؛ أين يقع جهاز الإرسال، وجهاز الالتقاط فيه؟!.

يقول العلماء جواباً علىٰ هذا السؤال؛ إن هذه الأمواج تُوجدُها العضلات القوية لحنجرة (الخفاش) وتنطلق عبر مناخيره إلىٰ الخارج، وآذانه الكبيرة تقوم بعملية التقاط الأمواج المرتدّة. وهكذا يكون الخفاش مديناً لأذنيه في تجواله الليلي. ولقد أثبت عالم روسي اسمه (جورين)

بالتجارب التي أجراها، أنه لو أُزيلت آذان الخفاش فإنه لن يستطيع الطيران في الظلام دون الاصطدام بالموانع، ولكن إذا أُزيلت عيونه فإنه يتمكن من الطيران بمهارة، وهذا يعني أن الخفاش (يرىٰ) بأذنيه، وليس بعيونه!! وهذا شيء عجيب!!.

والآن فكّروا وتأمّلوا في؛ من الذي وضع هذين الجهازين العجيبين في الجسم الصغير لهذا الطائر، ومن علّمه كيفية الاستفادة منهما وكيف ينجو بواسطتهما من الأخطار الكثيرة التي يتعرض لها خلال تجوالِه الليلي؟! من الذي قام بذلك حقاً؟!!.

هل يمكن للطبيعة التي لا تعقل ولا تشعر أن تقوم بهذا العمل؟! وأن تقوم بوضع هذين الجهازين، اللذين يكلفان الكثير لكي يقوم العلماء الكبار بصنعهما، في جسم الخفاش؟.

يقول أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (ع) في نهج البلاغة في خطبة مفصّلة عن الخفاش: «لا تمتنع من المضي فيه لغسق دجنته.. فسبحان البارىء لكل شيء علىٰ غير مثال» (الخطبة ـ ١٥٥).

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ ماذا لديك من معلومات أخرىٰ عن الخفاش؟.

٢ ـ هل تعلم أن أجنحة الخفاش، وكيفية الولادة لديه، وحتىٰ أسلوب نومه، يختلف عن بقية الحيوانات الأخرىٰ؟ وهذا يعني أنه حيوان استثنائي.

* * *

الدرس التاسع

الصداقة
بين الحشرات والزهور

مُرّوا في يوم من أيام الربيع، عندما تأخذ حرارة الجو بالازدياد، علىٰ البساتين والمزارع الخضراء الجميلة، فإنكم سترون مجموعات كبيرة من الحشرات الصغيرة، والنحل، والذباب، والفراشات والبعوض، تطير بكل هدوء ودون صوت هنا وهناك، وتنتقل من زهرةٍ إلىٰ أخرىٰ، ومن غصن إلىٰ غصن.. وهي في نشاط وفعالية وكأن رئيساً علىٰ رؤوسها يأمرها باستمرار بكل جدية، فتطير هنا وهناك وأجنحتها وسيقانها مغطاة بمسحوق أصفر من الورود التي تحط عليها، وهكذا وكأنها عمال مشغولون بكل جدية في المصنع الذي يعملون فيه. وحقاً إن لها عملاً مهماً، وهذا العمل كبير لدرجة أن البروفسور ليون برتن يقول:

«قليل من الناس يعلمون أنه لولا الحشرات لخلت موائدنا من الفواكه».

ونحن نضيف هذه الجملة إلىٰ قوله: «ولفقدت بساتيننا ومزارعنا

لسنوات طويلة تلك الخضرة والطراوة والنشاط»، وعليه فإن الحشرات، في الحقيقة، هي التي تقوم بتربية (الفواكه) وإيصال بذور اللقاح للورود.

من المؤكد أنكم ستسألون لماذا؟! لأن أهم عمل حياتي للأزهار، يعني عملية اللقاح، تتم بواسطتها، ومن المؤكد أيضاً أنكم سمعتم أن الورود والنباتات كالحيوانات الأخرىٰ، تملك أعضاء تناسلية، ذكرية وأنثوية، فإن لم يتم التلقيح بينهما، فإننا لن نحصل علىٰ الفواكه والورود.

ولكن هل فكّرتم في أن هناك أقسام مختلفة لا تتحرك، فكيف إذن تنجذب هذه الأقسام نحو بعضها، وكيف يتم التلقيح بين المسحوق الذكري، الذي يشبه نطفة الرجل (اسپرماتوزوييد) وبين النطفة الأنثوية (أوفول)، وبذا تكون مقدمة الزواج قد حصلت.

إن هذا العمل يُوكل في الغالب إلىٰ الحشرات، وأحياناً إلىٰ الهواء.. ولكن هذا الأمر ليس بهذه البساطة التي نتصور، فهذا الزواج المبارك والمملوء بالخير والبركة والذي يتم عن طريق (خطبة) الحشرات، له تاريخ ومراسم طويلة حافلة نعكس لكم فيما يلي أحد هذه المراسم.

صديقان حميمان وقديمان:

إن علماء الطبيعة، توصلوا بعد دراسات، إلىٰ أن النباتات والورود ظهرت في النصف الثاني من العصر الجيولوجي الثاني للأرض، والعجيب أن الحشرات ظهرت إلىٰ الوجود في هذا العصر بالذات، وكانا صديقين منذ ذلك العهد ولحد الآن عبر أحداث التاريخ المزدحمة لخلق المخلوقات، بحيث أصبح كل واحد منهما مكملاً للآخر. فالورود ولكي تكسب محبة الأصدقاء الدائمين فإنها تدّخر في باطنها (حلوىٰ) لذيذة الطعم، وتقدمها مجّاناً للحشرات التي تقوم بنقل مسحوق اللقاح لكي يتم (الحمل)، وهذا (السكر) الخاص لذيذ لدرجة أنه يجذب إليه الحشرات دون إرادة منها.

ويعتقد بعض علماء النبات أن اللون الجميل والعطر الفواح للورود يلعبان أيضاً دوراً مهماً في جذب الحشرات نحو الورود، ولقد أثبتت الاختبارات الكثيرة التي أُجريت علىٰ النحل، أن النحل يميز بين الألوان ويشعر بعطر الورود.

والحقيقة أن الورود هي التي تقوم بتزيين نفسها للحشرات (وتتعطر) بحيث أن الفراشات والنحل تنجذب إليها، وهذه الحشرات ترحب بهذه الدعوىٰ، فتلبي وتتناول (الحلوىٰ)، وهذه (الحلوىٰ)، في الحقيقة أهم غذاءٍ للحشرات، وعندما تُدّخرُ فإنها تكوّن لنا العسل، إذ أن النحل يأكل قسماً من (الحلوىٰ) ويأتي بالباقي لادّخاره في خليته للاحتفالات. وهكذا فإن عهد المحبة والصداقة يكون قائماً علىٰ أساس المنافع والمصالح المتبادلة بين الحشرات والورود.

درس من التوحيد:

عندما يدرس الإنسان هذه الأمور العجيبة في حياة الحشرات والورود؛ فإنه يسأل نفسه لا إرادياً: من عقد عهد المحبة والصداقة بين الورود والحشرات؟ ومن أعطىٰ هذه (الحلوىٰ) الخاصة واللذيذة إلىٰ الورود؟ ومن منح هذا اللونَ الجميل، وهذا العطر الفواح للورود كي تجذب الحشرات إليها؟ ومن أعطىٰ هذه السيقان والجسم الدقيقَ للحشرات، والفراشات، والنحل، لكي تقوم بنقل مساحيق الورود؟ ولماذا تتجه النحل نحو نوع معين من الورود، ولماذا بدأت حياة الورود والحشرات معاً في العالم، عبر التاريخ؟! وهل يوجد هناك أحدٌ، مهما كان متعصباً، أن يصدق أن كل هذه الأحداث قد حدثت دون خطة قبلية؟! وأن القوانين الجامدة التي لا تشعر في الطبيعة قد خلقت هذه الأمور العجيبة تلقائياً؟!!.

لا أبداً.. القرآن الكريم يقول: ﴿ وأوحىٰ ربّكَ إلىٰ النحلِ أن اتخذي

من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربّك ذللا. . ﴾ (سورة النحل: ٦٧ و ٦٨).

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ ما فائدة المادة الحلوة في باطن الأزهار، وما فائدة لونها؟!.

٢ ـ ماذا تعرف عن الحياة العجيبة للنحل؟!.

* * *

الدرس العاشر

في العالم اللامتناهي للأحياء الصغيرة

إننا نعيش مع عجائب (عالم الخلق)، ونعتادها ونألفها، ولهذا السبب فإننا نغفل في الغالب عن أهمية المخلوقات العجيبة، مثلاً:

١ ـ تعيش حيوانات وحشرات صغيرة جداً حولنا، وربما كان حجم بعضها لا يعدو مليمتر أو مليمترين، ومع ذلك فإنها، كالحيوانات الكبيرة، تملك أيادي وأرجلاً وآذاناً وعيوناً، وحتىٰ (مخاً) و (ذكاءً) وسلسلة أعصاب وجهازاً هاضماً.

ولو وضعنا (مخ) نملة تحت الميكروسكوب وتمعّنا في بنائه العجيب، لاستولىٰ علينا التعجب والحَيرة، فكل قسم منه يمثل مركز قيادة جزءٍ من البدن الصغير للنحلة، وهذه الأقسام متراصة مع بعضها البعض، وأقل اختلال في أوضاعها يصيب قسماً من الجسم بالشلل. والعجيب أن هذا (المخ الصغير) الذي لا يزيد حجمه عن رأس دبوس صغير فيه عالم من الذكاء والحضارة والذوق والفن، بحيث أن مجموعة من العلماء قد أمضوا

سنوات طوالاً من أعمارهم في دراسة حياة هذا الحيوان، فجمعوا في كتبهم معلومات عجيبة ومحيرة عنه.

هل إن الذي جمع كل هذا الذكاء والفطنة لدىٰ هذا الموجود الصغير، يمكنه أن يكون طبيعة لا تملك بمقدار رأس دبوس من الذكاء والفطنة؟.

* * *

٢ ـ في عالم الذرّة الغامض، ونحن نعلم أن أصغر موجود عُرِفَ حتىٰ الآن هو الذرّة وأجزاؤها، وهي صغيرة بحيث أن أقوىٰ الميكروسكوبات التي تُظهر القَشّة وكأنها جبل، تعجز عن رؤيتها.

وإذا كنتم تريدون معرفة كم هي صغيرة الذرّة، يكفي أن تعلموا أن قطرة ماء فيها من أعداد الذرّة بقدر البشر الموجود علىٰ كرة الأرض، وإذا أردنا أن نعد بروتونات سنتيمتر واحد من سلك رفيع، وعبئنا ألف شخص، وتمكّنا أن نفصل في كل ثانية إحدىٰ البروتونات، فإننا نحتاج إلىٰ ٣٠ ـ ٣٠٠ سنة (باختلاف أنواع الذرّة) لكي نعمل ليل نهار في العد حتىٰ ننتهي من عدّ البروتونات.

الآن وقد فهمنا أن سنتيمتراً واحداً من سلك رفيع يحتوي علىٰ هذا العدد من الذرّة فتصوّروا السماء والأرض والماء والهواء، والسيّارات والمنظومة الشمسية، كم فيها من أعداد الذرّة؟ ألا يتعب ذهن البشر من تصوّر ذلك، وأن ليس هناك سوىٰ من خلق العالم يعرف حسابها؟!.

* * *

الذرّة تعطي دروساً في التوحيد:

إن علم الذرّة من أهم علوم عصرنا وأنشطها، فالذرّة، هذا الموجود الصغير يُعطينا درساً في التوحيد، فهناك في عالم الذرة أربعة أقسام تجذب الانتباه:

١ ـ النظام الاستثنائي: لقد تم حتىٰ الآن اكتشاف أكثر من مائة عنصر، الكتروناتها تتدرج من الكترون وتنتهي في أكثر من مائة. إن هذا النظام العجيب لا يمكن أبداً أن يكون ناتجاً عن عوامل تفتقد للشعور.

٢ ـ التعادل: نحن نعلم أن في الكهرباء قوتين مختلفتين تجذب إحداهما الأخرىٰ إليها، إذن فإن الالكترونات السالبة والموجبة تجذب إحداها الأخرىٰ. ومن جهة أخرىٰ فإننا نعلم أن دوران الالكترون حول مركز الذرّة يخلق قوة دافعة تحاول إبعاد الالكترونات من محيط الذرّة، وتقسم الذرّة وتُجزؤها، والقوة الجاذبة تسعىٰ لجذب الالكترونات وتدمير الذرّة.

وهنا يجب أن نعلم بحساب دقيق كيف أن قوة الجذب وقوة الدفع خلقتا نظاماً في الذرّة، إذ لا تتمكن الالكترونات من الفرار ولا الانجذاب، وإنما تبقىٰ في حالة (تعادل) وتستمر في حركتها. فهل يمكن أن يكون هذا التعادل قد أوجدته طبيعة عمياء لا تسمع؟!.

٣ ـ كل في مجراه: قلنا إن بعض الذرّات، لها الكترونات متعددة، حركاتها ليست علىٰ خط واحد، بل إنها تتحرك علىٰ مدارات متعددة، وتتحرك وبسرعة منذ ملايين السنين علىٰ فواصل معينة وفي حدودها بدون أن يحدث أي تناقض.

فهل إن وَضْعَ كل إلكترون في مدار معين وتحركه بنظام عجيب، عمل سهل؟!.

٤ ـ القوة العظيمة للذرّة: لكي نتلمس عظمة قوة الذرة يكفي أن نعلم أنه في عام ١٩٤٥ قد أُجريت تجربة انفجار ذري في صحراء المكسيك القاحلة، فقد أطلقت قنبلة ذرية صغيرة علىٰ برج فولاذي، وبعد الانفجار ذاب البرج الفولاذي ثم تبخر، وتصاعد برق وصوت مهيب، وعندما جاء العلماء للكشف عن البرج لم يجدوا له أثراً.

وفي نفس العالم أُطلقت قنبلتان صغيرتان علىٰ اليابان، إحداها علىٰ مدينة ناكازاكي والأخرىٰ علىٰ مدينة هيروشيما، في المدينة الأولىٰ دُمِّر سبعون ألف شخص ومثلهم أصيبوا بجراح، أما ضحايا المدينة الثانية فقد بلغ عددهم ثلاثين ألف شخص ومثلهم جرحىٰ، بعد ذلك اضطرت اليابان إلىٰ الاستسلام، دون قيد أو شرط، لأمريكا.

ألا يكفي دراسة أسرار (ذرّة) واحدة ليتعرف الإنسان علىٰ الخالق سبحانه وتعالىٰ؟ لذا يمكن القول إن عدد الذرّات في العالم دليل كافي علىٰ وجود (الله) تبارك وتعالىٰ.

يقول القرآن الكريم:

﴿ ولو أنَّما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعةُ أبحر ما نفذت كلمات الله ﴾ (سورة لقمان: ٢٧).

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ هل تعرف شيئاً آخر عن أسرار حياة النحل؟.

٢ ـ هل تستطيع أن ترسم علىٰ اللوحة السوداء هيكل (ذرّة)؟.

* * *

بحث تكميلي للدرس العاشر:

كم هي عظيمة
صفات الله عز وجل

صفاته تبارك وتعالىٰ:

يجب أن تنتبهوا إلىٰ أنه بنفس سهولة التيقن من وجود الله عز وجل عن طريق دراسة أسرار عالم الخليقة، فإن التعرف علىٰ صفاته تبارك وتعالىٰ يحتاج إلىٰ دقة واحتياط كبير.

لا بد أنكم تسألون لماذا؟ إن الدليل علىٰ ذلك واضح، لأن الله سبحانه لا يشبه أي شيء فينا أو فيما نراه ونسمعه، ولذا فإن أول شرط للتعرف علىٰ صفاته تعالىٰ هو نفي جميع صفات المخلوقات عن ذاته المقدسة، أي عدم تشبيهه بأي واحد من مخلوقات الطبيعة المحدودة، وهنا يُصبح الأمر دقيقاً، لأننا قد كبرنا داخل هذه الطبيعة وكان اتصالنا معها دائماً، وأنِسنا إليها وألفناها، ولذا فإننا نميل إلىٰ مقارنة كل شيء بها.

بعبارة أخرىٰ فإن كل ما رأيناه كان جسماً، وخواص الجسم، يعني

الموجودات ذات الزمان والمكان المعين، ولها أشكال وأبعاد خاصة، ولذا، فإنه من الصعوبة تصور (ربٌّ) ليس له جسم، ولا زمان، ولا مكان، وفي نفس الوقت يكون محيطاً بجميع الأزمنة والأمكنة، ويكون لا محدوداً من جميع الجهات، إن هذا الأمر يعني أن نخطو في هذا المجال بكل دقة واحتياط.

ولكن من الضروري أن نذكّر بأننا لا يمكن أبداً أن نتلمس حقيقة ذات الله عز وجل، ويجب أن لا نتوقع ذلك، لأنه أشبه بمحاولتنا أن نضع محيطاً في فنجان!! أو أن يعلم الجنين وهو في بطن أُمه بجميع ما في العالم، فهل هذا شيء ممكن؟!!.

وهنا بالذات من الممكن أن انحرافاً صغيراً يبعد الإنسان فراسخ عن صواب جادة التعرف علىٰ الله تبارك وتعالىٰ، ويتيه في عبادة الأوثان والأشخاص، (انتبهوا لذلك)، إذ لا يجب مقارنة صفات الله تعالىٰ بصفات المخلوقات.

صفات الجمال والجلال:

عادةً يقسّمون صفات الله إلىٰ قسمين؛ صفات ثبوتية: يعني الصفات الإلهية، وصفات سلبية: أي الصفات التي يتنزه عنها الله سبحانه.

والآن يطرح هذا السؤال نفسه: كم هي الصفات لذات الله عز وجل؟!.

إن الجواب علىٰ هذا السؤال هو: إن صفات الله غير محدودة وغير متناهية من وجهة نظرٍ، ومن وجهة نظرٍ أخرىٰ إن الصفات تتلخص في صفةٍ واحدة، لأن جميع الصفات الثبوتية لله تعالىٰ تتلخص في هذه الجملة: إن الذات الإلهية لا متناهية من جميع الجهات ولها جميع الكمالات. وبالمقابل تتلخص الصفات السلبية بهذه الجملة: لا يوجد أي نقص في

الذات الإلهية.

ولكن من وجهة نظر أخرىٰ فإن الكمالات والنقائص درجات، يعني يمكن تصوّر الكمال اللامتناهي، والنقص اللامتناهي، لذا يمكن القول: إن لله الصفات الثبوتية اللامتناهية، والصفات السلبية اللامتناهية. لأنه يملك أي كمال يمكن تصوّره، وأنه سبحانه منزّه عن أي نقص يمكن تصوّره، إذن فإن الصفات الثبوتية والسلبية لله عز وجل غير محدودة.

أشهر صفات الله عز وجل:

أشهر الصفات الثبوتية لله تعالىٰ هي التي جمعت في البيت الشعري التالي:

عالم وقادر وحي ومريد ومدرك قـديـم وأزلـي ومتكلـم صـادق

١ ـ إن الله تعالىٰ عالم، فهو يعرف ويعلم كل شيء.

٢ ـ إنه قادر، أي أنه مقتدر علىٰ كل شيء.

٣ ـ إنه حي، فالحي هو الذي له علم وقدرة، وبما أن الله تعالىٰ عالم وقادر إذن هو (حي).

٤ ـ إنه مريد، أي صاحب إرادة، وليس مجبَراً في أعماله، فهو يؤدي أي عمل، وله هدف وحكمة، ولا يوجد أي شيء في السماء والأرض دون فلسفةٍ وهدف.

٥ ـ إن الله مدرك، يُدرك كل شيء، يرىٰ كل شيء ويسمع كل شيء، وهو مطّلع علىٰ كل شيء.

٦ ـ إن الله تعالىٰ قديم وأزلي، يعني أنه كان موجوداً دائماً ووجوده ليس له ابتداء، لأن وجوده في ذاته، فهو، عز وجل، أبدي وخالد، لأن من كان وجوده في ذاتِه، فإن الفناء لا يعني شيئاً له.

٧ ـ إن الله عز وجل، متكلم، أي أنه يستطيع أن يحرك أمواج الصوت في الهواء، وأن يتحدث إلىٰ رُسُلِهِ وأنبيائه، عليهم السلام، وهذا لا يعني أن يكون له، تبارك وتعالىٰ، لسان وشفة وحنجرة.

٨ ـ إن الله، عز وجل، صادق، وهذا يعني أن كل ما يقوله صدق، وعين الواقع، لأن الكذب يكون إما عن جهل أو عن ضعف وعجز، والله العالم القادر من المستحيل أن يكون كاذباً.

* * *

إن أشهر الصفات السلبية ما جُمع في هذا البيت الشعري:

ليس مركّباً ولا جسماً، غير مرئي ولا مكان له
لا شريك له ولا معاني، اعلم أنه الغني الخالق

١ ـ ليس مركّباً، أي ليست له أجزاء تركيبية، لأنه في هذه الحالة يحتاج إلىٰ أجزائه، في الوقت الذي لا يحتاج، سبحانه وتعالىٰ، إلىٰ أي شيء.

٢ ـ إن الله تعالىٰ ليس جسماً، لأن الجسم محدود، ويتغيّر، ويَفنىٰ.

٣ ـ ليس مرئياً، يعني أنه لا يُرىٰ، لأنه لو كان يُرىٰ لكان جسماً ومحدوداً وقابلاً للفناء.

٤ ـ ليس له محل أو مكان، لأنه ليس جسماً لكي يحتاج إلىٰ مكان.

٥ ـ ليس له شريك، ولو كان له شريك، لكان موجوداً محدوداً، وذلك لاستحالة وجود موجودين غير محدودين بأية صورة من الصور، ثم إنَّ وحدة القوانين في هذا العالم تدل علىٰ (وحدانيته) تبارك وتعالىٰ.

٦ ـ ليست لله عز وجل معاني، يعني أن صفاته هي عين ذاتِه.

٧ ـ إن الله تعالىٰ ليس محتاجاً، فهو الغني، لأن الموجود اللامتناهي

في العلم والقدرة وكل شيء، لا يحتاج لشيء.

يقول القرآن الكريم: ﴿ليس كمثلِهِ شيء﴾ (سورة الشورىٰ: ١١).

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ هل لديك أدلة أخرىٰ علىٰ (وحدانية الله عز وجل) وعدم وجود شريك له؟.

٢ ـ هل سمعت أن بعض الأديان تعتقد بتثليث الله، أو تثنيته؟ ما هي هذه المذاهب؟!.

* * *

- ٢ -

عشرة دروس
في العدل الإلهي

الدرس الأول

ما هو العدل؟

*** لماذا عدّ العدل من بين صفات الله (عز وجل) من ضمن أصول الدين؟**
*** ما الفرق بين (العدل) و (المساواة)؟**

١ ـ لماذا انتُخِب (العدل) من بين جميع الصفات؟

يجب أن يتضح، قبل كل شيء، في هذا البحث، لماذا اعتبر العلماء الكبار (العدل)، وهو من صفات الله تعالىٰ، أحد الأصول الخمسة للدين؟.

إن الله، تبارك وتعالىٰ؛ عالمٌ، قادرٌ، عادل، حكيم، رحمٰن، رحيم، أزلي، أبدي، خالق، رازق، فلماذا، من بين جميع الصفات، انتُخب (العدل) وأصبح أحد الأصول الخمسة للدين؟.

للإجابة علىٰ هذا السؤال المهم يجب ملاحظة عدة أمور:

١ ـ إن (العدل) له أهمية كبيرة من بين صفات (الله) عز وجل، بحيث أن الكثير من الصفات الأخرىٰ ترجع إليه، لأن (العدل) بمعنىٰ الكلمة الواسع، هو وضع كل شيء في المكان الذي يستحقه، وهكذا فإن

(الحكيم) و (الرازق) و (الرحمن) و (الرحيم)، وأمثال هذه الصفات تنطبق جميعها عليه.

٢ ـ إن قضية (المعاد)، أيضاً، تعتمد علىٰ قضية (العدل الإلهي)، فرسالة الأنبياء ومسؤولية الأئمة المعصومين ترتبط أيضاً بمسألة العدل الإلهي.

٣ ـ لقد وقع اختلاف في مسألة (العدل الإلهي) في بداية الإسلام:

إن مجموعة من المسلمين، من أهل السنّة، من الذين يُدعَون بـ (الأشاعرة)، أنكروا (العدل) تماماً، وقالوا: إنه لا معنىٰ (للعدل) و (الظلم) بالنسبة لله سبحانه، فعالم الوجود كله مُلكٌ له، وكل عمل يقوم به هو عين (العدل)، والأشاعرة لا يعتقدون حتىٰ بـ (الحُسن) و (القبح العقلي)، وكانوا يقولون: إننا لا نتمكن بعقلنا من إدراك (الحُسن) و (القبح) وحدهما، حتىٰ حُسن عمل الخير وسوء الظلم (وكان لديهم الكثير من هذه الآراء الخاطئة).

ومجموعة أخرىٰ من أهل السُّنة، من الذين يُدعَون بـ (المعتزلة)، إلىٰ جانب جميع أهل الشيعة يعتقدون بمبدأ (العدل) فيما يخص الخالق سبحانه وتعالىٰ، ويقولون: (إنه لن يظلم أبداً).

ولفصل هاتين المجموعتين بعضهما عن البعض، فقد سُمّيت المجموعة الثانية باسم (العدلية) حيث كانوا يعتبرون (العدل) من ضمن الأصول. وسُميت المجموعة الأولىٰ باسم (اللا عدلية). وكان (الشيعة)، ولا يزالون، ضمن مجموعة (العدلية).

ولكي يميز الشيعة مذهبهم عن سائر (العدلية) فقد اعتبروا (الإمامة) جزءاً من الأصول.

وعليه، كلما جاء الحديث عن (العدل) و (الإمامة) فإنه يدل علىٰ (الشيعة الإمامية).

٤ ـ وبما أن فروع الدين تنبع من أصول الدين، والعدل الإلهي في المجتمع البشري مؤثر جداً، وإن أهم أعمدة المجتمع الإنساني هو (العدل الاجتماعي)، فإن انتخاب مبدأ (العدل) كأصل من أصول الدين؛ هو رمز لإحياء (العدل) في المجتمعات البشرية ومكافحة كل نوع من أنواع الظلم والاستبداد.

وكما أن توحيد ذاتِ وصفات الله سبحانه وتعالىٰ، وتوحيد عبادته نورُ وحدة واتحاد في المجتمع الإنساني، فإنه يدعم ويقوي توحيد الصفوف.

وقيادة الأنبياء والأئمة أيضاً تُلهم مسألة (القيادة الحقّة) في المجتمعات الإنسانية، ولذا فإن مبدأ العدل الإلٰهي الذي يتحكم في كل عالم الوجود، رمزٌ وإشارة للزوم (العدل) في المجتمع الإنساني في كافة المجالات.

إن عالم الخليقة الكبير يقوم علىٰ العدل، والمجتمع البشري لن يبقىٰ قائماً بدونه.

* * *

٢ ـ ما هو (العدل)؟

إن للعدل معنيين مختلفين:

١ ـ إن المعنىٰ الواسع لهذه الكلمة، كما قلنا: (هو وضع كل شيء في موضعه)، أو بمعنىٰ آخر الاتزان والتعادل. إن هذا المعنىٰ للعدل هو المتحكم في جميع عالم الخليقة والمنظومات، وداخل الذرّة، وفي بدن الإنسان، وجميع المزروعات والأحياء. وهذا هو ما ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم (ص): (بالعدل قامت السموات والأرض).

مثلاً لو فقدت قوىٰ (الجاذبة) و(الدافعة) تعادلها، وتغلبت واحدة

علىٰ الأخرىٰ، إما أن تنجذب الأرض نحو الشمس وتحترق، وتندثر، أو أنها تخرج عن مدارها وتتيه في الفضاء اللامتناهي. وهذا هو ما أورده شاعرٌ حيث قال:

ـ ماذا كان (العدل)؟، وضع الشيء في موضعه..
وماذا كان (الظلم)؟ وضع الشيء في غير موضعه..

ـ ماذا كان (العدل)؟ إسقي الأشجار ماءً..
وماذا كان (الظلم)؟ سقي الأشواك ماءً..

ومن البديهي لو سُقيت شجرة ورد وشجرة فاكهة بالماء، فإن ذلك واجب، وهو عين العدالة، وإذا سُكب الماء علىٰ الأعشاب الضارة والأشواك، فإنه هدر، وهذا عين الظلم.

٢ ـ المعنىٰ الآخر للعدالة هو (مراعاة حقوق الآخرين)، والنقطة المقابلة لها هو (الظلم)، يعني سلب حقوق الآخرين من قبل شخص لنفسه، أو إعطاءها للآخرين، أو التفرقة أي إعطاء حقوق البعض ومنعها عن آخرين. ومن هذا يتضح أن المعنىٰ الثاني (خاص)، والمعنىٰ الأول (عام).

والشيء المُلاحظ هو أن (العدل) بمعنييه صادقان بالنسبة لله تبارك وتعالىٰ، وإن كان المعنىٰ الثاني هو المقصود في هذه البحوث.

إن معنىٰ العدل الإلهي هو عدم إغماط حق أحد، ولا إعطاء حق شخص لآخر، ولا التفريق بين الأفراد وتفضيل شخص علىٰ آخر، وعليه فهو (عادل) بأتمّ المعنىٰ، وسنعلم دلائل عدالته في البحث المقبل.

(الظلم) لا ينسجم مع الذات الطاهرة لله تبارك وتعالىٰ، مهما كان شكله؛ إن كان عن طريق سلب حق شخص، أو إعطاء حق أحد لآخر، أو الإجحاف والتفريق.

كما أنه، عز وجل، لا يعاقب الناس الخيّرين، الصالحين، ولا يشجع

المسيئين، ولا يؤاخذ شخصاً بذنب شخص آخر، كما (لا يُحرق الأخضر واليابس معاً). وحتىٰ لو كان في مجتمع مذنبٍ فإن الله سبحانه وتعالىٰ لا يحاسب غير المذنب، وإذا كان في ذلك المجتمع الناس جميعاً مذنبين سوىٰ شخص واحد، فإنه، عز وجل، لا يجعل ذلك الشخص في مستوىٰ المذنبين بل إنه يفصله عنهم..

وأما قول الأشاعرة إن الله سبحانه وتعالىٰ لو أرسل الأنبياء جميعاً إلىٰ جهنم والمذنبين والجناة إلىٰ الجنة، فإن هذا العمل ليس ظلماً. إن هذا القول سخيف وقبيح ولا أساس له من الصحة، ولو كان هناك عقل لم تدخله الخرافات والتعصب، لعرف سخافة هذا القول.

* * *

٣ ـ الفرق بين المساواة والعدل:

النقطة المهمة الأخرىٰ التي يجب الإشارة إليها، هي: يُخلط أحياناً بين (العدل) و (المساواة)، ويُتوهم بأن معنىٰ (العدل) هو رعاية (المساواة)، بينما الحقيقة ليست كذلك.

في (العدالة) لا تعتبر (المساواة) شرطاً، بل يجب أخذ الاستحقاق والأولوية بنظر الاعتبار. مثلاً: ليست (العدالة) أن يُمنح تلاميذ صف واحد درجات متساوية، وليست (العدالة) أن يُمنَح عاملان حقوقاً متساوية، وإنما (العدالة) أن يُمنح كل تلميذ درجات بمقدار عِلمه وما يستحقه، وأن يُمنح كل عامل بقدر كفاءته وعمله.

و (العدل) له هذا المعنىٰ الواسع في (عالم الطبيعة)، فلو كان قلب الحوت الذي يزن عدة أطنان مساوياً لقلب العصفور الذي يزن عدة غرامات، لما أمكن أن نسمي ذلك (عدلاً). كما أنه ليس من العدل المساواة بين جذور شجرة عظيمة وبين جذور عشب صغير، بل

هو عين (الظلم).

إن (العدل) هو أن ينال كل موجود بقدر (حقّه) و (كفاءته) وما يستحقه.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ لماذا اعتبر (العدل) أحد أصول الدين من بين جميع صفات الله تعالىٰ؟.

٢ ـ من هم (الأشاعرة)؟ وماذا تعرف عن عقائدهم؟.

٣ ـ ما هي ردود فعل الاعتقاد بالعدل الإلهي في المجتمع الإنساني؟.

٤ ـ ما هي معاني (العدل)؟ اشرحها..

٥ ـ هل (العدل) يعني (المساواة)؟.

* * *

الدرس الثاني

دلائل عدالة الله
عز وجل

١ ـ حُسن وقبح العقل:

كانت معرفة هذه المسألة ضرورية في أن يعرف عقلنا (حُسْنَ) و (قُبْحَ) الأشياء إلىٰ حدٍّ ما وهذا هو ما يُسميه العلماء (حُسنْ وقبح العقل). مثلاً إننا نعلم أن (العدالة) و (الإحسان) شيء حَسَن، و (الظلم) و (البخل) شيء سيء، وهذا واضح حتىٰ قبل أن يذكر لنا الدين والمذهب ذلك، رغم أن هناك أموراً أخرىٰ يقصر إدراكنا الإلمام بها بصورة كافية، إذ يجب الاستفادة من تعاليم القادة الإلهيين، والأنبياء.

وعليه، فلو أن مجموعة من المسلمين يسمّون (الأشاعرة) أنكروا (حُسن وقبح العقل)، واعتبروا طريق معرفة (الحُسن) و (القبح) في العدل والظلم هو الشرع والمذهب، فإن هذا خطأ محض. ولو أن عقلنا قصر عن إدراك (الحسن والقبح) فمن أين لنا أن نعرف أن الله عز وجل لا يمنح المعجزة للشخص الكاذب؟ ولكننا عندما نقول إن الكذب قبيح ولا يمكن

أبداً أن يخرج من الله سبحانه وتعالىٰ، فإننا نعلم أن وعد الله حق، وكلامه صدق، ولا ينحاز إلىٰ الكذّاب أبداً، ولا يمنحه معجزة. وهنا يمكن الاعتماد علىٰ ما وَرَدَ في الشرع والمذهب.

وهنا نستنتج أن الاعتقاد بـ(حُسن وقبح العقل) هو أساسُ الدين والمذهب.

* * *

والآن نعود إلىٰ دلائل عدل الله تبارك وتعالىٰ، وللوصول إلىٰ هذه الحقيقة يجب أولاً أن نعلم:

٢ ـ ما هو مصدر الظلم؟

إن مصدر (الظلم) هو أحد هذه الأمور:

١ ـ الجهل: أحياناً لا يعرف (الظالم) ما يفعل، حقاً، لا يعلم أنه غمط حق أحد.

٢ ـ الحاجة: أحياناً تدفعه الحاجة إلىٰ ما في يد الآخرين للقيام بهذا العمل الشيطاني، بينما لو لم يكن في حاجة لما كان هناك دافع (للظلم).

٣ ـ العجز: أحياناً يرىٰ الإنسان أنه لا يرغب بعدم أداء حق الآخرين ولكنه يعجز عن هذا العمل، فيضطر لارتكاب (الظلم).

٤ ـ الغرور والحقد والانتقام: أحياناً لا يكون هناك وجود للعوامل السابقة، ولكن (الغرور) يدفع الإنسان إلىٰ الاعتداء علىٰ حقوق الآخرين، أو يدفعه (الشعور بالانتقام) و (الحسد) إلىٰ الظلم والاستبداد، وربما دفعه (دافع الاحتكار) إلىٰ الاعتداء علىٰ الآخرين... وأمثال ذلك.

ولكن بما أن أياً من هذه الصفات السيئة وهذه النواقص لا توجد في الذات المقدسة لله تبارك وتعالىٰ، لأنه عالم بكل شيء وليس بحاجةٍ لأحد

وقادر علىٰ كل شيء ورؤوف علىٰ الجميع، إذن لا يوجد أي معنىً لكي يرتكب ظلماً، فهو وجود بلا انتهاء، وكمال لا يحدُّه حد، ولذا لا يخرج منه إلاّ (الخير) و (العدل) و (الرأفة) و (الرحمة). فإذا كان يعاقب (المذنبين) فهو في الحقيقة نتيجة لأعمالهم، تماماً كالشخص المدمن علىٰ المخدرات أو المشروبات الكحولية يصاب بشتىٰ أنواع الأمراض.

ويقول القرآن الكريم ﴿ **هل تجزون إلاّ ما كنتم تعملون** ﴾ (سورة النمل: ٩٠).

٣ ـ القرآن الكريم والعدل الإلهي:

يوجد في الآيات القرآنية تركيز كثير علىٰ هذه المسألة، نجد في مكان ﴿ **إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون** ﴾ (يونس: ٤٤).

وفي مكان آخر نجد: ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة**) (النساء: ٤٠).

وحول الحساب والعقاب في الآخرة يقول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئاً** ﴾ (الأنبياء: ٤٧).

(يجب ملاحظة أن (الميزان) هنا لقياس (الحُسن) و (القبح) وليس كالموازين الموجودة في هذا العالم).

* * *

٤ ـ الدعوة إلىٰ العدل:

قلنا إن صفات الإنسان يجب أن تكون شعاعاً من صفات الله سبحانه، التي تشع علىٰ المجتمع الإنساني، وعلىٰ هذا المبدأ يؤكد القرآن الكريم العدل الإلهي بمقدار ما يؤكد العدل في المجتمع الإنساني، وفي كل واحد

من أبناء البشر، فالقرآن الكريم يعتبر الظلم سبباً للضياع وسقوط المجتمعات، وأن مصير الظالمين مؤلم جداً.

ويذكر القرآن الكريم حقيقة مصير الأقوام القدامىٰ، ويطلب منا أن نرىٰ أثر الظلم والفساد كيف جلب لهم العذاب الإلهي واندثروا، وأن نخشىٰ من أن يكون مصيرُنا، نتيجة الظلم، كمصير الأقوام السابقة.

ويقول القرآن الكريم، كمبدأ رئيسي: ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربىٰ وينهىٰ عن الفحشاء والمنكر والبغي** ﴾ (النحل: ٩٠).

والشيء الذي يجلب الانتباه هو أنه كما أن الظلم عمل قبيح، فإن قبول الظلم والرضوخ له، من وجهة نظر الإسلام والقرآن الكريم، خطأ فقد جاء في الآية ٢٧٩ من سورة البقرة: ﴿ .. **لا تَظلمون ولا تُظلمون** .. ﴾.

إن الاستسلام للظالمين يدفع إلىٰ تشجيع الظلم ونشره وإعانة الظالم.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ هل إن عقولنا بإمكانها أن تُدرك (الحُسن) و(القبح) بصورةٍ مستقلة عن الشرع؟.

٢ ـ من أية أمور ينبع الظلم؟ وما هو الدليل العقلي علىٰ العدل الإلهي؟.

٣ ـ ماذا يقول القرآن الكريم عن العدل الإلهي ونفي الظلم عنه سبحانه وتعالىٰ؟.

٤ ـ ما هو واجب الإنسان مقابل (العدل) و(الظلم)؟.

٥ ـ هل إن الاستسلام للظلم والقبول به، خطيئة؟!.

* * *

الدرس الثالث:

فلسفة الآفات والشرور

منذ قديم الزمن وحتىٰ عصرنا الحاضر أخذ بعض الجهّال مآخذه علىٰ العدل الإلهي، وطرحوا بعض المسائل التي هي في اعتقادهم لا تنسجم مع العدل الإلهي، بل إنها في رأيهم، تدل أحياناً علىٰ نفي (العدالة)، مما يدل علىٰ إنكار وجود الله سبحانه وتعالىٰ. من هذه المسائل، الحوادث المؤسفة، كالعواصف والزلازل والمصائب الأخرىٰ، وكذلك الاختلافات بين الناس، والشرور والآفات التي تُصيب النباتات والموجودات الأخرىٰ والأمراض التي تصيب الإنسان.

إن هذا البحث يطرح أحياناً مع الماديين ضمن البحوث المتعلقة بمعرفة الله سبحانه، وأحياناً أخرىٰ مع العدل الإلهي، ونحن نطرح ذلك الآن. ولكي نعلم إلىٰ أي مدىٰ، وبتحليل دقيق، عدم صحة تلك الأفكار، يجب أن نقوم ببحث مفصل في هذا المجال، وندرس بدقة الأمور التالية:

١ ـ الحكم النسبي والمعلومات المحدودة:

إننا نعتمد عادةً في الأحكام التي نصدرها وتشخيص المصاديق علىٰ رابطة الأشياء بنا، مثلاً نقول إن الشيء الفلاني قريب أو بعيد عنا، يعني

بالنسبة إلينا. أو إن فلاناً شخص قوي أو ضعيف، وهذا يعني مقارنة بوضعنا الروحي أو الجسمي، وكذلك فإن حكم الناس بالنسبة للخير والشر والآفات والبلايا، غالباً ما يكون على هذا الغرار. مثلاً إذا نزل المطر على منطقة ما، فإنه لا يهمنا مدى تأثير وكيفية هذا المطر، فإننا لا ننظر إلّا إلى محيط حياتنا وبيتنا ومزرعتنا، أو بصورةٍ أوسع، ننظر إلى مدينتنا، فإذا كان المطر إيجابياً نقول إنه نعمة إلهية، وإذا كان ضاراً فإننا نعتبره بلاءً.

عندما يهدمون مبنىً قديماً لإقامة بناء جديد، وصادف أن اجتزنا المنطقة وأصابنا الغبار والتراب، فإننا نقول: يا لها من حادثة شر، رغم أنه ستقام هناك مستشفىً يستفيد منها أشخاص آخرون.

بالحكم السطحي والعادي نعتبر لدغة الحيّة شراً، غافلين أن لدغة الحيّة وسمّها وسيلة دفاعية لهذا الحيوان، كما وأنه تُصنع أدوية شافية من هذا السمّ تشفي وتنقذ حياة آلاف الناس.

وعليه، إذا أردنا أن لا نقع في الخطأ، علينا أن ننتبه إلى معلوماتنا المحدودة ولا نعتمد في أحكامنا على رابطة الأشياء بنا، بل نأخذ جميع الجوانب بنظر الاعتبار ونصدر حكمنا بعد ذلك.

الحقيقة أن حوادث العالم أشبه ما تكون بحلقات سلسلة مرتبطة بعضها ببعض: العاصفة التي تهب اليوم على مدينتنا والمطر الذي يُحدث سيلاً هما حلقة من سلسلة طويلة ترتبط بالحوادث الأخرى التي تقع في أماكن أخرى، وكذلك ترتبط بالحوادث التي وقعت في الماضي، أو التي ستقع في المستقبل. والنتيجة أنه من الخطأ وضع الإصبع على قسمٍ صغير والحكم عليه، لأنه بعيد عن العقل والمنطق.

إن الشيء الذي يمكن إنكاره هو اعتبار الخَلق شراً مطلقاً، ولكن إذا كان شيء له جانب شر وجانب خير، ويغلب الخير فيه على الشر فلا مانع؛

إن العملية الجراحية مؤلمة من ناحية ولكن نواحيها الأخرىٰ مفيدة، ولذا فإن الخير شيء نسبي.

وللتوضيح أكثر نأخذ الزلزلة، صحيح أنها تُحدث التخريب في نقطة، ولكن ارتباطها بسلسلةٍ من المسائل الأخرىٰ قد تجعلنا نغيّر آراءنا.

هل تحدث الزلازل نتيجة الحرارة والبخار الكامن تحت الأرض، أم أنها نتيجة لجاذبية القمر لقشرة الأرض الجامدة فتتحطم نتيجة لهذه الجاذبية، أم أنها بفعل الإثنين؟ للعلماء نظريات مختلفة، ولكن رغم ذلك لا بد من وجود آثار لكل من هذين السببين أي أننا يجب أن نعلم أثر حرارة الأرض في إيجاد المصادر النفطية، وهي أهم مادة مولّدة للطاقة في عصرنا، وكذلك إنتاج الفحم الحجري وأمثال ذلك. إذن، فالخير شيء نسبي.

وأيضاً المد والجزر الذي يحصل نتيجة لجاذبية القمر علىٰ البحار ومدىٰ تأثير ذلك لإبقاء مياه البحار حيّة وكذلك الموجودات فيها، بالإضافة إلىٰ إرواء السواحل الجافة حيث تصب المياه الحلوة في البحار.. وهذا أيضاً يدل علىٰ أن الخير شيء نسبي.

ومن هنا نفهم أن أحكامنا النسبية ومعلوماتنا المحدودة هي التي تصوّر مشاهد الدنيا كنقط سوداء، ونحن كلما فكرنا بالرابطة بين الحوادث والظواهر رأينا أهمية الموضوع وتعرفنا عليه أكثر. ويقول القرآن الكريم: ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً** ﴾ (الإسراء: ٨٥) ولذا فإنه مع هذا العلم القليل يجب أن لا نستعجل في إصدار الأحكام.

* * *

٢ ـ الحوادث المؤسفة والمحاذير:

لقد رأينا جميعاً أن بعض الأشخاص عندما تغدقُ عليهم النعم يصابون

بالغرور فينسون، في هذه الحالة، الكثير من المسائل الإنسانية المهمة والواجبات التي عليهم. كما أننا رأينا عندما تكون الحياة في حالةٍ هدوء وراحة كاملين فإن حالة من النوم والغفلة تصيب الإنسان، ولو استمرت هذه الحالة فإنها ستؤدي إلىٰ تعاسة الإنسان.

لا شك أن قسماً من الحوادث المؤسفة في الحياة إنما تقع لإنهاء تلك الحالة من الغرور، ولإزالة ذلك النوم وتلك الغفلة.

ومن المؤكد أنكم سمعتم أن السائقين يشكون من الطريق الخالية من المنعطفات والمرتفعات، ويصِفون هذه الطرق بأنها خطرة، لأنها تدفعهم إلىٰ النعاس لرتابتها، وهنا يكمن الخطر. وقد لوحظ في بعض البلدان أن المسؤولين يتعمدون إيجاد المنعطفات والصعود والنزول لإزالة مثل ذلك الخطر. إن مسير الحياة تماماً مثل ذلك، فلو أن الحياة خلت من المنعطفات والهزّات والحوادث غير المتوقعة، فإن الغفلة عن الله والمصير ستشمل الإنسان وتجعله يغفل عن واجباته المعهودة إليه. إننا لا نقول إن علىٰ الإنسان أن يخلق لنفسه الحوادث المؤسفة، لأن هذه الحوادث تقع في حياة الإنسان، ولكننا نقول إن فلسفة قسم من هذه الحوادث هي الوقوف أمام الغرور والغفلة اللذين هما من أعداء سعادة الإنسان، نكرر ونقول إن هذه الفلسفة تنطبق علىٰ قسمٍ من هذه الحوادث المؤسفة وليس كلها، لأنه توجد أقسام أخرىٰ سنتحدث عنها بإذن الله تعالىٰ فيما بعد.

يقول كتابنا السماوي العظيم، القرآن الكريم، في هذا المجال: ﴿ **فأخذناهم بالبأساءِ والضراء لعلهم يتضرعون** ﴾ (الأنعام: ٤٢).

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ من هم الذين طرحوا مسألة الآفات والشرور في البحوث

العقائدية؟.

٢ ـ عدّد بعض النماذج عن الآفات والشرور، وهل واجهت في حياتك بعضها؟.

٣ ـ ما هو المقصود بـ (الحكم النسبي والكلي) و (الشر المطلق) و (الخير النسبي)؟.

٤ ـ هل إن العواصف والزلازل ضارّة حقاً؟.

٥ ـ أي أثر نفسي إيجابي للحوادث المؤسفة في حياة الإنسان؟.

* * *

الدرس الرابع:

فلسفة الحوادث المؤسفة في الحياة

قلنا إن مجموعة من المتذمرين يتحججون بمسألة الحوادث المؤسفة والآفات والمشاكل، والفشل، التي تصيب حياة الإنسان، لإنكار وجود العدل الإلهي، وأحياناً إنكار مبدأ وجود الله تبارك وتعالىٰ.

في البحث السابق قمنا بتحليل ودراسة قسم من هذه الحوادث، وذكرنا فلسفتين منها، والآن نواصل هذا البحث:

* * *

٣ ـ الإنسان يتربىٰ في خضم المشاكل:

نكرر مرةً أخرىٰ؛ إننا يجب أن لا نخلق المشاكل لأنفسنا، ولكن رغم ذلك كثيراً ما يحدث أن الحوادث المؤسفة والصعبة هي التي تقوي إرادتنا وقدرتنا، تماماً كالفولاذ، فنحن أيضاً نصبح صلبين كالفولاذ في خضم هذه الحوادث.

إن الحرب شيء سيء، ولكن يحدث أحياناً أن حرباً صعبة وطويلة

تنمي كفاءات شعب، فتبدل التشتت إلىٰ وحدة، والتخلف إلىٰ الابتكار والتقدم بسرعة. طبعاً ردود فعل جميع الأشخاص والمجتمعات ليست متساوية أمام الحوادث المؤلمة في الحياة، مجموعة تصابُ باليأس والعجز والتشاؤم، ويحصلون علىٰ نتيجة سلبية. أما الأشخاص الذين لديهم مقاومة فإنهم يُبدون ردود فعل أمام الحوادث ويتحركون، ثم يبدأون بإصلاح نقط الضعف والعجز لديهم. ولكن نظراً لأن الكثير من الناس يحكمون حكماً سطحياً في مثل هذه الظروف، فإن هؤلاء لا يرون سوىٰ المصائب والآلام ويتجاهلون النتائج الإيجابية البناءة.

إننا لا ندعي أن جميع الحوادث المؤلمة في الحياة لها مثل هذه الآثار في الإنسان ولكن، علىٰ الأقل، قسم منها هو كذلك. إنكم إذا درستم سيرة نوابغ العالم فإنكم سترون أنهم، تقريباً، نشأوا في خضم المشاكل والمصاعب الكبيرة، وقلما نجد شخصاً مرفهاً ونابغة ويصل بنبوغه إلىٰ منزلة رفيعة، فالقادة العسكريون الكبار هم أولئك الذين خاضوا المعارك الصعبة والطويلة في ساحات القتال، والعقول الاقتصادية الكبيرة هي تلك التي عاشت الأزمات الاقتصادية في الأسواق، والساسة الأقوياء والكبار هم أولئك الذين واجهوا المشاكل السياسية القاسية.

الخلاصة، إن المشاكل والآلام هي التي تربي الإنسان في أحضانها.

نقرأ في القرآن الكريم: ﴿ **فعسىٰ أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً** ﴾ (النساء: ١٩).

* * *

٤ ـ المشاكل تسبب في العودة إلىٰ الله تعالىٰ:

قرأنا في البحوث السابقة أن لكل جزء في وجودنا هدفاً. فالعين لهدف، والأذن لهدف آخر، وهناك هدف لكل من المخ، والقلب،

والأعصاب، حتىٰ أن لخطوط رؤوس أصابعنا فلسفة أيضاً.

إذن؛ كيف يمكن أن لا يكون لوجودنا هدف وفلسفة؟!.

وأيضاً قرأنا في البحوث السابقة أن هذا الهدف لا يتعدىٰ شيئاً سوىٰ تكامل الإنسان في جميع الحالات. ومما لا شك فيه أنه للوصول إلىٰ هذا التكامل لا بد من برامج تعليمية وتربوية عميقة تشمل جميع وجود الإنسان، ولهذا فإن الله تبارك وتعالىٰ إضافة إلىٰ أنه عز وجل منح الإنسان الفطرة التوحيدية الطاهرة، فقد أرسل الأنبياء العظام بالكتب السماوية ليأخذوا علىٰ عاتقهم قيادة هذا الإنسان في هذا الطريق. ثم استكمالاً لهذا الهدف لا بد أحياناً من وضع وكشف خطاياه وذنوبه أمامه، وأن يواجه الآلام في الحياة لتخلّفِهِ عن طاعة أوامر الله عز وجل لكي يتعرّف علىٰ عواقب سوء أعماله ويعود إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ. وهنا يكون قسم من البلايا والحوادث المؤلمة، في الواقع، رحمة ونعمة إلهية، حيث جاء في القرآن الكريم:

﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾ (الروم: ٤١).

بناءً علىٰ ما ذكرناه، فإنه بعيد عن المنطق والعقل أن نعتبر الحوادث المؤلمة مصداقاً (للشر) وأنها (بلاء) وتخالف العدل الإلهي، لأننا كلما تعمقنا في هذه المسألة فإننا نصل إلىٰ فلسفاتٍ كثيرة.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ ما هو الهدف من خلقنا؟ وعن أي طريق يمكن الوصول إلىٰ ذلك؟.

٢ ـ كيف يصبح الإنسان صلباً، مقاوماً، عن طريق المشاكل؟.

٣ ـ هل رأيت أو قرأت في التاريخ أن أشخاصاً كبروا في خضم

المصاعب الكبيرة ووصلوا إلىٰ مراكز مهمة؟ اشرح سيرة هؤلاء الأشخاص.

٤ ـ ماذا يقول القرآن الكريم حول ردود الفعل تجاه ذنوبنا؟.

٥ ـ أي نوع من الأشخاص يحصلون علىٰ نتائج إيجابية من الحوادث المؤلمة والمؤسفة، وأي نوع يحصلون علىٰ نتائج سلبية؟.

* * *

الدرس الخامس

فلسفة الآفات والشرور
مرة أخرىٰ

بما أن مسألة الآفات والشرور والحوادث المؤلمة والمؤسفة صعبة إلىٰ حدٍ ما لقرّاء بحوث معرفة الله والتوحيد، فإننا مضطرون إلىٰ العودة بالبحث والتحليل حول هذه المسألة وفلسفة الشرور والآفات.

* * *

٥ ـ المشاكل والأحداث تبث روحاً في الحياة:

ربما كان صعباً علىٰ البعض أن يفهم أن النعم لو استمرت وسارت الحياة علىٰ رتيبةٍ واحدة لفقدت قيمتها وأهميتها.

لقد ثبت اليوم أنه لو وُضع جسم في وسط غرفة وسُلّط ضوء قوي علىٰ هذا الجسم من كل جانب بشكل متساوٍ، وكانت الغرفة دائرية بشكل كامل، في هذه الحالة لا يمكن رؤية ذلك الجسم، لأن الظلال عندما تظهر

إلىٰ جانب الضوء فإنها تبيّن أبعاد الجسم وتشخّصه، وفي هذه الحالة نستطيع مشاهدة الجسم.

وهكذا فإن قيمة النعم بدون ظلال مختلفة للمشاكل لا يمكن الإحساس بها. ولو لم يكن هناك مرض طوال العمر فإنه لا يمكن الإحساس بالسلامة، فبعد ليلة أرق وحُمّىٰ شديدة، ثم انقطاع الحمّىٰ في الصباح يشعر الإنسان عندها بطعم السلامة الحلو، وكلما تذكر آلام تلك الليلة يعرف عند ذلك قيمة السلامة التي يتمتع بها.

في الحقيقة إن الحياة الرتيبة، حتىٰ لمن يعيش حياةً مرفهةً جداً، متعبة ومملة ومميتة، وكثيراً ما يُشاهد أشخاص، يعيشون حياة مرفهة خالية من كل إزعاج أو ألم، يشكون من الحياة فيقدمون علىٰ الانتحار.

إنكم لا يمكن أن تجدوا معماراً ماهراً يبني جدران صالة كبيرة مثل سجن بشكل مستوٍ، وإنما يُحدث بعض التعاريج والانعطافات، أو بالأحرىٰ يُوجِد بعض الأشكال.

لماذا الطبيعة في العالم جميلة إلىٰ هذا الحد؟!.

ولماذا جميلة ومنعشة مناظر الغابات علىٰ سفوح الجبال، ومناظر النهر وهو يجري بشكل انعطافات بين الأشجار الصغيرة والكبيرة؟!.

إنه لدليل واضح، عدم وجودها بشكل واحد رتيب.

إن نظام (النور) و (الظلام) وتوالي الليل والنهار، وهناك آيات كثيرة في ذلك موجودة في القرآن الكريم، له أثر مهم، هو القضاء علىٰ الرتابة في حياة الإنسان، فلو أن الشمس تشع بشكل رتيب من السماء علىٰ الأرض، بدون أي تغيير، وبدون أن يحل ظلام الليل محل الضوء الذهبي للشمس، بصرف النظر عن المشاكل الأخرىٰ، فإن الإنسان وخلال مدة قصيرة يمل ويتعب.

وعلىٰ كل ذلك يجب أن نقبل أن قسماً من المشاكل والحوادث

المؤلمة في الحياة له فلسفة، وهي منح الحياة لبقية العمر، وجعلها حلوة، يمكن تحملها، كما أنها تبين قيمة النعم، وتعطي الفرصة للإنسان لكي يستفيد من النعم الممنوحة له إلىٰ أقصىٰ حد.

* * *

٦ ـ المشاكل التي نخلقها نحن:

النقطة الأخرىٰ التي يجب الإشارة إليها في نهاية هذا البحث هي أن الكثير من الناس يخطئون أحياناً لدىٰ حسابهم للعلل وعوامل الحوادث المؤسفة والمصائب، ويضعون المظالم التي تبدر من الظالمين علىٰ عاتق الخالق، تبارك وتعالىٰ، كما يعتبرون فوضىٰ عمل الإنسان من عمل نظام الخلق. مثلاً يتساءلون: لماذا تُحدثُ الزلازل خسائر قليلة في المدن بينما يكون الضحايا والقرابين أكثر من القرىٰ والأرياف، الذين يدفنون تحت أطنان الخرائب؟ فأية عدالة هذه؟! فإذا كان من المقرر أن تقع البلايا فلماذا لا تُقسَمُ بصورة متساوية علىٰ المناطق والأشخاص؟ لماذا يجب أن يتعرض المستضعفون وحدهم للحوادث المؤلمة؟ ولماذا يذهب عدد كبير من المستضعفين ضحايا الأمراض العامة التي تصيب الجميع؟.

ولكن، لا يرتبط أي واحد من هذه التساؤلات بالخَلْق والعدل الإلهي، وإنما هي نتيجة ظلم واستغلال واستثمار البشر بعضهم لبعض.

فلو أن القرويين لم يتعرضوا لظلم سكان المدن ويصبحوا محرومين فقراء، ولو أنهم بنوا المنازل القوية مثل أهل المدن لما قدّموا القرابين والضحايا الكثيرة. ولكن عندما تكون بيوتهم مبنية من الطين وبعض الأحجار والخشب وتفتقد أحياناً للجبس والإسمنت لذا فإن أقل حركة شديدة، أو هزّة أرضية خفيفة تحطم كل شيء، ولا يمكن أن نتوقع شيئاً أفضل من ذلك، فأي علاقةٍ لهذه المسألة بعمل الله عز وجل؟.

إننا يجب أن لا نكرر قول الشاعر (إنك قد أعطيت بعضهم ألف نعمة...) بينما جعلت آخر في ذلة، أعطيت أحدهم قصراً، والآخر كوخاً حقيراً!!.

إن هذه الانتقادات يجب أن نوجهها إلىٰ الوضع المضطرب والنظام الخاطىء للمجتمع، يجب القيام وإنهاء هذا الظلم الاجتماعي، ومكافحة الحرمان والفقر، وإعطاء المستضعفين حقوقهم، لكي لا تبرز مثل هذه الظواهر. فلو أن جميع الطبقات تنال التغذية الكافية والرعاية الصحية لاكتسبوا المناعة أمام الكثير من الأمراض.

ولكننا نشاهد الكثير من المشاهد الدالة علىٰ الوضع الخاطىء لنظام اجتماعي في أحد المجتمعات، حيث نجد شخصاً مرفهاً جداً بحيث أن كلبه وقطته لهما أطباء ورعاية طبية، أما الشخص الآخر فلا يملك حتىٰ أقل الوسائل الصحية لتربية طفله. ونحن بدلاً من أن نضع التقصير علىٰ العمل الإلهي، يجب أن نؤاخذ أنفسنا علىٰ ذلك. يجب أن نقول للظالم (لا تظلم) ونقول للمظلوم (لا تقبل الظلم).

ويجب أن نسعىٰ أن يتمتع جميع أفراد المجتمع علىٰ نسبةٍ من الوسائل الصحية والرعاية الطبية، والغذاء والمسكن، والثقافة والتربية والتعليم.

الخلاصة أننا يجب أن لا نضع خطايانا علىٰ عاتق نظام الخَلْق. إذْ من يقول إن الله عز وجل قد أجبرنا علىٰ مثل هذه الحياة؟! ومتىٰ أوصىٰ بمثل هذا النظام؟!.

طبعاً إنه سبحانه وتعالىٰ قد خلقنا أحراراً، لأن الحرية رمز للتكامل والسمو، ولكننا نحن الذين نظلم الآخرين وتكون النتيجة هذه الفوضىٰ الاجتماعية، ومع الأسف إن الكثير من الناس وقعوا في هذا الخطأ حتىٰ أن نماذج من ذلك نجدها في أشعار الشعراء. وقد جاء في القرآن الكريم:

﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ (يونس: ٤٤).

وهكذا نصل إلىٰ نهاية بحث فلسفة الآفات والشرور، رغم أن الحديث طويل في هذا البحث، ولكن بالنسبة لموضوع قصير ومختصر يكفي ما أوردناه في هذا الباب.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ لماذا واصلنا بحث فلسفة الآفات والشرور خلال ثلاثة دروس؟.

٢ ـ ما هو الأثر السيء لرتابة الحياة علىٰ وتيرة واحدة؟ وهل رأيت شخصاً يتعذب من حياته المرفهة؟.

٣ ـ ماذا تعرف عن فلسفة نظام النور والظلام في عالم الخليقة؟.

٤ ـ هل أن جميع مصائب المجتمع متأتية من نظام الخلق، أم أن لنا نحن حصة في ذلك؟.

٥ ـ هل هناك طريقة لإزالة المصائب الاجتماعية؟ ما هو واجبنا تجاه المستضعفين؟.

* * *

الدرس السادس

مسألة
الجبر والاختيار

من المسائل القريبة من مسألة العدل الإلهي، هي مسألة (الجبر والاختيار). فالجبريون يعتقدون أن الإنسان لا يملك أي اختيار في أعماله وتصرفاته وكلامه، وأن حركات أعضائه شبيهة بالحركات الجبرية لأجزاء الماكنة.

ويطرح هذا السؤال نفسه: كيف يمكن أن تنسجم هذه العقيدة مع العدل الإلهي؟ ربما لهذا السبب نجد أن الأشاعرة، وهم أولئك الذين ذكرناهم سابقاً وينكرون حُسنَ وقُبحَ العقل، قبلوا (الجبر) وأنكروا (العدل)، لأن قبول (الجبر) سيجعل مسألة (العدل) بلا معنىً. لتوضيح هذا البحث نحن مضطرون لدراسة عدة مواضيع بدقة:

* * *

١ ـ مصدر الاعتقاد بالجبر:

كل إنسان يشعر في باطنه أنه حر فيما يعزمُ عليه، مثلاً إن الشخص

الفلاني يريد مساعدة صديقه أم لا، أو إنه ظمآن ويوجد أمامه ماء فهو حر في أن يشرب أو لا يشرب، صديقه قام بعمل ضده، فهو حر في أن يعفو عنه أو لا يعفو. أو أن كل شخص يستطيع أن يجعل فرقاً بين يدٍ تهتز نتيجة الشيخوخة أو المرض، وبين يد تتحرك وفقاً لإرادة صاحبها.

ومع أن مسألة الحرية هي إرادة إحساس عام لدىٰ الإنسان، فلماذا توجه قسمٌ من الناس إلىٰ (الجبر)؟!.

طبعاً هناك أدلة كثيرة مختلفة، أهمها هو أن الإنسان يرىٰ أن البيئة تؤثر علىٰ الأشخاص والتربية هي عامل آخر، كما أن التلقينات والدعايات والثقافة الاجتماعية أيضاً دون شك، تؤثر في فكر وروح الإنسان، وأحياناً يكون الوضع الاقتصادي دافعاً لبروز حركات لدىٰ الإنسان، كما لا يمكن إنكار عامل الوراثة في هذا المجال.

إن مجموع كل هذه الأمور تجعل الإنسان يعتقد أنه لا يملك إرادة في نفسه، وأن العوامل الباطنية والخارجية الذاتية هي التي تدفعنا إلىٰ اتخاذ القرارات، ولو لم تكن هذه العوامل موجودة لربما لم تكن تصدر منا هذه الأعمال، وهذه الأمور يمكن تسميتها ووصفها بأنها (جبر البيئة) و (جبر الظروف الاقتصادية) و (جبر التربية والتعليم) و (جبر الوراثة)، وهذه من العوامل المهمة التي جعلت الفلاسفة يهتمون بمسألة (الجبر).

* * *

٢ ـ النقطة الأساسية في خطأ الجبرين:

أما الأشخاص الذين يفكرون في ذلك فإنهم يغفلون عن نقطة مهمة، وهي أن البحث ليس في (الدوافع) و (العلل الناقصة)، وإنما البحث يدور حول (العلل التامة)، أو بتعبير آخر؛ لا يوجد إنسان يمكنه أن ينكر حصة

(البيئة) و (الثقافة) و (العوامل الاقتصادية) في فكر وأفعال الإنسان، إن البحث هو أننا رغم كل هذه الدوافع فإن القرارات النهائية بأيدينا، لأننا نشعر، بكل وضوح، أنه حتىٰ في نظام خاطىء وطاغوتي كالنظام الشاهنشاهي ورغم وجود مجالات الانحراف الكثيرة، فإننا لم نكن مجبرين علىٰ الانحراف، إننا كنا نستطيع في ذلك النظام وتلك الثقافة أن لا نقبل (الرشوة)، وأن لا نذهب إلىٰ (مراكز الفساد) وأن لا نكون لا إباليين.

إذن، يجب أن نفصل (الحقول، أو المجالات) عن (العلل التامة).

ولهذا فهناك الكثير من الأشخاص الذين نشأوا في عائلة هادئة، أو ذات ثقافة منحطة، أو في عائلة ذات وراثة غير مناسبة، ولكنهم رغم كل ذلك سلكوا طريقاً آخر، وأحياناً انتفضوا ضد ذلك الجو أو تلك البيئة التي نشأوا فيها، فلو كان البشر أبناء بيئتهم وثقافة عصرهم، لما قاموا بأي ثورة أساسية في العالم، ولتآلفوا مع بيئتهم، ولما قام أحد ببناء بيئةٍ جديدة ومجتمع جديد.

جميع هذه الأمور تدل علىٰ أن العوامل المذكورة ليس أي منها مصيرياً، وإنما تهيىء الأرضية فقط، وأما المصير الأساسي فإن الإنسان يصنعه بإرادته وعزمه.

وهذا يشبه تماماً أن نقرر في يوم صيفي حار أن الصيام استجابة لأمر الله، عز وجل، إننا نطيع رغم أن كل ذرة في وجودنا تطلب ماءً، ولكننا نغض النظر عن ذلك استجابة لإطاعة أوامر الله عز وجل، بينما من الممكن أن يوجد شخص آخر يستمع لهذه الأوامر ولكنه لا يصوم.

النتيجة هي أن وراء جميع الدوافع يوجد عامل مصيري، هو الإرادة وعزم الإنسان.

* * *

٣ ـ العوامل الاجتماعية والسياسية لنظرية الجبر:

الحقيقة أن مسألة الجبر والاختيار استغلت بسوء خلال التاريخ، حيث أن سلسلة من العوامل الجانبية كانت ذات أثر في عقيدة الجبر ونفي حرية إرادة الإنسان بصورة دائمة، منها:

أ ـ العوامل السياسية:

الكثير من الساسة المتجبرين، ولكي يستمروا في حكمهم الاستبدادي ويخمدون شعلة الثورة لدىٰ المستضعفين، كانوا يشيعون فكرة أننا لسنا مختارين وليست لنا إرادة في أعمالنا وأن القدر وجبر التاريخ هو الذي يقرر مصيرنا، فإذا كان هناك مجموعة من الأمراء ومجموعة أخرىٰ من الأسرىٰ فلأنه حكم القضاء والقدر وجبر التاريخ.

وواضح كم تقدر هذه الفكرة علىٰ تخدير الشعوب، وتساعد علىٰ استمرار السياسات الاستعمارية، بينما عقلاً وشرعاً نجد أن مصيرنا موكول إلينا وأن القضاء والقدر بمعناهما الجبري لا وجود لهما، فالقضاء والقدر الإلهي معينان طبقاً لحركتنا وإرادتنا وإيماننا ومساعينا.

ب ـ العوامل النفسية:

هناك أشخاص كسالىٰ وضعاف غالباً ما يواجهون الفشل في الحياة، ولا يرغبون أبداً بالاعتراف في أن كسلهم وضعفهم سبب فشلهم، ولذا، ولكي يبرأوا أنفسهم، يلتجأون إلىٰ (الجبر) ويلقون بذنبهم علىٰ (المصير الإجباري) ليحصلوا من وراء ذلك علىٰ هدوء كاذب، ويقولون: ماذا نفعل؟ لقد كنا سيئي الحظ منذ اليوم الأول، إننا نملك الكفاءة والاستعداد، ولكن للأسف، لا يسعفنا الحظ.

ج ـ العوامل الاجتماعية:

يريد البعض أن يكونوا أحراراً وينغمسوا في شهواتهم، ويرتكبوا أية

خطيئة تنسجم مع أهوائهم الحيوانية، وفي نفس الوقت يُقنعون أنفسهم بأنهم غير مذنبين، فيخدعون بذلك مجتمعهم. وهكذا وفي هذا الوضع يلتجأون إلىٰ عقيدة (الجبر) فيبررون بذلك أفعالهم بأنهم مجبرون وليسوا مخيّرون. ولكننا نعلم جيداً، أن كل تلك الادعاءات كاذبة، وأن هؤلاء الأشخاص يعرفون جيداً ضعف إيمانهم بما يدّعون، وإنما هي منافعهم وركضهم وراء اللذات هي التي تمنعهم من قول الحقيقة. ولذا ولتطهير المجتمع يجب مكافحة فكرة الجبر التي هي وسيلة من وسائل الاستعمار والاستغلال، ووسيلة لتبرير الأكاذيب وإشاعة الذنوب في المجتمع.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ ما هو الفرق بين (الجبر) و (الاختيار)؟.

٢ ـ علىٰ ماذا يعتمد (الجبريون) في أدلتهم؟.

٣ ـ ما هو موقفك أمام تأثيرات البيئة والثقافة والوراثة؟.

٤ ـ ما هي العوامل السياسية والنفسية والاجتماعية التي تساعد علىٰ نشر عقيدة الجبر؟.

٥ ـ كيف يجب أن يكون موقفنا أمام هذه العوامل؟.

* * *

الدرس السابع

أوضح الأدلة عن حرية الإرادة والاختيار

١ ـ إن الوجدان العام للإنسان يرفض الجبر:

رغم أن الفلاسفة وعلماء الدين لديهم أبحاث ودلائل مختلفة حول مسألة حرية إرادة الإنسان، ولكن ولكي نقصّر الطريق نتوجه إلىٰ أوضح الأدلة لاتباع حرية الإرادة، وهو (الوجدان العام للإنسان).

توضيحاً نقول: إننا لو أنكرنا كل شيء فإننا لا نستطيع أن ننكر أن المؤمن الإلهي، والمادي، والشرق والغرب، القديم والجديد، الغني والفقير، في كافة المجتمعات الإنسانية النامية وغير النامية، بثقافاتها المختلفة، وبدون استثناء، متفقون علىٰ أن القانون يجب أن يكون سائداً في المجتمع البشري، وأن الأشخاص مسؤولون أمام القانون، وأن من يخالف القانون يجب أن يُعاقب.

وهذا يعني؛ أن القانون، ومسؤولية الأشخاص تجاهه، وعقاب

المتخلف، هي من القضايا التي اتفق عليها جميع عقلاء العالم، ولا يتخلف عن ذلك إلاّ المتوحشون الذين يرفضون هذه الأمور الثلاثة. إن المسألة التي أسميناها (وجدان البشر) هي أوضح دليل علىٰ حرية إرادة الإنسان، وأنه صاحب اختيار. إذن كيف يمكن التصديق بأن الإنسان يكون مجبراً في إرادته وعمله ولا يكون صاحب اختيار، وفي نفس الوقت يكون مسؤولاً أمام القانون؟ وعندما يخالف القانون نجعله يمثل أمام المحكمة ونخضعه للتحقيق ثم نسأله: لماذا فعلت ذلك؟ وبعد أن يُدان نرسله إلىٰ السجن أو نحكم عليه بالإعدام.

وهذا يشبه تماماً أن نأتي بالأحجار التي تتساقط من الجبل علىٰ الشارع، وقد تؤدي إلىٰ حوادث موت بعض الأشخاص، نأتي بهذه الأحجار لمحاكمتها في المحكمة، نعم؛ صحيح أن هناك فرق بين الإنسان والحجر، ولكننا إذا أردنا نفي حرية إرادة الإنسان، فإن هذا الفرق الظاهري ليس له أي تأثير، بل سيكون الإثنان معلولَيْن لعوامل جبرية، فالحجارة تسقط علىٰ الشارع بفعل قانون الجاذبية، والإنسان القاتل يقوم بعمله تحت تأثير عوامل جبرية أخرىٰ. وبالنتيجة سوف لن يكون أي فرق بين الإثنين طبقاً لعقيدة الجبريين، حيث أن كل واحد منهما قام بالعمل دون إرادةٍ منه، وعليه فلماذا يُحاكم أحدهما ويُترك الآخر وشأنه؟!.

نحن الآن علىٰ مفترق طريقين؛ فإمّا أن نخطىء ضمير ورأي جميع الناس في العالم ونعتبر جميع القوانين والمحاكم عبثاً لا طائل من ورائه، وظالمة، أو ننكر عقيدة الجبر.

لا شك أن الثاني هو المرجّح.

الطريف أنه حتىٰ أولئك الذين ينحازون إلىٰ (الجبر) فكرياً وفلسفياً ويستدلون به، عندما يدخلون خضم الحياة يكونون من أتباع مبدأ حرية الإرادة. لأنه إذا اعتدىٰ أحد علىٰ حقوقهم أو قام بأذاهم يرونه مستحقاً للعقاب فيشكونه للمحكمة، وقد يصرخون في وجهه، ولا يستقر لهم قرار

حتىٰ ينال عقابه!.

حسناً، إذا كان الإنسان لا يملك لنفسه إرادة واختياراً، فلماذا كل هذا الصراخ والشكوىٰ؟!.

علىٰ أية حال، فإن هذا دليل حي علىٰ أن ضمائر جميع عقلاء العالم متفقون في أعماقهم بحرية الإرادة، وأنهم مؤمنون بذلك ولا يستطيعون العيش ليوم واحد دون هذه العقيدة، كما لا يستطيعون تنفيذ برامجهم الاجتماعية. وقد قال الفيلسوف الإسلامي الكبير الشيخ نصير الدين الطوسي «والضرورة قاضية باستناد أفعالنا إلينا»[1].

* * *

٢ ـ تضاد منطق (الجبر) مع منطق (الدين)[2]:

إن ما ذكرناه آنفاً كان عن (تضاد) عقيدة الجبر مع ضمير أو الرأي العام لعقلاء العالم. بغض النظر عن أولئك التابعين لمذهب ودين أو الذين يرفضون المذهب والدين. ولكن من حيث الفكر الديني هناك دليل قاطع آخر علىٰ بطلان عقيدة الجبر، لأنه لا يمكن أن تنسجم العقائد الدينية مع عقيدة الجبر، فلو قبلت الأديان عقيدة الجبر فإن جميع برامجها ستضطرب وتنهار، إذ كيف يمكن أن نطبق العدل الإلهي الذي أوضحناه في البحوث السابقة، علىٰ عقيدة الجبر؟! كيف يمكن أن يجبر الله سبحانه وتعالىٰ أحداً علىٰ ارتكاب الخطيئة؟! ثم يقوم بعد ذلك بعقابه؟! ليس هذا منطقياً أبداً!! من جهةٍ أخرىٰ فإن قبول عقيدة الجبر سيجعل؛ الثواب والعقاب والجنة والنار بلا معنىٰ. كما ستزول مفاهيم: كتاب الأعمال، السؤال، الحساب

---

(١) كتاب (تجربة العقائد).

(٢) (التضاد) هي الكلمة التي يعتمدها الشيخ نصير الدين الطوسي، وابن سينا ـ يراجع التنبيهات والإشارات لابن سينا (المترجم).

الإلهي، والمذمّة الواردة في الآيات القرآنية بالنسبة للمذنبين، والإشادة بالمحسنين. لأنه طبقاً لهذه الفرضية سيكون المذنب والمحسن دون إرادة فيما يقوم به.

إضافة إلىٰ ذلك إن أول ما يواجهنا في الدين هو: مسألة التكليف والمسؤولية، ولكن عندما يكون الشخص مسلوب الإرادة فهل هناك معنىٰ للتكليف والمسؤولية بالنسبة إليه؟!.

وهل يمكن القول لشخص ترتجف يداه: لا تفعل ذلك؟.

أو أن نطلب من شخص ينحدر من منحدر شديد أن يقف!!.

ولهذا السبب يقول أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (ع) عن عقيدة الجبر: «تلك مقالة إخوان عبدة الأوثان وخصماء الرحمن وحزب الشيطان»[١].

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ ما هو أوضح دليل علىٰ بطلان عقيدة الجبر؟.
٢ ـ اشرح الرأي العام العالمي حول مبدأ حرية الإرادة.
٣ ـ هل أتباع عقيدة الجبر، هم جبريون عملاً أيضاً؟.
٤ ـ هل أن عقيدة الجبر تنسجم مع العدل الإلهي؟ وإن لم يكن فلماذا؟.
٥ ـ كيف أن حرية الإرادة تشكل عمود قبول التكليف والمسؤولية؟.

* * *

(١) أصول كافي ج ١ ص ١١٩ باب الجبر والقدر.

الدرس الثامن

ما هو
الأمر بين الأمرين

١ ـ التفويض أمام الجبر:

طبعاً أمام الاعتقاد بالجبر، الذي يكون بمستوىٰ (الإفراط) هناك مذهب آخر باسم (التفويض) الذي يستوي مع (التفريط). إن الذين يعتقدون بالتفويض يرون أن الله تعالىٰ قد خلقنا وخلق كل شيء و (فوّض) إلينا كل شيء، وإنه لا يعرف شيئاً عن أعمالنا، وعليه فإن كل ما يدخل في نطاق أفعالنا نحن مستقلون به دون أي تدخل آخر!.

لا شك أن هذه العقيدة لا تنسجم مع مبدأ التوحيد، لأن التوحيد علّمنا أن الكون كله لله تبارك وتعالىٰ، ولا يخرج شيء عن علمه حتىٰ أعمالنا، رغم أنها متروكة لاختيارنا وحرية إرادتنا لا يمكن أن تخرج عن علمه، وإلاّ لكان ذلك شركاً، بعبارة أخرىٰ؛ إننا لا يمكن أن نؤمن بوجود إلٰهين أحدهما كبير خلق العالم، والآخر صغير أي الإنسان المستقل في أعماله الذي لا يتدخل حتىٰ الله (أعوذ بالله) في حدود أعماله. وهذا شرك، لأنه يدل علىٰ العبادات المشتركة. والمهم الآن هو أن نعتبر الإنسان حراً

وصاحب إرادة واختيار، وأن الله تبارك وتعالىٰ حاكم ومشرف علىٰ أعماله.

* * *

٢ ـ (مذهب الواسطة):

إن النقطة الدقيقة هي هنا أن لا نتصور أنها بين متناقضين متضادين، وهذه النقطة هي أن نقبل العدل الإلهي كاملاً، ونعتبر الإنسان حراً ومسؤولاً، وأن (التوحيد) مشرف علىٰ كل شيء في الوجود. وهذا الأمر هو ما يُطلق عليه (الأمر بين الأمرين) ـ أي الشيء الذي يكون بين عقيدتي (الإفراط والخطأ).

نظراً لأن الموضوع معقّد بعض الشيء اسمحوا لنا أن نأتي بمثال لتوضيحه: افرضوا أنكم تسافرون بقطار كهربائي والسائق هو أنت، وهناك سلك كهربائي قوي يمتد علىٰ طريق القطار، والحلقة الخاصة موصلة بالسلك وتتحرك عليه، وتنقل شحنات الكهرباء إلىٰ ماكنة القطار، فإذا انقطع الكهرباء لحظة فإن القطار يقف في مكانه ولا يتحرك. ولا شك أنك حر بالذهاب إلىٰ أي مكان تريد والوقوف أثناء الطريق أو تسير بالسرعة التي تريد، ولكن رغم كل هذه الحرية، فإن الشخص الذي يزود السلك بالكهرباء يمكنه أن يجعلك تقف عن الحركة في أية لحظة يشاء، لأن جميع القوة التي تملكها تأتي عبر السلك، ومفتاحه بيد ذلك الشخص.

إذا دققنا النظر في هذا المثال سنرىٰ أن هذا الشخص رغم امتلاكه للحرية والاختيار والمسؤولية إلاّ أنه تحت اختيار قوىٰ أخرىٰ، وهذا لا يناقض أحدهما الآخر.

مثال آخر:

افرضوا أن شخصاً، ونتيجة لمرض أو حادثة، أُصيبت أعصاب يده بالعطب، وفقد القدرة علىٰ الحركة، ولكننا لو ربطنا تلك الأعصاب بقوة

كهربائية ضعيفة، فإن الحرارة تدب في الأعصاب وتبدأ الحركة. إن هذا الشخص إذا أدىٰ عملاً بتلك اليد، أو ارتكب جريمة، صَفَعَ شخصاً، أو طعن صدر شخص بالسكين، لا شك أنه سيكون مسؤولاً عن عمله، لأنه يملك القدرة والاختيار، والشخص (القادر المختار) مسؤول عن أعمال نفسه. ولكن رغم ذلك فإن الشخص الذي يمدّ اليد المصابة بالقدرة عن طريق الكهرباء يكون حاكماً بالنسبة للشخص المصاب رغم أن هذا الشخص يملك الحرية والاختيار.

والآن نعود مرة أخرىٰ إلىٰ أصل الموضوع:

إن الله سبحانه وتعالىٰ منحنا القوة والقدرة والعقل والذكاء، وهذه الإمكانيات تأتينا بالتدريج، وإذا انقطع لطفه ورعايته لنا لحظة، وانقطعت علاقتنا به فإننا سنموت، ونحن إذ نتمكن من أداء عمل إنما ذلك بالقدرة التي منحنا إياها، أي أنه تبارك وتعالىٰ، أراد أن نكون أحراراً، وأن نستفيد من هذه الموهبة الإلهية الكبيرة لنطوي طريق التكامل.

وعليه فرغم أننا نملك الحرية والاختيار إلآ أننا في قبضته المقتدرة وتحت رحمته ولا يمكن أن نخرج عن حكمه، وهذا يعني في نفس الوقت أننا رغم استطاعتنا وقدرتنا مرتبطون به عز وجل وبدونه لسنا شيئاً، وهذا هو معنىٰ (الأمر بين الأمرين) لأننا لا نعرف موجوداً بمستوىٰ الله تباركت أسماؤه، حتىٰ يظهر لدينا الشِّرك، ولا العباد مجبرون في أعمالهم، لكي يظهر الظلم. (تأمل ذلك).

إن هذا الدرس تعلمناه من مدرسة أئمة أهل البيت (ع)، فعندما كانوا يُسألون: هل يوجد طريق آخر بين الجبر والتفويض؟ فيجيبون: نعم، أوسع من المسافة بين الأرض والسماء[1].

---

(١) أصول الكافي ج ١ ص ١٢١ ـ باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين.

٣ ـ القرآن الكريم ومسألة الجبر والاختيار:

القرآن الكريم صريح في هذا الموضوع، ويؤكد بوضوح حرية إرادة الإنسان، وقد جاءت في ذلك مئات الآيات الشريفة.

أ ـ إن جميع الآيات في الأمر والنهي والتكليف والبرامج، دليل علىٰ الاختيار وحرية إرادة الإنسان، لأن الإنسان لو كان مجبراً لكان الأمر والنهي شيئاً عبثاً.

ب ـ إن الآيات التي تنص علىٰ لوم الخاطئين، ومدح الطيبين، دليل علىٰ الاختيار لأن الملامة والمدح لا معنىٰ لهما في الجبر.

ج ـ إن جميع الآيات التي تتعلق بيوم القيامة، والمحاسبة في ذلك اليوم، ثم الجزاء والعقاب والجنة والنار، دليل علىٰ الاختيار، لأنه في حالة الجبر لا معنىٰ لكل تلك المفاهيم من محاسبة ومعاقبة المذنبين لأنه سيكون ظلماً محضاً.

د ـ إن جميع الآيات التي تنص علىٰ أن الإنسان رهن بأعماله مثل: ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾ (المدثر: ٣٧) ـ و ﴿ **كل امرىء بما كسب رهين** ﴾ (الطور: ٢١).

وأمثال هذه الآيات تدل بوضوح علىٰ أن الإنسان يملك الاختيار.

هـ ـ إن آيات مثل: ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾ (الدهر: ٣) دليل أيضاً علىٰ ما ذهبنا إليه.

الخلاصة: إن التعابير الواردة في القرآن الكريم تدل علىٰ مسألة (الأمر بين الأمرين)، وأحياناً يعتقد بعض الغافلين أن ذلك يدل علىٰ الجبر مثل هذه الآية: ﴿ وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله ﴾ (الدهر: ٣٠).

من الواضح أن هذه الآية وأمثالها لا تريد سلب الاختيار من الإنسان، بل إنها تريد أن تثبت هذه الحقيقة وهي أنك رغم امتلاكك للاختيار إلاّ أنك تحت أمر الله سبحانه وتعالىٰ. وقد أوضحنا ذلك فيما سبق.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ ما هو المقصود بـ (التفويض)؟ وما هو النقص في ذلك؟.

٢ ـ اشرح بعبارات واضحة (الأمر بين الأمرين) الذي تعلمناه من أئمة أهل البيت (ع) واذكر أمثلة علىٰ ذلك.

٣ ـ ماذا تقول الآيات القرآنية فيما يتعلق بالجبر والاختيار؟.

٤ ـ إذا قبلنا عقيدة الاختيار، فماذا عن البعث، والجنة والنار، والحساب يوم القيامة؟!.

٥ ـ هل إن آيات مثل ﴿ وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله ﴾ دليل علىٰ الجبر؟!.

* * *

الدرس التاسع

هل إن الهداية والضلالة بيد الله تعالىٰ؟!!!

١ ـ أقسام الهداية والضلالة:

يتقدم مسافر نحوك وبيده عنوان ويسألك، ولكي تدله علىٰ ما يريد أمامك طريقان: الأول هو أن تذهب معه وتصل إلىٰ مرحلة الكمال في عمل الخير الذي تقوم به، فيصل المسافر إلىٰ مقصده ثم تودعه. والثاني أن تدله بالإشارات المختلفة نحو ما يسأل عنه. علىٰ كل حال إنك تدله نحو هدفه، ولكن هناك فرق بين الأسلوبين، فالثاني (إشارة إلىٰ الطريق) بينما الأول (إيصال إلىٰ المطلوب)، وفي القرآن الكريم والأحاديث الإسلامية فإن (الهداية) تحمل المعنيين. من جهة أخرىٰ فإن (الهداية) تحمل معنىً تشريعياً، أي أنها تتم عبر القوانين والقرارات، وأحياناً يكون لها معنىٰ تكويني، أي عبر أجهزة الخَلْق، كالسير بالنطفة نحو الإنسان الكامل، وهذان المعنيان جاءا في القرآن الكريم وفي الروايات وأخبار الأئمة (ع)، ومع توضيح أقسام الهداية (وطبعاً فإن النقطة المقابلة لها هي الضلالة) نعود

إلىٰ أصل الموضوع.

نقرأ في آياتٍ كثيرة إن الهداية والضلالة من الله تعالىٰ، ولا شك أن الله تبارك وتعالىٰ (يدل علىٰ الطريق)، لأنه سبحانه وتعالىٰ أرسل الأنبياء (ع) وأنزل الكتب السماوية ليدل الإنسان علىٰ الطريق. أما (الوصول إلىٰ المقصود) جبرياً فإنه لا ينسجم أبداً مع مبدأ حرية الإرادة والاختيار. ولكن نظراً لأننا نحتاج إلىٰ جميع القوىٰ للوصول إلىٰ الهدف فإن الله تبارك وتعالىٰ يوفر لنا ذلك ويجعلنا نتوفّق فيما نسعىٰ إليه، وهذا النوع من الهداية هي من جانب الله عز وجل، وذلك عبر إعداد الأسباب والمقدمات ووضعها تحت تصرف البشر.

* * *

٢ ـ سؤال مهم:

والآن يطرح سؤال مهم نفسه؛ إن الكثير من الآيات القرآنية تذكر ما ورد في هذه الآية: ﴿ **فيُضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم** ﴾ (إبراهيم: ٤) فنجد البعض يعترض لدىٰ مشاهدته هذه الآية ودون أن يلتفت إلىٰ الآيات الأخرىٰ التي تفسر بعضها بعضاً، يعترضون: كيف يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء؟ ثم ما هو ذنبنا نحن في هذا المجال؟!!.

إن النقطة المهمة هي أن الآيات القرآنية يجب أن نأخذ بنظر الاعتبار علىٰ أساس أن بعضها تتعلق ببعض، لكي نصل إلىٰ المفهوم الحقيقي، ونحن هنا سنورد آيات أخرىٰ عن (الهداية) و (الضلالة) لتضعوها إلىٰ جانب تلك الآية ثم تستنتجوا بأنفسكم:

- ﴿ **ويضل الله الظالمين** ﴾ (إبراهيم: ٢٧).
- ﴿ **كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب** ﴾ (غافر: ٣٤).

﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلنا ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

وكما نلاحظ فإن مشيئة وإرادة الله ليست عفوية ودون حساب، فهو عز وجل لا يهدي أحداً بلا حساب، ولا يسلب حقّ أحد بلا حساب. فالله سبحانه وتعالىٰ وعد بهداية من يجاهدون في سبيله، ومن يتقدمون لحل المشاكل، ويحاربون هوىٰ النفس، ويقاومون بشدة الأعداء، ولهذا فإنه عين العدالة. وأما أولئك الذين ينشرون الظلم والاستبداد، ويبثون الوسوسة في القلوب عن طريق الإسراف والشك والتردد، فإن الله تبارك وتعالىٰ يسلب منهم توفيق الهداية، ويبث الظلام في قلوبهم، ويحرمهم من الوصول إلىٰ السعادة، وهذا هو معنىٰ ضلال الله عز وجل، الذي ما هو إلاّ نتيجة أعمالنا التي أوكلت إلينا.. وهذا هو عين العدالة.

* * *

٣ ـ العلم الأزلي سبب التمرد!!

آخر موضوع في بحث الجبر والاختيار والذي نرىٰ من الضروري أن نطرحه هو الحجة التي يتمسك بها الجبريون في العلم الأزلي لله تبارك وتعالىٰ. فهم يقولون:

ـ هل إن الله كان يعلم أن الشخص الفلاني يرتكب في الساعة الفلانية جريمة قتل، أو يشرب المشروبات الكحولية؟!.

فإذا قلت (لم يكن يعلم)، فإنك تكون قد أنكرت علم الله عز وجل، وإذا قلت (كان يعلم) أنه كان يجب أن يقوم بذلك العمل فإن علم الله يكون خلافاً لما هو عليه.

إذن ولكي يبقىٰ علم الله محفوظاً وقائماً فإنه لا بد أن يقوم الخطاة بخطاياهم، ويقوم المؤمنون المطيعون بطاعاتهم!!.

أما أولئك الذين رتّبوا هذه الحجة للتغطية علىٰ خطاياهم وذنوبهم،

قد غفلوا في الحقيقة عن نقطة هي أننا نقول: إن الله عز وجل كان يعلم منذ الأزل أننا نتصرف بإرادتنا واختيارنا مطيعين أو مذنبين، وهذا يعني أن إرادتنا واختيارنا كان بعلم الله سبحانه، وإذا كنا مجبرين فإن علم الله تعالىٰ يكون جهلاً (تأمل ذلك بدقة).

اسمحوا لنا أن نوضح هذا الموضوع بسؤال أو سؤالين: افرضوا أن أستاذاً أو معلماً يعلم أن التلميذ الفلاني كسول وسيفشل في الامتحان النهائي، إن هذا العلم لدىٰ الأستاذ قطعي ومائة بالمائة، وبُني علىٰ أساس تجارب سنوات العمر.. فهل من الممكن أن يأتي هذا التلميذ الفاشل ويمسك بالأستاذ ويقول له إن توقعك هو الذي جعلني أفشل في الامتحان؟!!.

لنذهب إلىٰ أبعد من ذلك، افرضوا أن شخصاً بريئاً لا ذنب له علم بوقوع جريمة في اليوم الفلاني، ويرىٰ أنه من المصلحة أن يتدخل في الأمر، فهل إن علم هذا الشخص البريء يسلب مسؤولية الجريمة عن المجرم ويعتبره مجبراً علىٰ ذلك؟!!.

وافرضوا أيضاً أن جهازاً جديداً قد اختُرع بإمكانه الإعلان عن الحوادث التي سوف تقع بعد عدة ساعات بدقة، ويقول إن الشخص الفلاني سيقوم بإرادته في الساعة الفلانية بالعمل الفلاني. فهل هذا الموضوع سيجعل ذلك العمل إجبارياً علىٰ الشخص؟!!.

الخلاصة: إن علم الله تبارك وتعالىٰ لا يجعل أي شخص مجبراً علىٰ أي عمل.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ ما هي أنواع الهداية؟.. إشرح ذلك.

٢ ـ أذكر نماذج من الآيات القرآنية التي تنسب الهداية والضلالة لله عز وجل.

٣ ـ ما هو تفسير الهداية والضلالة الإلهية؟.

٤ ـ ما هو المقصود بالعلم الأزلي لله تبارك وتعالىٰ؟.

٥ ـ هل إن العلم الأزلي يسلب الاختيار والمسؤولية منا؟ أذكر مثالاً؟.

* * *

الدرس العاشر

العدل الإلهي
ومسألة (الخلود)

نحن نعلم أن القرآن الكريم يتحدث عن عقاب بعض الكفار والمذنبين وأن جزاءهم خالد، فقد وَرَدَ في سورة التوبة ـ الآية ٦٨:

﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها.. ﴾.

وجاء في الآية ٧٢:

﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾.

وهنا يتبادر إلىٰ الذهن هذا السؤال: كيف يمكن قبول أن إنساناً طول عمره الذي لا يتجاوز الثمانين أو المائة عام، واقترف ذنباً يظل لملايين السنين يذوق العذاب!!.

طبعاً هذا الموضوع بالنسبة للثواب ليس مهماً، لأن رحمة الله واسعة

جداً وكلما زاد الثواب كانت رحمة الله أفضل وأوسع، أما بالنسبة للأعمال السيئة، فكيف يمكن أن يكون العذاب خالداً أمام الخطايا المحدودة؟! وكيف يمكن تفسير ذلك مع مبدأ العدل الإلهي؟! ألا يجب أن يكون هناك تعادل بين الخطيئة والعقاب؟.

* * *

الجواب:

للوصول إلىٰ الحل النهائي في هذا البحث يجب ملاحظة بعض النقط بدقة:

أ ـ إن العقاب والثواب يوم القيامة لا يشبهان العقاب والثواب في هذه الدنيا، مثلاً إن شخصاً يرتكب عدواناً وسرقة يُلقىٰ به في السجن، بينما العقاب يوم القيامة يكون علىٰ الأكثر علىٰ شكل آثار أعمال، وذات خاصية أعمال الإنسان نفسه. وبتعبير أكثر وضوحاً، إن الآلام والعذاب اللذين يتلقاهما الإنسان في العالم الآخر هما آثار ونتائج عمله، فالقرآن الكريم يقول: ﴿ **فاليوم لا تُظلم نفس شيئاً ولا تُجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾[1].

ونستطيع بمثال واحد أن نجسّد هذه الحقيقة:

يتجه شخص نحو المواد المخدرة والمشروبات الكحولية، ومهما قيل إن هذه المواد سامة تتلف معدتك وقلبك وتحطم أعصابك، فإنه لن يصغي، ويستغرق لعدة أسابيع وأشهر في اللذة الخيالية لهذه المواد القاتلة، وبالتدريج يصاب بقرحة في المعدة، وتضطرب دقات قلبه، وتتحطم أعصابه، وهكذا يبقىٰ مريضاً لبقية سنوات عمره، ويتحمل آلام المرض ليل نهار. وهنا هل يمكن أن يقال عن هذا الشخص: لماذا يتعذب لسنوات،

(١) سورة يٰس ـ ٥٤.

بقية عمره، بسبب عدة أسابيع أو أشهر من الخطيئة؟!.

يُقال فوراً جواباً علىٰ ذلك؛ إنه نتيجة عمله!! إنه لو عَمّر مثل النبي نوح عليه السلام، وعاش لآلاف السنين فإننا نراه يتعذب دائماً. ونقول: إن ما هو فيه إنما جلبه هو بنفسه علىٰ نفسه.

العقاب في يوم القيامة، هو علىٰ الأكثر من هذا القبيل، ولذا لا يبقىٰ ما يؤخذ عليه في مسألة (العدل).

ب ـ إنه لمن الخطأ أن يتصور البعض أن زمن العقاب يجب أن يكون بمقدار زمن الخطيئة، لأن العلاقة بين الخطيئة والعقاب ليست علاقة زمن، وإنما ترتبط بنتيجة وكيفية الخطيئة.

مثلاً شخصاً يقوم في لحظة بخطيئة قتل إنسان، وطبقاً لبعض القوانين في عالم اليوم يُحكم علىٰ القاتل بالسجن المؤبد، في هذه الحالة نلاحظ أن زمن القتل لا يزيد عن لحظة، بينما العقاب امتد لعشرات السنين، ولا يمكن أن يتصور أحد أن الحكم مجحف، لأن في هذا الموضوع ليس المهم الدقيقة والساعة والشهر والسنة، وإنما نتيجة وكيفية الخطيئة.

ج ـ إن (الخلود) في جهنم والجزاء الأبدي والخالد، هو من نصيب أولئك الذين أغلقوا جميع أبواب النجاة علىٰ أنفسهم، وغرقوا في الفساد والضياع عن علم وعمد، إن الظلام لف جميع وجود هؤلاء حتىٰ أصبحوا بلون الخطيئة نفسها والكفر نفسه. وللقرآن الكريم تعبير لطيف في هذا المجال: ﴿ **بلىٰ من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾[1].

إن مثل هؤلاء الأشخاص قطعوا ارتباطهم بالله عز وجل تماماً، وأغلقوا جميع منافذ النجاة والسعادة علىٰ أنفسهم. إن هؤلاء الأشخاص

---

(١) سورة البقرة ـ ٨١.

أشبه ما يكونون بطائر حطّم بعلم منه جناحه وأحرقه، ولهذا فهو مجبر علىٰ البقاء دائماً وأبداً علىٰ الأرض ويُحرم من التحليق في السماء.

* * *

ملاحظة النقط الثلاثة المذكورة أعلاه تكشف عن هذه الحقيقة وهي أن مسألة العذاب الخالد التي تصيب مجموعة من المنافقين والكفار، لا تخرج أبداً عن نطاق مبدأ (العدل)، بل إنها نتيجة أعمال أولئك، وقبل ذلك أُبلغوا بالنتيجة عن طريق الأنبياء والرسل (ع)، وأنها ستكون مُرّة ومؤلمة.

ولا شك لو كان هؤلاء الأشخاص جهلاء، ولم تصل إليهم دعوات الأنبياء، وارتكبوا أعمالهم عن جهل، فإن مثل هذا العذاب الشديد لن يشملهم.

من الضروري أن نذكر أن الآيات القرآنية والروايات الإسلامية تذكر أن رحمة الله عز وجل واسعة بحيث أنها تشمل جمعاً عظيماً من الخطاة، مجموعة عن طريق الشفاعة، ومجموعة عن طريق العفو، ومجموعة عن طريق الأعمال الخيرية الصغيرة، والله تبارك وتعالىٰ بعظمته يعطي أجراً كبيراً لهذه الأعمال الصغيرة. ومجموعة أخرىٰ، بعد أن يعذبوا لمدة في جهنم وتتم تصفية حساباتهم في الامتحان الإلهي، يعودون إلىٰ رحمة الله ولطفه.

وتبقىٰ مجموعة، ونتيجة تمردها وعدائها للحق واستغراقها في الظلم والفساد والنفاق أكثر فأكثر، يلفها ظلام الكفر وعدم الإيمان، فهؤلاء لهم الجزاء الخالد.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ كيف تصوّر البعض وجود عدم انسجام بين (الخلود) و (العدل الإلهي)؟

٢ ـ هل العقاب والثواب في العالم الآخر يشبه العقاب والثواب في هذا العالم؟ فإن لم يكن كذلك، فكيف هما؟

٣ ـ هل يستوجب (العدل) تعادلاً بين زمن الخطيئة والجزاء؟

٤ ـ جزاء (الخلود) من نصيب أي نوع من الأشخاص؟

٥ ـ أي نوع من الأشخاص يشملهم العفو الإلهي؟.

* * *

- ٣ -

عشرة دروس في النبوة

الدرس الأول

حاجتنا
إلىٰ قادة إلهيين

علمنا المحدود:

من الممكن أن يفكر البعض؛ هل ضروري إرسال وبعث الأنبياء من قبل الله عز وجل لهداية الناس؟ ألا يكفي عقلنا لإدراك الحقائق؟ ألا تساعد العلوم المكتشفة الإنسان علىٰ كشف الأسرار وتوضيح الحقائق؟.

ثم إن ما يمكن أن يأتي به الأنبياء لنا لا يخرج عن حالتين؛ إما أن عقولنا تدرك ذلك، أو أنها لا تدركه.

في الحالة الأولىٰ، فإننا لا نحتاج إلىٰ جهود الأنبياء، وفي الحالة الثانية إننا لا نستطيع تقبل ما يخالف عقولنا!!.

من جهة أخرىٰ، هل من الصحيح أن يضع الإنسان نفسه تحت إشراف شخص آخر ويقبل كلامه دون سؤال وجواب؟ أليس الإنسان بشراً مثلنا؟ فكيف إذن نضع أنفسنا تحت إشراف وتصرف أشخاص مثلنا؟.

الأجوبة:

بملاحظة عدة نقط تتوضح أجوبة جميع هذه الأسئلة، وتتبين مكانة الأنبياء (ع) في نظام حياة الإنسان.

١ ـ نحن يجب أن نعلم إن علمنا محدود، ومع جميع التقدم الذي حصل عليه الإنسان فإن ما نعلمه لا يزيد عن قطرة في بحر العلم، وقشة أمام جبل، أو كما قال بعض العلماء الكبار: إن جميع العلوم التي نمتلكها اليوم لا تعدو حرف الألف في كتاب عالم الوجود الكبير.

بتعبير آخر، إن مساحة إدراكنا العقلي منطقة صغيرة أنارتها أشعة العلم، ونحن في الحقيقة في جهل عما هو خارج هذه المنطقة.

ويأتي الأنبياء (ع) فينيروا هذه المنطقة بالاتساع الذي نحتاج إليه، وفي الحقيقة إن عقولنا أشبه ما تكون بمثابة مصابيح قوية، ولكن الأنبياء والوحي السماوي شمسٌ ساطعة، فهل يستطيع أحد أن يقول ما حاجتي إلىٰ الشمس وأنا أملك مصباحاً قوياً؟!!.

وأيضاً بتعبير أكثر وضوحاً، يمكن تقسيم قضايا الحياة إلىٰ ثلاثة أقسام: (معقول) و (غيرَ معقول) و (مجهول). الأنبياء لا ينطقون أبداً بما ينافي العقل، أي كلام غير معقول، وإذا قالوا ذلك فإنهم ليسوا بأنبياء، ولكنهم يساعدوننا كثيراً في فهم وإدراك المجهولات، وهذا مهم جداً بالنسبة لنا، وعليه فإن الأشخاص الذين كانوا يقولون إنه لا حاجة للأنبياء طالما العقل الإنساني موجود (أمثال: البراهمة، الذين يعيشون في الهند وبعض النقط الأخرىٰ)، وأولئك الذين يقولون اليوم إنه مع كل هذه الاختراعات والاكتشافات فلا حاجة للأنبياء وتعاليمهم، فهؤلاء لم يعرفوا حدود العلم البشري ولا رسالة الأنبياء.

وهذا يشبه تماماً ذلك الطفل الذي تعلم الألف باء في الصف الأول فيقول إنني تعلمت كل شيء ولا أحتاج لمعلمٍ وأستاذ.. ألا ترون أن هذا الكلام لا أساس له؟!!.

ثم إن الأنبياء (ع) ليسوا معلمين فقط، فإن قيادتهم قضية سنشرحها فيما بعد.

٢ ـ ليس هناك أحد يقول إن الإنسان يجب ان يضع نفسه تماماً تحت إشراف شخص آخر. إن الأنبياء (ع) ـ كما سنثبت فيما بعد ـ لهم رابطة بالعلم اللامتناهي لله سبحانه وتعالىٰ بواسطة الوحي. ونحن يجب أن نعرف، عن طريق الدلائل الثابتة، ارتباطهم بالله سبحانه، لأنه عن هذا الطريق يمكننا أن نقبل كلام هؤلاء القادة السماويين، وتعليماتهم المنطقية، بكل رحابة صدر. فلو عملنا وفق تعليمات طبيب ماهر نكون قد قمنا بعملٍ مخالف؟!.

إن الأنبياء (ع) أطباء ماهرون وروحانيون كبار.. فهل أكون مخالفاً لو قمتُ بقبول درس معلم وأستاذ عقلياً وفكرياً؟! إن الأنبياء معلمون كبار للبشرية.

* * *

من الضروري أن ندرس بشكل أدق دلائل بعث الأنبياء من قبل الله تعالىٰ.

إننا بثلاثة أدلة حيّة نحتاج إلىٰ تعليمات الأنبياء (ع).

١ ـ الحاجة إلىٰ التعليم:

إننا لو ركبنا سفينة خيالية أسطورية مصنوعة من أمواج النور، تسير بنا بسرعة ٣٠٠ ألف كيلومتر في كل ثانية، لا شك أننا نحتاج إلىٰ آلاف

المرات بقدر عمر النبي نوح (ع) لكي نتمكن أن نرىٰ زاوية من الكون الواسع الفسيح. ولا شك أن هذا الكون بهذا الاتساع العجيب، لم يُخلق عبثاً، فكما تعلّمنا في القسم الأول من هذا الكتاب، إن خلق هذا الكون ليس فيه فائدة وربح لله تبارك وتعالىٰ، لأنه وجود متكامل من جميع النواحي، ليس بحاجة لشيء، ومتناهي، ليس فيه نقص حتىٰ يريد بخلق الكون والبشر أن يزيل النقص.

ولهذا نستنتج أن هدفه هو أن يجود علىٰ سائر المخلوقات بالتكامل، كالشمس، التي تشع علينا بالنور دون أن تكون بحاجة إلينا، وإلا فماذا نستطيع نحن أن نفعل للشمس؟!!.

من جهةٍ أخرىٰ؛ فهل إن معلوماتنا تكفي وحدها في طي طريق التكامل للوصول إلىٰ مرحلة الإنسان الكامل؟!.

أي مقدار نحن نعلم من أسرار العالم؟ ثم.. ما هي حقيقة الحياة؟! متىٰ خُلق أو وُجد هذا العالم؟!.. لا يعرف أحد، بصورة دقيقة، جواب هذه الأسئلة.. إلىٰ متىٰ سيبقىٰ هذا العالم؟! لا يستطيع أحد الإجابة علىٰ ذلك أيضاً..

إن لكل عالم من العلماء نظرية عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية. مثلاً إن مجموعة تدعو للرأسمالية، ومجموعة أخرىٰ تدعو للاشتراكية والشيوعية، ومجموعة ثالثة ترفض الدعوتين وتعتبرهما ضارتين.

كذلك في مسائل الحياة الأخرىٰ، فإن اختلاف آراء العلماء كثيرة. والإنسان يبقىٰ حائراً، أياً من هؤلاء يقبل!.

وهنا يجب الاعتراف بأن الوصول إلىٰ الهدف الأساس من الخلق، يعني النمو وتكامل الإنسان في جميع المجالات، ويحتاج إلىٰ سلسلة من التعليمات الصحيحة الخالية من الخطأ، ويعتمد علىٰ واقعيات الحياة، وهناك تعليمات تساعد الإنسان في الوصول إلىٰ الهدف عبر هذا الطريق

الطويل.

ويحصل كل ذلك عن طريق علم الله تعالىٰ، أي الوحي الذي ينزل علىٰ الأنبياء، ولهذا السبب فإن الله الذي خلقنا للسير في هذا الطريق لا بد أن يمنحنا مثل هذا العلم.

* * *

٢ ـ الحاجة للقيادة في المجالات الاجتماعية والأخلاقية:

نحن نعلم أنه بالإضافة إلىٰ (العقل) توجد لدينا قوىٰ أخرىٰ هي (الغرائز والميول)، غريزة حب الذات، والغضب، والشهوة.. وغيرها.

ولا شك أننا لو لم نقدر علىٰ كبح جماح غرائزنا، فإنها ستقوم حتىٰ بسجن عقولنا، ويتبدل الإنسان إلىٰ مستكبر ومستبد، ويصبح أخطر من الذئاب المفترسة.

إننا لكي نُربّىٰ تربية أخلاقية نحتاج إلىٰ معلم، نحتاج إلىٰ (نموذج) و (أُسوة)، نتعلم، طبقاً لمبدأ المحاكاة، منه الكلام والتصرف والمُثل. وفي هذه الحياة المتلاطمة نحن نحتاج إلىٰ إنسان كامل، ذي تربية متكاملة، لكي يأخذ بأيدينا، ويحول دون تمرد غرائزنا، ويرسّخ فينا فضائل الأخلاق بعمله وكلامه، وينمّي فينا الشجاعة والشهامة، وحب الإنسان، والمروءة والإيثار، والوفاء والصدق، والأمانة والطهارة.

ومَنْ غير الأنبياء المعصومين يُمكن أن يُنتخبوا كمربين ومعلمين؟!.

ولهذا السبب لا يمكن أن يحرمنا الله القادر الرحيم من وجود أمثال هؤلاء القادة والمربين.

(للبحث بقية في الدرس القادم)

* * *

فكر وأجب:

١ ـ إذا ازداد علمكم هل تشعرون أن المجهولات هي أكثر من معلوماتنا؟ هات مثالاً.

٢ ـ هل يمكن أن توضح الفرق بين التقليد الأعمىٰ وبين اتباع الأنبياء؟.

٣ ـ لو أننا سرنا في طريق مجهول دون دليل، ما هي الأخطار التي من الممكن أن تهددنا؟.

٤ ـ وضّح أبعاد حاجتنا إلىٰ قيادة الأنبياء.

٥ ـ هل يمكن أن تتصوّر البحث الآخر الذي بقي للدرس التالي ولم نذكره بعد؟.

* * *

الدرس الثاني

وضع القوانين
والحاجة إلىٰ وجود الأنبياء

عرفنا في الدرس السابق الحاجة إلىٰ وجود الأنبياء، من بُعدي (التعليم) و (التربية)، والآن حان الوقت للتحدث عن القوانين الاجتماعية والدور المهم الذي اضطلع به الأنبياء (ع) في هذا المجال.

نحن نعلم أن أهم ما تمتاز به حياة البشر ـ وهذا الامتياز هو في نفس الوقت أساس جميع التقدم في كافة مجالات الحياة ـ هي الحياة الاجتماعية المتحركة.

مما لا شك فيه لو أن البشر عاشوا بعيدين أحدهم عن الآخر، لكان جميعهم من حيث الفكر والحضارة يعيشون كإنسان العصر الحجري!.

نعم، إن المساعي الجماعية، التي تمثل مصباح الثقافة والحضارة، هي أساس جميع هذه الاكتشافات والاختراعات العلمية. مثلاً لو أخذنا بنظر الاعتبار قضية السفر إلىٰ القمر، نرىٰ أن هذا العمل ليس نتيجة مساعي عالِم أو عدة علماء كبار، وإنما جهود ملايين العلماء والخبراء طيلة آلاف

السنين عبر الدراسات والاكتشافات والتجارب، التي تمّت في جوٍ من الحياة الاجتماعية، حتىٰ وصلت إلىٰ هذه العظمة.

وإذا حدث أن طبيباً ماهراً جداً نجح في زرع قلب إنسان ميت، ولكنه يملك قلباً سليماً، في صدر إنسان آخر، وإنقاذه من الموت المؤكد، فإن ذلك نتيجة تجارب آلاف الأطباء والجراحين عبر التاريخ، نقلت من الأساتذة إلىٰ الطلاب..

ومما لا شك فيه أن هذه الحياة الاجتماعية لها، رغم كل هذه البركات مشاكل أيضاً، تتمثل بالتشابك واصطدام حقوق ومصالح البشر بعضهم ببعض، يصل أحياناً إلى الاعتداء وحتىٰ الحرب. وهنا تتضح ضرورة الحاجة للقانون والخطط والقرارات، والقوانين بإمكانها أن تحل لنا ثلاث مشاكل كبيرة:

١ ـ قانون حدود واجبات كل فرد أمام المجتمع، وواجبات المجتمع أمام كل شخص، مما يجعل الكفاءات تزدهر والمساعي تتناسق.

٢ ـ يمهد القانون الأرضية لإقامة إشراف علىٰ أعمال الأشخاص.

٣ ـ القانون يمنع اعتداء الأشخاص علىٰ حقوق الآخرين، ويمنع حدوث الاضطرابات والفوضىٰ وصراع الأشخاص والمجموعات، وعند الضرورة تعيّن العقاب المناسب للمعتدين.

* * *

من هو أفضل واضع للقانون؟

والآن لنرىٰ من الذي ينظّم القوانين لتلبية حاجات الإنسان أفضل من الآخرين، بحيث يراعي في ذلك المبادىء الثلاثة المذكورة أعلاه، وتتضح حدود واجبات وحقوق الفرد والمجتمع، إلىٰ جانب وجود الإشراف السليم والصالح علىٰ الأعمال ومنع العدوان.

اسمحوا لنا الآن أن نأتي بمثال بسيط:

من الممكن أن نشبّه المجتمع الإنساني بقطار كبير، والسلطة الحاكمة بماكنة القطار التي تسحب هذا القطار العظيم. والقانون بمثابة سكك الحديد الذي يُشخّص خط مسير هذا القطار للوصول إلىٰ الهدف، بما فيه من منعطفات وصعود ونزول، وجبال ووديان، ومن البديهي أن سكك الحديد يجب أن تكون لها المميزات التالية: إن الأرضية يجب أن تكون قوية لتتحمل الضغط الموجود. كما يجب أن تكون الفواصل منسّقة ودقيقة بين العجلات، وكذلك جدران الأنفاق وارتفاعها يجب أن تكون متناسبة مع الحد الأقصىٰ لارتفاع القطار، ومن جانب آخر يجب أن تكون التضاريس بشكل متناسب لا أن يأتي الانخفاض والارتفاع بسرعة تصعب معها السيطرة علىٰ فرامل القطار. ويجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار وبدقة احتمال تساقط أحجار الجبال علىٰ الجانبين، وانهيار حواشي الوديان التي يسير القطار علىٰ أطرافها، بالإضافة إلىٰ احتمال الفيضانات، وسقوط الثلوج من المرتفعات، ليتمكن القطار من الوصول إلىٰ الهدف، رغم كل الظروف.

مع الأخذ بنظر الاعتبار المثال الذي ذكرناه، نعود إلىٰ المجتمع الإنساني:

إن الذي يضع القوانين المثالية للإنسان يجب أن يتمتع بالصفات التالية:

١ ـ أن يعرف نوع الإنسان بشكل كامل، من غرائز وعواطف وحاجات ومشاكل.

٢ ـ أن يأخذ بنظر الاعتبار جميع الكفاءات لديه، وأن يستفيد من القوانين لازدهار هذه الكفاءات.

٣ ـ أن يحسب حساباً للحوادث التي من الممكن أن يتعرض لها المجتمع، مهما كان نوعها، وكذلك ردود الفعل في هذا المجال.

٤ ـ أن لا تكون له أية مصالح خاصة في المجتمع، لكي لا يفكر في مصالحه الشخصية أو المرتبطين به في المجتمع، عند وضع القوانين.

٥ ـ أن يكون مُلماً بجميع أنواع التقدم التي من الممكن أن يحصل عليها الإنسان وكذلك تخلفه، في هذا المجال.

٦ ـ يجب أن يكون واضع القانون مصوناً، إلىٰ أبعد حد، من الخطأ والنسيان.

٧ ـ ويجب أن يكون مقتدراً لإيهاب أي شخص مهما كان في المجتمع، ويكون في نفس الوقت رؤوفاً.

* * *

في أي شخص تجتمع هذه الشروط؟
هل يستطيع الإنسان أن يكون أفضل واضعٍ للقانون؟.
هل عرفَ أحدٌ الإنسان لحد الآن بصورة كاملة؟ بينما نجد أحد العلماء الكبار في عصرنا الحالي كتب كتاباً بعنوان (الإنسان ذلك المجهول).

هل تمت معرفة ميول وغرائز وعواطف الإنسان بصورة جيدة؟
هل إن حاجات الإنسان الجسدية والروحية للإنسان مكشوفة لغير الله؟
هل تستطيع أن تجد إنساناً عادياً في المجتمع ليس له مصالح شخصية خاصة؟

هل الإنسان مصون من الخطأ، وله علم بجميع المصائب التي تقع للأشخاص والمجتمعات؟

وعليه لا يمكن أن يكون هناك أفضل من الله تبارك وتعالىٰ والذين يتلقون الوحي الإلهي، مَن يضع القوانين الجامعة والمثلىٰ.

وهكذا نصل إلىٰ هذه النتيجة؛ إن الله عز وجل الذي خلق الإنسان

ليطوي طريق التكامل، يجب أن يكلف أشخاصاً لهدايته يتمكنون أن يضعوا القوانين السماوية الإلهية الكاملة تحت تصرف الإنسان. ومما لا شك فيه عندما يعرف الناس أن القوانين هذه، هي قوانين إلهية، يقومون بتنفيذها بكل اطمئنان، وكما يقولون فإن هذه المعرفة هي ضمان لتنفيذ هذه القوانين بشكل تام.

* * *

رابطة التوحيد والنبوة:

وهنا من الضروري أيضاً أن نهتم بهذه النقطة؛ وهي، إن نظام الخَلْق بحد ذاته دليل حي علىٰ وجود الأنبياء ورسالاتهم.

وتوضيحاً نقول: إن دراسة مختصرة في هذا النظام العجيب للوجود يدلنا علىٰ أن الله تبارك وتعالىٰ لم يغفل أي حاجة من احتياجات الموجودات، مثلاً فإنه عز وجل منحنا العين لكي نرىٰ ونبصر وأحاط العين بالأجفان والرموش للمحافظة عليها، وخلق سبحانه غدةً تحتوي علىٰ سائل هو الدموع في زاوية العين لترطيبها للحؤول دون أن تتيبس العين وتتلف. كما أنه تعالىٰ خلق ثقباً في زاوية العين أيضاً يتصل بمجرىٰ لتصريف المياه الإضافية إلىٰ الأنف، ولو لم يكن هذا المجرىٰ موجوداً لسالت جميع الدموع علىٰ خدودنا. ثم جعل سبحانه حدقة العين وخاصةً البؤبؤ حسّاساً لدرجة أنها تتسع وتضيق تبعاً لشدة الضوء للحيلولة دون أن تصاب العين بأذىً. وتوجد في أطراف حدقة العين عضلات مختلفة لحركة العين نحو جميع الجهات دون الحاجة إلىٰ تحريك الرقبة والرأس والجسم.

وعليه، فهل إن الله تبارك وتعالىٰ الذي أمَّنَ كل هذه الحاجات للإنسان، من الممكن أن يحرمه من دليل وقائد مطمئن ومعصوم مزوّد بالوحي الإلهي؟!.

الفيلسوف المعروف أبو علي بن سينا يقول في كتابه الشهير (الشفاء): إن حاجة الإنسان إلىٰ بعث الأنبياء لبقائه والحصول علىٰ الكمال أكثر ضرورة من وجود رموش العين والحواجب، وتقعر باطن القدم، وأمثال ذلك، ولذا لا يمكن أن تشمل العناية الإلهية الأزلية هذا الجانب وتترك الجانب الآخر.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ ما هو أكبر امتياز في حياة البشر؟.
٢ ـ لماذا لا يستطيع الإنسان العيش بدون قانون؟.
٣ ـ هات مثالاً حياً لتوضيح دور القانون في حياة البشر؟.
٤ ـ ما هي أفضل الصفات في واضع القانون؟.
٥ ـ لماذا يجب أن يكون الأنبياء من البشر؟!.

* * *

الدرس الثالث

لماذا
الأنبياء معصومون؟

صيانة من الخطيئة والخطأ:

لا شك أنه لا بد لكل نبي أن يكتسب اعتماد الناس واطمئنانهم لدرجة أنهم لن يشكّوا في كلامه ولا يحتملون فيه الخطأ والخلاف، وإلاّ فإن مكانة قيادته تهتز.

وإن لم يكن الأنبياء معصومين فإن المترددين بحجة أن الأنبياء يخطئون، وطلاب الحقيقة لاعتقادهم بتزلزل محتوىٰ دعوتهم.. ينصرفون عن تقبل الدعوة، أو علىٰ الأقل لن يُقبلوا علىٰ الدعوة بحماس. ولهذا فإن «دليل الاعتماد» هو أهم دلائل عصمة الأنبياء.

بتعبيرٍ آخر، كيف يمكن أن يصدر الله عز وجل أمراً يطيعه إنسان بلا قيد أو شرط، بينما من الممكن أن يخطىء هذا الإنسان، أو يرتكب خطيئةً، ففي هذه الحالة هل من الممكن أن يُطيع الناسُ هذا الإنسان؟ فإن

فعلوا فهو اتباع للخطأ والخطيئة، وإن لم يفعلوا فإن مكانة قيادته تهتز وتتهاوىٰ، خاصة أن مكانة القيادة لدىٰ الأنبياء تختلف تماماً عما لدىٰ الناس، لأن جميع الناس يأخذون إيمانهم وبرامجهم منهم.

ولهذا السبب نرىٰ كبار المفسرين عندما يصلون إلىٰ الآية ٥٩ من سورة النساء: ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم** ﴾ فإنهم يقولون: إن أمر الإطاعة المطلقة دليل علىٰ أن النبي (ص) معصوم، وكذلك (أولي الأمر)، والمقصود بـ(أولي الأمر) هم الأئمة المعصومون، معصومون كالنبي (ص)، وإلاّ لما أصدر الله تبارك وتعالىٰ أمر الإطاعة المطلقة دون قيد أو شرط.

والطريقة الأخرىٰ التي يمكن بواسطتها إثبات معصومية الأنبياء أمام كل خطيئة هي (إن عوامل الخطيئة محكوم عليها بالهزيمة في وجود الأنبياء). وتوضيحاً نقول: إننا عندما نراجع أنفسنا فإننا سنرىٰ أننا معصومون أمام بعض الخطايا والأعمال السيئة وغير المقبولة، لاحظوا المثال التالي:

هل تجدون إنساناً عاقلاً يفكر في أكل النار؟! أو أن يبتلع القاذورات؟! وهل من الممكن أن تجدوا إنساناً يمتلك الشعور والإحساس يقوم بالتجول في الشوارع عارياً؟!.

من المسلّم به أنكم لن تجدوا..

وإذا رأينا أحداً يقوم بتلك الأعمال، فإننا بالتأكيد نكون علىٰ اطمئنان أن ذلك الشخص ليس في حالةٍ عادية أو طبيعية، وأنه مصاب بحالةٍ نفسية أو عقلية وإلاّ فإنه من المستحيل أن يقوم شخص عاقل بتلك الأعمال.

إذا (حلّلنا) مثل هذه الحالات، سنرىٰ أنها أعمال قبيحة، ومن الواضح أن الإنسان العاقل لا يقترب منها.

وهنا نستطيع أن نجسد هذه الحقيقة بعبارة صغيرة، ونقول؛ إن كل

شخص عاقل وسالم يمتلك (حصانة) أمام سلسلة من هذه الأعمال، أو بتعبير آخر؛ يمتلك (عصمة).

نذهب أبعد من هذه المرحلة.. نرىٰ بعض الناس يمتلكون حصانة أمام بعض الأعمال السيئة والقبيحة، بينما بعض الناس العاديون الآخرون لا يمتلكون ذلك. مثلاً إن الطبيب الماهر الذي يعرف أنواع الميكروبات جيداً لا يمكن أبداً أن يشرب من ماء غسلت فيه ملابس مريض مصاب بأخطر الأمراض، بينما لا يبالي شخص جاهل من القيام بذلك.

وبتحليل بسيط نستنتج أنه مهما ازداد مستوىٰ وعي الإنسان زادت حصانته أمام الأعمال القبيحة والسيئة.

وعليه فإنه كلما زاد مستوىٰ (إيمان) و(وعي) إنسان واعتقاده بالله وعدله، وكأنه يرىٰ كل ذلك أمام عينيه، تزداد حصانته أمام جميع أنواع الخطايا، وتكون كل خطيئة بمثابة العري كما ولدته أمه والسير في الشوارع بهذه الحالة. والمال الحرام بالنسبة إليه كلهب النار الذي لا نقربه من فمنا، فهو لا يقرب المال الحرام من فمه.

نستنتج من مجموع هذا الحديث أن الأنبياء يكبحون جماح المعصية بما لهم من علم ووعي وإيمان راسخ، ولذا فإن عوامل الخطيئة لا تستطيع السيطرة علىٰ إيمانهم وعقولهم، ولهذا السبب نقول: إن الأنبياء معصومون ومبرأون من الخطيئة.

* * *

فخر مقام العصمة:

إن بعض الأشخاص الذين لا علم لهم بمفهوم العصمة وعوامل الحصانة، يقولون إذا أبعد الله تعالىٰ شخصاً عن الخطيئة وقضىٰ علىٰ عوامل الخطيئة فيه، فإن هذا ليس فخراً له!.

إن هذه هي حصانة إجبارية، ولا تُحسب فضيلة.

ولكن بالتوضيح الذي قدمنا فيما سبق فإن الجواب يكون معلوماً تماماً:

إن (عصمة) الأنبياء ليست إجبارية أبداً، وإنما هي وليدة الإيمان القوي واليقين الكامل، والوعي والعلم الاستثنائي لهم، وهذا هو أكبر افتخار لهم.

ولو ابتعد طبيب ماهر عن عوامل المرض فهل يكون هذا العمل إجبارياً له؟!.

وهل إن مثل هذا الشخص لو أخذ بالرعاية الصحية، ألا تحسب له كفضيلة؟!.

ولو أن حقوقياً يعلم العواقب الوخيمة لجريمة كبيرة، وامتنع عن ارتكابها، أيكون هذا الشخص فاقداً للفضيلة؟!.

وهكذا نصل إلىٰ نتيجة أن عصمة الأنبياء لها جانبٌ اختياري ولها أيضاً فخر كبير.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ ما هي فروع العصمة؟.

٢ ـ ماذا يحدث لو لم يكن الأنبياء معصومين؟.

٣ ـ ما هي حقيقة مكانة (العصمة)؟.

٤ ـ هل تستطيع أن تذكر أمثلة غير تلك التي جاءت في الدرس يكون الناس أو مجموعة منهم معصومين فيها؟.

٥ ـ هل إن عصمة الأنبياء إجبارية، أم اختيارية؟ ما هو دليلك؟.

الدرس الرابع

أفضل الطرق في معرفة النبي

لا شك أن قبول ادعاء أي مدعٍ خلافاً للعقل والمنطق، إن ادعاء النبوة والرسالة من قبل الله تبارك وتعالىٰ من الممكن أن يكون صحيحاً، ولكن يوجد هذا الاحتمال أيضاً، وهو أن يقوم شخص نهّاز للفرص بادعاء النبوة. ولهذا يجب أن يكون لدينا معيار لتقييم دعوة الأنبياء وارتباطهم بالله عز وجل؛ وللوصول إلىٰ هذا الهدف هناك طرق مختلفة، أهمها طريقان:

١ ـ دراسة محتوىٰ دعوة النبي وجمع العلامات والقرائن.
٢ ـ الإعجاز، والأعمال التي لا يمكن أن تصدر من البشر.

توجد جماعة من الناس تتعجب من كلمة (معجزة)، أو إنهم يعتقدون أن المعجزات هي بمثابة الأساطير والخرافات، ولكن إذا تمعنّا في المعنىٰ الدقيق والعلمي للمعجزة، فسنجد أن تلك التصورات هي خطأ محض. إن المعجزة ليست عملاً مستحيلاً ومعلول بلا علّة، وإنما هي وبتحليل بسيط، عمل خارق للعادة يخرج عن نطاق ما يؤديه الأشخاص العاديون، وإنما

يتحقق بفعل قوة هي فوق القوة الطبيعية العادية.

وهكذا فإن للمعجزة شروطاً هي:

١ ـ إنها عمل ممكن ويمكن قبوله.

٢ ـ لا يتمكن الإنسان العادي من أدائها، بل وحتىٰ النوابغ لا يتمكنون عليها بقدرتهم البشرية.

٣ ـ إن صاحب المعجزة يجب أن يكون مطمئناً جداً من عمله، لدرجة أنه يتحدىٰ الآخرين.

٤ ـ لا يتمكن أحد أن يقوم بمثلها، وكما هو معلوم من اسمها، يبقىٰ الآخرون عاجزين عنها.

٥ ـ المعجزة يجب أن تكون مرادفة لدعوة النبوة أو الإمامة، وإذا كانت هناك أعمال خارقة تصدر من غير الأنبياء والأئمة فإنها تسمىٰ (كرامات) وليس (معجزة).

* * *

نماذج واضحة:

لقد سمعنا جميعاً أن إحدىٰ معجزات السيد المسيح (ع) هي إحياء الموتىٰ، ومعالجة المرضىٰ الذين لا يرجىٰ شفاؤهم.

هل لدينا دليل علمي وعقلي يثبت لنا أنه بعد أن تقف أجهزة بدن الإنسان تبدأ مرة أخرىٰ وتعود إلىٰ الحياة؟! وهل لدينا دليل علمي وعقلي يثبت لنا أن مرض السرطان الذي نعجز عن معالجته يُصبح مرضاً لا علاج له أبداً؟!.

مما لا شك فيه أن الإنسان بالقدرة التي يمتلكها وفي الظروف الحالية لا يستطيع إحياء الموتىٰ، أو معالجة قسم من الأمراض، حتىٰ ولو اجتمع

الأطباء في العالم جميعاً وجمعوا ما لديهم من تجاربٍ ومعلومات. ولكن ما المانع أن يتمكن إنسان بقوة إلهية وعلمٍ من علوم الله الواسعة وبإشارة أن يعيد الروح إلىٰ جسد ميت وأن يعالج مرضاً لا شفاء منه؟!.

إن العلم يقول لا أعلم ولا قدرة لي علىٰ ذلك، ولكنه لا يقول إنه مستحيل وغير معقول.

مثال آخر: إن السفر إلىٰ القمر بدون الاستفادة من السفن الفضائية والأجهزة الأخرىٰ غير ممكن، ولكن في نفس الوقت ما المانع أن قوة أقوىٰ من قوتنا، وسفينة غامضة أكثر تقدماً من سفننا التي اخترعها البشر، تصبح تحت تصرف شخص يتمكن من السفر بواسطتها إلىٰ القمر أو الكرات الأخرىٰ. ولو استطاع شخص أن يقوم بهذه الأمور الخارقة أو أمثالها ويرافق ذلك بدعوة النبوة ويتحدىٰ الناس في هذه الأمور ويبقىٰ الناس عاجزين أمامه، فإن اليقين يحصل لدينا أنه مرسل من قبل الله تبارك وتعالىٰ. لأنه لا يمكن أبداً أن يمنح الله تعالىٰ مثل هذه القدرة إلىٰ إنسان كاذب يضل بها الناس. (تأمل ذلك بدقة).

* * *

لا يجب خلط المعجزات بالخرافات:

كان (الإفراط) و(التفريط) دائماً مصدراً للفساد والضياع وتشويه الحقيقة. وهذا الأمر يصدق علىٰ (المعجزة) أيضاً، بينما ينفي (المتثقفون) ـ تصريحاً أو تلويحاً ـ أي نوع من (المعجزة)، بينما يقوم قسم آخر بخلط المعجزات بالخرافات والأخبار الضعيفة والأساطير، وبذا يكونون يداً للعدو الغامض الذي يسعىٰ لتشويه المعجزات، وتغطية الوجه العلمي الواقعي لمعجزات الأنبياء بالأساطير المفتعلة والأوهام التي لا أساس لها. والمعجزات لا تظهر علىٰ حقيقتها إن لم يتم إزالة تلك الأساطير المفتعلة التي تسعىٰ لتشويه الوجه الحقيقي للمعجزات. ولهذا السبب كان علماؤنا

الكبار دائماً يدققون ويراقبون الأحاديث الإسلامية في مجال المعجزات لفصلها عن الدس والتزوير. ولهذا السبب ظهر (عِلْمُ الرجال) لمعرفة رواة الحديث بصورة كاملة، واستخلاص الأحاديث (الصحيحة) من (الضعيفة)، ولكي لا تخلط المواضيع الوهمية التي لا أساس لها بالحقائق.

إن السياسة الاستعمارية والإلحادية اليوم تسعىٰ أيضاً إلىٰ أن تخلط الأفكار الوهمية بالعقائد الدينية الطاهرة، التي يصفونها بأنها (غير علمية)، ونحن علينا أن نراقب هذه المؤامرات المخربة للعدو بدقة.

* * *

الفرق بين المعجزات والأعمال الخارقة:

سمعنا غالباً أن بعض (المرتاضين) يقومون بالأعمال الخارقة، وليسوا قلة اولئك الذين رأوا هذه الأعمال العجيبة والغريبة. وهنا يطرح هذا السؤال نفسه؛ ما الفرق بين هذه الأعمال الخارقة ومعجزات الأنبياء؟ ونحن بأية موازين يمكننا أن نُشخّص بينهما؟!.

لهذا السؤال أجوبة كثيرة، أوضحها أمران:

١ ـ (المرتاضون) يقومون دائماً بأعمال محدودة، وبتعبير آخر إنهم ليسوا مستعدين للقيام بالأعمال التي تقترحونها، بل إنهم يقومون بالأعمال الخارقة التي يُريدونها هم، أي تلك الأعمال التي (تمرّنوا) عليها وتعلموها جيداً، ودليل ذلك واضح لأن قدرة كل إنسان محدودة، ومن الممكن أن تكون ماهرة في عمل أو عملين. أما الأعمال الخارقة للأنبياء فلا تعرف حدوداً، وليس لها قيد وشرط، فهم يستطيعون، عند الضرورة، أن يقوموا بأية معجزة تُطلبُ منهم، لأنهم يستمدون القدرة اللا متناهية من الله سبحانه، ونحن نعمل أن لا حد ولا حدود لقدرة الله تبارك وتعالىٰ، بينما قدرة الإنسان محدودة.

٢ ـ إن الأعمال التي يقوم بها (المرتاض) يستطيع (مرتاض) آخر أن يقوم بها، وهذا يعني أنها لا تخرج عن قدرة الإنسان. ولهذا السبب فإن (المرتاض) الذي يقوم بالأعمال (الخارقة) لا يتحدىٰ الناس ولا يطلب منهم مقابلته، لأنه يعلم أنه يوجد في المدينة نفسها أو في المدن الأخرىٰ أشخاص آخرون مثله. أما الأنبياء فإنهم يتحدون باطمئنان ويقولون (لو أن البشر اجتمعوا علىٰ أن يأتوا بمثلها لما استطاعوا). وهذا الاختلاف يصدق أيضاً فيما يتعلق بالسحر. هذان الفرقان اللذان ذكرناهما يفصلان بين حدود السحر والمعجزة تماماً.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ لماذا يسمون (العمل الخارق) بـ (المعجزة)؟
٢ ـ هل (المعجزة) استثناءٌ في قانون (العِلِّية)؟
٣ ـ ما هي طرق معرفة (المعجزة) عن أعمال المرتاضين والسحرة؟
٤ ـ ما هي الشروط الأساسية للمعجزة؟
٥ ـ هل رأيت خلال عمرك شيئاً شبيهاً بالمعجزة؟.

* * *

الدرس الخامس

أكبر معجزات نبي الإسلام (ص)

المعجزة الخالدة:

جميع علماء الإسلام يعتقدون أن القرآن المجيد أكبر معجزة لنبي الإسلام (ص). وذلك:

أولاً: القرآن معجزة عقلية ترتبط بروح وفكر الناس.

ثانياً: لأنه معجزة خالدة ودائمة.

ثالثاً: لأنه معجزة تصرخ منذ ١٤ قرناً: إذا كنتم تقولون أنه ليس كتاباً سماوياً من عند الله تعالىٰ، فهاتوا مثله.

إنها دعوة للتحدي جاءت في عدة مواضع من القرآن الكريم، منها:

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (سورة الإسراء: ٨٨).

وفي موضع آخر يشترط تحدياً بسيطاً: **﴿ أم يقولون أفتراه قل فاتوا بعشرِ سورٍ مثلِهِ مُفترياتٍ وأدعُوا منِ استطعتُمْ من دونِ اللّـهِ إن كنتم صادقين ﴾** (هود: ١٣).

وبعد ذلك يضيف في الآية التالية: ﴿ فإنْ لَمْ يستجيبوا لكم فأعلموا أنما أُنزِل بعلم الله ﴾.

وبعد ذلك أيضاً يُسَهِّل شروط التحدي إلىٰ الحد الأدنىٰ فيقول: ﴿ وإن كنتم في ريب ممّا نزَّلْنا علىٰ عبدنا فأْتوا بسورةٍ من مثلهِ وأدعُوا شهدائكم من دونِ اللّهِ إن كنتمُ صادقين ﴾ (البقرة: ٢٣). وفي الآية التالية يقول بصراحة: ﴿ فإن لمْ تفعلوا ولن تفعلوا فأتقُوا النار التي وَقُودها الناسُ والحِجارةُ أُعِدَّتْ للكافرين ﴾ [البقرة: ٢٤].

إن هذه الدعوات المتلاحقة لتحدي المنكرين تدل علىٰ أن النبي الأكرم (ص) كان اعتماده في مسألة الإعجاز علىٰ (القرآن الكريم) رغم أنه نقل عنه الكثير من المعاجز في كتب التاريخ. وبما أن القرآن معجزة حيّة، موجودة بين يدي الجميع، فإننا سنعتمد عليه في هذا البحث.

* * *

كيف بقوا عاجزين أمام هذا (التحدي)؟

الطريف أن القرآن الكريم يدعو بكل إصرار المعارضين إلىٰ ميدان التحدي، ويُحرّكهم بتعبيرات مهيجة نحو ساحة البراز، ليسلب العذر من كل شخص. والتعابير التالية مصداق علىٰ ذلك: ﴿ إن كنتم صادقين ﴾، ﴿ .. ولن تفعلوا ﴾ و ﴿ ادعوا من استطعتم.. ﴾ و ﴿ فاتوا بسورةٍ من مثله ﴾، وأمثال ذلك.

هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرىٰ فإن صراع النبي الأكرم (ص) مع المعارضين لم يكن صراعاً بسيطاً. لأن الإسلام ليس فقط كان يهدد مصير (دينهم) الذي كانوا متمسكين به، بل حتىٰ أن مصالحهم الاقتصادية والسياسية، ووجودهم كان في خطر الزوال. وبتعبير آخر أن نفوذ الإسلام كان يشتت حياتهم تماماً، ولذا فإنهم كانوا مجبرين أن ينزلوا إلىٰ الميدان

بكل ما لديهم من قدرة. وهم لكي يخلعوا السلاح من نبي الإسلام (ص) كان لا بد أن يأتوا بآياتٍ مثل آيات القرآن لكي لا يتحداهم به بعد ذلك ويعتبرهم عاجزين عنه فتتجلىٰ حقانيتُهُ. ولهذا يقول لهم: فاطلبوا من جميع بُلَغاء وفصحاء العرب أن يساعدوهم في هذا الأمر، ولكنهم كانوا يمنون بالفشل كل مرة فيتراجعون بسرعة، وقد ورد شرح هذه الأحداث في كتب التاريخ.

قصة الوليد بن المغيرة:

ومن الأشخاص الذين دعوا إلىٰ التحدي كان الوليد بن المغيرة، وهو من بني مخزوم، وكان مشهوراً بين العرب، في عصره، بأنه حسن التدبير، وله فكر صائب.

وطلبوا منه أن يأتيهم بفكرةٍ لمواجهة آيات القرآن الكريم العجيبة ونفوذه الخارق. فطلب الوليد من نبي الإسلام (ص) أن يقرأ له آيات من القرآن، فقرأ الرسول آيات من سورة السجدة. وقد أحدثت فيه هذه الآيات حالةً جعلته ينهض ويتجه إلىٰ مجلس معقود في (بني مخزوم) وقال: والله سمعت حديثاً من محمد لا يشبه حديث الناس ولا الملائكة.

ثم أضاف: وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يُعلىٰ عليه.

وجعل هذا الكلام أن تتهامس قريش وتقول: (لقد صبا الوليد بمحمد)، فجاءه أبو جهل قلقاً مضطرباً ونقل إليه ما تقوله قريش، فجاءهم في مجلسهم وقال لهم:

- إنكم تزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتم فيه جنوناً؟.

فقالوا: اللهم لا..

فقال لهم: تزعمون أنه كذاب، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟

أوَلَمْ يكن معروفاً بينكم بالصدق والأمانة حتىٰ سميتموه (الصادق الأمين)؟.

فقال بعض رؤساء قريش: إذن فما هو؟

فأطرق الوليد قليلاً ثم قال: إنه لساحر!

ورغم أنهم كانوا يريدون بهذا الكلام أن يبعدوا الأشخاص الذين انجذبوا نحو القرآن، إلّا أنه دليل حيّ علىٰ الجاذبية القوية التي كانت للقرآن الكريم، حتىٰ إن المعارضين أسموا هذه الجاذبية بأنها (سحر)، بينما لا علاقة لها بالسحر.

وهكذا قامت قريش بنشر هذا الشعار الجديد في كل مكان بأن محمداً (ص) ساحر ماهر، وأن الآيات هي سحره، فابتعدوا عنه، وحاولوا أن لا تسمعوا كلامه.

ولكن رغم كل ذلك فإن خطتهم هذه لم تثمر، بل كان عدد العطاشىٰ للحقيقة كثيرين يمتلكون قلوباً طاهرة فيتوجهون زرافات نحو القرآن الكريم ليرتووا من مائه العذب الرسالة السماوية، ويذموا الأعداء ويجبروهم علىٰ التراجع.

واليوم أيضاً يتحدىٰ القرآن الكريم جميع الناس ويعلن بأعلىٰ صوته: ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا علىٰ عبدنا فاتوا بسورة من مثله..** ﴾ يا أيها العلماء والفلاسفة والأدباء والكتّاب من أي قوم كنتم.

ونحن نعلم أيضاً أن أعداء الإسلام وخاصة الرهبان المسيحيين الذين رأوا الإسلام ديناً ثورياً ومنافساً خطيراً لهم، فإنهم يصرفون ملايين الدولارات سنوياً للتبلغ ضد الإسلام تحت واجهات مختلفة، ثقافية وعلمية وصحية، وينشطون في مختلف البلدان الإسلامية، ولكي يختصروا الطريق طلبوا من مجموعة من العرب المسيحيين والعلماء والشعراء والكتّاب والفلاسفة أن يكتبوا سُوَراً كسور القرآن الكريم وينشروها بين المسلمين ليسكتونهم.

مما لا شك فيه لو كان هذا الأمر ممكناً لقاموا به بأي ثمن. ولكن عجزهم دليل مُفحم لمعارضي إعجاز القرآن الكريم.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ لماذا يعتبر القرآن الكريم المعجزة الكبرىٰ للنبي الكريم (ص)؟
٢ ـ كيف يتحدىٰ القرآن الكريم؟
٣ ـ لماذا أطلق الأعداء كلمة (السحر) علىٰ القرآن الكريم؟
٤ ـ لماذا يعتبر الإسلام المنافس القوي للنصرانية اليوم؟
٥ ـ ما هي قصة الوليد بن المغيرة المخزومي؟

* * *

الدرس السادس

نافذة علىٰ إعجاز القرآن

الحروف المقطعة لماذا؟

نعلم أنه توجد في بداية الكثير من سور القرآن (حروف مقطعة) مثل: (ألم) و (المر) و (يس) وغيرها..

أحد أسرار وفلسفة هذه (الحروف المقطعة)، طبقاً لبعض الروايات الإسلامية هو أن الله تبارك وتعالىٰ يريد أن يبيّن أن مثل هذه المعجزة الكبرىٰ والخالدة، يعني القرآن الكريم، يتألف من هذا البناء البسيط للحروف، وكيف أن مثل هذا الكلام العظيم يتألف من حروف وألفاظ يستطيع كل طفل أن ينطق بها، وأن خلق هذا الأمر المهم من مثل هذه المواد البسيطة، هو الإعجاز العظيم.

والآن يطرح هذا السؤال نفسه؛

ـ لماذا يُعتبر القرآن معجزة؟ أَلِفصاحته أم بلاغته؟ أي حلاوة عباراته ووضوح تعبيراته، أم لنفوذه القوي، أم لجوانب أخرىٰ؟.

الحقيقة أننا كلما نظرنا إلىٰ القرآن الكريم من زواياه المختلفة، يتجلىٰ الإعجاز في كل زاوية فيه، منها علىٰ سبيل المثال:

١ ـ الفصاحة والبلاغة والحلاوة والجاذبية الكبيرة والعجيبة في الألفاظ والمفاهيم.

٢ ـ المحتوىٰ العظيم من كل الجوانب، العقائد الخالية من أية خرافات.

٣ ـ المعجزات العلمية، أي الكشف عن الكثير من القضايا التي لم يطّلع عليها إنسان ذلك العصر.

٤ ـ التنبؤ الصريح والدقيق عن أحداث المستقبل (الإخبار الغيبي للقرآن).

٥ ـ عدم وجود تناقض وتضاد وتشتت فيه.

إن البحث في هذه المسائل الخمسة واسع جداً، ولكننا وخلال بضعة دروس سنتداول جوانب مهمة منها:

١ ـ الفصاحة والبلاغة:

نحن نعلم أن كل كلام يحتوي علىٰ جانبين، (ألفاظ) و (محتوىٰ). وكلما كانت الألفاظ والكلمات الجميلة ذات انسجام وارتباط وثيق وخالية من أي تعقيد، وكانت الجمل ذات معانٍ جذّابة بصورة كاملة، يقال عن ذلك الكلام إنه (فصيح) و (بليغ).

القرآن الكريم يحتوي حقاً علىٰ هذين الجانبين بأعلىٰ درجاتهما، بحيث أنه لم يتمكن أحدٌ لحد الآن أن يأتي بآياتٍ وسورٍ جذّابة وذات حلاوة وجرس موزون كما هو موجود في القرآن الكريم.

ولقد قرأنا في الدروس السابقة أن (الوليد بن المغيرة) المنتخب من قبل العرب ملكته الحيرة لدىٰ سماعه آياتٍ من القرآن الكريم، واستغرق في

الفكر، وبعد مدة من التمعن في إيجاد طريقة لتحدي القرآن قال لزعماء قريش. أن يقول إن القرآن لسحر، وأن محمداً لساحر!!.

لقد نسبوا إلىٰ النبي الأكرم هذه الصفة مراراً، ورغم أنهم كانوا يبتغون من وراء ذلك مذمته إلا أنهم في الحقيقة مدحوه دون أن يعرفوا، لأنهم بهذه الصفة اعترفوا ضمنياً بالإعجاز للقرآن الكريم، بحيث أنه لا يمكن تفسير ذلك عن الطريق العادي، بل يجب أن نعترف أن له جاذبية غامضة ومجهولة. ولكنهم بدل أن يرضخوا لهذه الحقيقة ويعتبروها معجزة ويؤمنوا، اعتبروا القرآن أسطورة، فتغافلوا وقالوا (إنه سحر)!!.

لقد لوحظ في التاريخ الإسلامي كثيراً أن أشخاصاً غلاظاً ما كانوا أن يمثلوا بين يدي النبي (ص) ويصغوا إلىٰ آيات من القرآن الكريم حتىٰ تتغيّر سيرتهم ويضيء نور الإسلام قلوبهم، وهذا يدل بوضوح علىٰ أن جاذبية القرآن الكريم وفصاحته وبلاغته معجزة.

لماذا نذهب بعيداً، إن جميع الذين لهم اطلاع علىٰ الأدب العربي كلما قرأوا القرآن الكريم وأعادوا القراءة زاد شوقهم ولذتهم من القراءة ولا يدخلهم الملل من الاستزادة.

إن تعابير القرآن الكريم دقيقة ومنسجمة بشكل محسوب، إضافة إلىٰ عفة وطهر وبيانٍ متين، وفي نفس الوقت صريح بشكل تام، وعند الضرورة قاطع وحاسم.

والجدير بالذكر أن العرب في ذلك العصر، كانوا يملكون لغة متطورة في ذلك الزمن، ونماذج الأشعار والقصائد للعصر الجاهلي هي الآن تعتبر من أفضل أشعار العرب.

والمعروف أن أكبر شعراء وأدباء الحجاز كانوا يجتمعون سنوياً ليقدموا أفضل قصائدهم الشعرية في سوق عكاظ، وهذه السوق كانت مركزاً تجارياً أدبياً، وكانت القصائد تمحص لانتخاب أفضلها واعتبارها (قصيدة

العام)، فكانوا يكتبونها ويعلقونها في الكعبة، وكانت هنا في عصر ظهور النبي الأكرم (ص) سبع قصائد، تسمىٰ (بالمعلقات السبعة). ولكن بعد نزول القرآن الكريم أصبحت تلك المعلقات باهتة أمام فصاحة وبلاغة القرآن، فكان أن أخذوا برفعها الواحدة بعد الأخرىٰ ليضعوها علىٰ رفوف النسيان.

لقد أشار المفسرون، علىٰ قدر استطاعتهم، إلىٰ المعاني الدقيقة والعجيبة للآيات وأنتم تستطيعون مراجعة تلك التفاسير لتقفوا علىٰ هذه الحقيقة.

إن الاطلاع والتعرف علىٰ القرآن الكريم لَيدلان علىٰ عدم وجود أي إغراق في حديث النبي الأكرم (ص) عندما قال: «ظاهره أنيق وباطنه عميق لا تُحصىٰ عجائبه ولا تُبلىٰ غرائبه».

ويقول أمير المؤمنين الإمام علي (ع)، وهو تلميذ مدرسة القرآن، في هذا المجال: «فيه ربيع القلب وينابيع العلم وما للقلب جلاء غيره».

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ ما هي فلسفة الحروف المقطعة؟

٢ ـ هل القرآن الكريم معجزة من وجهة نظر واحدة؟ أم من وجهات نظر عدة؟

٣ ـ لماذا كان معارضو النبي الأكرم (ص) يصفونه بأنه (ساحر)؟

٤ ـ ما الفرق بين (الفصاحة) و (البلاغة)؟

٥ ـ المعلقات السبعة تتعلق بأي عهد من التاريخ، وما هو مفهومها؟.

* * *

الدرس السابع

ـ ٢ ـ
النظرة الكونية
للقرآن الكريم

قبل كل شيء يجب ملاحظة البيئة التي ظهر فيها القرآن الكريم، من الناحية الفكرية والثقافية.

يعترف المؤرخون بأن أرض الحجاز، كانت في ذلك العهد، من أكثر بقاع العالم تخلفاً، حتىٰ أنهم كانوا يعتبرون سكانها في العصر الجاهلي من الوحوش أو المتوحشين. فقد كانوا من حيث العبادة يعشقون الأصنام، التي كانت تُلقي بظلالها علىٰ كافة مناحي ثقافاتهم، وكانت الأصنام متنوعة من حجر وخشب، وحتىٰ يقال إن بعضها كانت مصنوعة من التمر، فيسجدون أمامها، وعندما يصابون بالقحط يأكلونها!!.

ورغم أنهم كانوا يبغضون البنات لدرجة أنهم كانوا يقومون بدفنهن أحياء، إلاّ أنهم كانوا يعتبرون الملائكة من البنات، وقلّلوا من شأن الله

تبارك وتعالىٰ. حتىٰ أنهم أوصلوه إلىٰ مرتبة الإنسان.

وكانوا يستغربون العبادة التوحيدية، وعندما دعاهم نبي الإسلام (ص) إلىٰ (التوحيد) تعجبوا وقالوا **﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عُجاب ﴾** (ص: ٥).

وكانوا يعتبرون من يسخف الأساطير والخرافات والأفكار التي كانوا يدينون بها مجنوناً، وكان يتحكم فيهم نظام القبائل، وكانت الاختلافات شديدة وكثيرة بين القبائل لدرجة أن نار الحرب ما كانت لتخمد بينهم، وكثيراً ما كانت الأرض تصطبغ بدمائهم المسفوكة، وتوجد حمامات الدم، وكانوا يعتبرون السلب فخراً وعملاً عادياً بينهم.

أما من كانوا يعرفون القراءة والكتابة في مكة المكرمة، وكانت من المراكز المهمة، لا يزيدون عن عدد أصابع اليد.

نعم في مثل تلك البيئة، نهض شخص لا يعرف القراءة والكتابة ولم يتعلم عند أستاذ، وجاء بكتاب عظيم ولا يزال العلماء بعد أكثر من أربعة عشر قرناً يشتغلون عليه، ولا يزالون يستخرجون منه الحقائق.

إن الصورة التي يعطيها القرآن الكريم عن عالم الوجود وأنظمته، هي صورة دقيقة، محسوبة الجوانب، ويُقدمُ (التوحيد) بأكمل صورة، وأسرار خلق الأرض والسموات، والليل والنهار، والشمس والقمر، والنباتات والأعشاب، ووجود الإنسان، يعتبرها آياتٍ وعلامات، تدل علىٰ (الله) الفرد الصمد، جاء ذلك في آياتٍ كثيرة وببيانٍ كامل ومتنوع.

أحياناً يغور في أعماق الإنسان، ويتحدث عن التوحيد الفطري:

﴿ فإذا ركِبوا في الفلكِ دعَوا الله مخلصين له الدينَ فلمّا نجّاهم إلىٰ البر إذا هم يُشركون ﴾ (العنكبوت: ٦٥).

وأحياناً عن طريق العقل والفكر يتحدث عن التوحيد الاستدلالي، والسير في الآفاق والأنفس، وأسرار خلق الأرض والسماء، والحيوان،

والجبال، والبحار، وهطول المطر، وهبوب الريح، وأدق الأجهزة في جسد وروح الإنسان. ولدىٰ بيان صفات الله تبارك وتعالىٰ ينتخب أعمق الطرق، فيقول في مكان: ﴿ليس كمثلِهِ شيء﴾ (الشورىٰ: ١١)، وفي مكان آخر يقول: ﴿هو الله الذي لا إله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا إله إلاّ هو الملكُ القُدُّوس السلامُ المؤمنُ المهيمنُ العزيزُ الجبارُ المتكبرُ سبحانَ اللَّهِ عمّا يشرِكون * هو اللَّهُ الخالقُ البارىءُ المصوّرُ له الأسماءُ الحسنىٰ يسبّحُ له ما في السمواتِ والأرضِ وهو العزيزُ الحكيم﴾ (الحشر: ٢٢ ـ ٢٤).

ويستخدم أجمل تعبير لبيان ووصف علم الله تبارك وتعالىٰ اللامحدود: ﴿ولو أنّما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ والبحر يمدُّهُ من بعده سبعةُ أبحر ما نَفِدَتْ كلماتُ اللَّهِ إن اللَّهَ عزيزٌ حكيم﴾ (لقمان: ٢٧).

وللقرآن تعابير سامية حول إحاطة الله عز وجل بكل شيء وحضوره في كل مكان يختصُّ بها: ﴿ولِلَّهِ المشرقُ والمغربُ فأينما تُوَلُّوا فثمَّ وجهُ الله﴾ (البقرة: ١١٥). ﴿هو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير﴾ (سورة الحديد: ٤).

وعندما يأتي الحديث إلىٰ المعاد ويوم القيامة يقول القرآن الكريم أمام تعجب المشركين واستنكارهم:

﴿وضرب لنا مثلاً ونسيَ خلقه قال من يُحيي العظام وهي رَميم * قُل يُحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضرِ ناراً فإذا أنتم منه توقدون * أوَليس الذي خلق السموات والأرض بقادر علىٰ أن يخلق مثلهم بلىٰ وهو الخلاّق العليم * إنما أمرُهُ إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون *﴾ (يس: ٧٨ ـ ٨٢).

وفي تلك الأيام التي لم يكن فن التصوير وتسجيل الأصوات موجوداً فإن القرآن الكريم قال عن أعمال الإنسان: ﴿يومئذٍ تُحدِّثُ أخبارَها بأنَّ

بّك أوحىٰ لها ﴾ (الزلزلة: ٥).

وأحياناً يأتي الحديث عن شهادة الأيدي والأرجل: ﴿ اليومَ نختِمُ علىٰ أفواهِهِمْ وتُكَلِّمُنا أيديهم وتشهدُ أرجلُهم ﴾ (يس: ٥)..

﴿ وقالوا لجلودِهِم لِمَ شهِدتُمْ علينا قالُوا أنطقَنا اللّهُ الذي أنطق كلَّ شيء ﴾ (فصّلت: ٢١).

* * *

إن قيمة المعارف القرآنية وعظمة محتواه، وكذلك طهارة ونقاوة هذه المعارف من الخرافات تتضح عندما نقارن بينه وبين التوراة والإنجيل المحرفَين، مثلاً نرىٰ ما تقوله التوراة عن خلق آدم، وما يقوله القرآن في ذلك؟.

ما يقوله التوراة عن قصص الأنبياء، وما يقوله القرآن الكريم؟
وكيف تصف التوراة والإنجيل الله عز وجل، وكيف يصفه القرآن؟
عند ذاك تتضح صورةُ الفرقِ تماماً.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ ما هي خصائص البيئة التي ظهر القرآن الكريم فيها؟
٢ ـ ما هو الأثر الذي تركته عبادة الأصنام في أفكار الناس في ذلك العهد؟
٣ ـ ما هو الفرق بين التوحيد الفطري والتوحيد الاستدلالي؟
٤ ـ ما هو منطق القرآن في تعريف الله عز وجل وبيان صفاته؟
٥ ـ كيف يمكن الإلمام بصورةٍ أفضل بمحتوىٰ القرآن الكريم.

* * *

الدرس الثامن

القرآن الكريم
والاكتشافات العلمية اليوم

مما لا شك فيه أن القرآن الكريم ليس كتاباً في العلوم الطبيعية أو الطب أو علم النفس أو علم الرياضيات. القرآن كتاب هداية وبناء للإنسان، ولا يعدم وسيلة في سبيل ذلك. ونحن يجب أن لا نتوقع أن يكون القرآن الكريم دائرة معارف لمختلف العلوم، بل يجب أن نطلب من القرآن نور الإيمان، والهداية، والتقوىٰ، والإنسانية، والأخلاق، والنظام والقانون، وهو يحتوي علىٰ كل ذلك.

ولكن القرآن، ووصولاً إلىٰ هذا الهدف، يشير إلىٰ بعض المسائل في العلوم الطبيعية وأسرار الخلق وعجائب عالم الوجود، خاصة الأبحاث التوحيدية بشكل يتناسب مع برهان النظم، حيث يزيح الستار عن أسرار عالم الخلق، ويبين مسائل وقضايا لم تكن معروفة حتىٰ لعلماء ذلك العصر. وهذه التفسيرات والبيانات القرآنية تشكل مجموعة نسميها نحن (معجزات القرآن العلمية).

وهنا نشير إلىٰ بعض المعجزات العلمية:

القرآن وقانون الجاذبية:

قبل (نيوتون) لم يكن أحد قد اكتشف قانون الجاذبية العام بصورة كاملة. والمعروف أن (نيوتون) كان جالساً تحت شجرة تفاح، فسقطت تفاحة من الشجرة علىٰ الأرض، وهذه الحادثة الصغيرة والبسيطة شغلت فكره لمدة طويلة: أية قوة جذبت التفاحة نحوها؟ لماذا لم ترتفع التفاحة إلىٰ السماء؟.

وبعد سنوات اكتشف قانون الجاذبية.

وعلىٰ ضوء اكتشاف هذا القانون ثبت نظام المنظومة الشمسية. لماذا تدور هذه الكرات العظيمة حول الشمس في مدارها؟ لماذا لا تفر وتبتعد كل واحدة في جهةٍ من الجهات؟ ولماذا لا تكون الواحدة بعد الأخرىٰ في خطٍ واحد؟ أية قوة هذه التي تجعلها تسبح في مدارٍ دقيقٍ خاص بها لا تحيد عنها قيد أنملة؟.

نعم، إن نيوتون اكتشف؛ أن حركة جسم تؤدي به إلىٰ الفرار والابتعاد، وقانون الجاذبية يؤدي إلىٰ جذب الجسم نحو المركز. فعندما تكون هاتان القوتان في حالة (جذب) تنتج، بسرعة الحركة الدورانية، قوة الجذب والدفع من مركز الجاذبية، فإن هذا التعادل الحاصل يسمح للجسم أن يدور في مداره الخاص.

ولكن القرآن الكريم، وقبل ألف سنة من نيوتون قد أوضح ذلك في الآية الثانية من سورة الرعد. حيث يقول: ﴿ **اللَّهُ الذي رفعَ السمواتِ بغيرِ عمدٍ تَروْنها ثم ٱستوىٰ علىٰ العرشِ وسخَّر الشمسَ والقمرَ كُلٌّ يجري لأجلٍ مُسمّىً يُدبّرُ الأمرَ يُفصِّلُ الآياتِ لعلكم بلقاءِ ربّكم تُوقِنون** ﴾.

وورد في حديث، في ذيل هذه الآية، للإمام علي بن موسىٰ

الرضا (ع):

ـ أليس الله يقول (بغير عمد ترونها)؟ قلتُ: بلىٰ، قال: ثَمّ عمد لكن لا ترونها!

فهل هناك تعبير أوضح وأبسط في الأدب العربي، لبيان قوة الجاذبية، بين الناس من عبارة (عمد لا ترونها)؟.

جاء في حديث لأمير المؤمنين الإمام علي (ع): «هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض مربوطة كل مدينة إلىٰ عمود من نور».

علماء اليوم يعترفون بوجود ملايين النجوم بين نجوم السماء فيها مخلوقات حية وعاقلة، رغم أن التفاصيل لم تنكشف بعد.

* * *

اكتشاف حركة الأرض حول نفسها وحول الشمس:

المعروف أن أول من اكتشف حركة الأرض حول نفسها هو (غاليلو) الايطالي قبل حوالي أربعة قرون، وقبله كان العلماء في العالم أوفياء لنظرية بطليموس العالِم القديم الذي كان يقول: (إن الأرض هي مركز الكون وإن جميع الكرات الأخرىٰ تدور حولها).

طبعاً كُفّر (غاليلو) لاكتشافه العلمي، وقد نجا من الموت عندما أعلن توبته وندمه لاكتشافه!!، ولكن رغم ذلك فإن العلماء الآخرين تتبعوا نظرياته، واليوم أصبحت هذه المسألة موضوعاً عملياً مُسلماً به، وحتىٰ بالتجارب الحسية أيضاً يمكن إثبات ذلك وأن الأرض تدور حول نفسها، وبعد السفرات الفضائية أمكن إثبات المسألة عينياً.

الخلاصة: لقد نفي كون الأرض مركزاً، وأصبح معلوماً أنه خطأ حسي منا إذ تخلط بين حركة الأرض مع حركة مجموعة الكواكب والنجوم

والسيّارات الأخرىٰ، حيث أننا في حركة بينما نفترض أنها تتحرك حولنا.

علىٰ أية حال، كانت نظرية بطليموس قد ألقت بظلالها علىٰ أفكار العلماء طيلة ألف وخمسمائة عام، وقبل ظهور القرآن لم يكن هناك أحد يجرؤ علىٰ مخالفة تلك النظرية.

وعندما نراجع آيات القرآن الكريم نرىٰ الآية ٨٨ من سورة النمل تقول: ﴿ **وترىٰ الجبالَ تحسبُها جامدةً وهي تمرُّ مرَ السَّحابِ صُنْعَ اللَّهِ الذي أتقن كلَّ شيءٍ إنه خبيرٌ بما تفعلون** ﴾.

هذه الآية تتحدث بصراحة عن حركة الجبال بينما نعتقد كلنا أنها جامدة، وتشبيه حركتها بحركة السحاب إنما للدلالة علىٰ السرعة والانعطاف والهدوء دون ضجة. وإذا كنا نلاحظ بدل (حركة الأرض) تعبير (حركة الجبال) إنما لإظهار عظمة الموضوع، لأنه من المسلّم به أن الجبال لا تتحرك بدون الأراضي الموجودة أطرافها، فحركتها هي عين حركة الأرض نفسها (الدوران حول نفسها أو حول الشمس أو الاثنين معاً).

والآن تصوّر أن جميع المحافل العلمية في العصر الذي كانوا يعتقدون فيه أن الأرض ساكنة وأن حركة الشمس وجميع الكواكب إنما تدور حولها، ألا يحسب الحديث عن حركة الأرض بهذه الصراحة معجزة علمية؟!! هذا إذا علمنا أن ذلك جاء من شخص لم يتعلّم وظهر في بيئةٍ لم تكن فيها حلقة درس وتعتبر من أكثر المجتمعات تخلفاً، علمياً وثقافياً، أليس هذا وثيقة محكمة لهذا الكتاب السماوي؟!!.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ ما هو المقصود بالمعجزات العلمية في القرآن الكريم؟

٢ ـ من هو الشخص الأول الذي اكتشف قانون الجاذبية، وفي أي

عصر كان يعيش؟

٣ ـ في أية آية وبأي تعبير تحدّث القرآن الكريم عن (الجاذبية)؟

٤ ـ لمن نظرية سكون الأرض، وكم من الزمن بقيت سائدة بين الناس؟ ومن اكتشف حركة الأرض؟

٥ ـ في أية آية تحدّث القرآن الكريم عن حركة الأرض وبأي تعبير؟

* * *

الدرس التاسع

وثيقة أخرىٰ
علىٰ حقانية نبي الإسلام (ص)

إننا لكي نتأكد من حقانية إدعاء شخص للنبوة، أو كذبه، لدينا طريق آخر غير مطالبته بالمعجزة، وهو دليل حي للوصول إلىٰ الهدف، وهو دراسة القرائن التالية:

١ ـ المميزات الأخلاقية وماضيه الاجتماعي.

٢ ـ الظروف التي تحيط ببيئة الدعوة.

٣ ـ الظروف الزمنية.

٤ ـ محتوىٰ الدعوىٰ.

٥ ـ البرامج التنفيذية ووسائل الوصول إلىٰ الهدف.

٦ ـ مدىٰ أثر الدعوة علىٰ البيئة.

٧ ـ مدىٰ الإيمان والتضحية لصاحب الدعوة في سبيل الهدف.

٨ ـ عدم المساومة أمام المقترحات الانحرافية.

٩ ـ سرعة التأثير علىٰ الرأي العام.

١٠ ـ دراسة إيمان الأشخاص المؤمنين، ومن أية طبقة هم؟!.

إننا لو درسنا هذه المسائل العشرة بدقة لدىٰ (المدّعي)، فإننا نتمكن عندئذ، من التأكد من صدق أو كذب ذلك الشخص.

* * *

بملاحظة ما تقدم فإننا سنقوم بدراسة مختصرة حول المسائل المذكورة بالنسبة لشخصية نبي الإسلام (ص)، رغم أن شرح ذلك يحتاج إلىٰ مجلدات كثيرة:

١ ـ إن الشيء المسلّم به لنا عن المميزات الأخلاقية لنبي الإسلام (ص) عبر نشاطه الاجتماعي، كما ورد في كتب التاريخ المدوّنة من قبل الأصدقاء والأعداء، أنه (ص) صادق وأمين لدرجة أنه لُقب، في عصر الجاهلية، باسم (الأمين)، يذكر لنا التاريخ: إنه (ص) عندما أراد الهجرة إلىٰ المدينة أمر علياً (ع) أن يرد الأمانات الموضوعة عنده إلىٰ أصحابها. كما يمكن ملاحظة شجاعته واستقامته، وحسن خلقه وسعة صدره، ورجولته، وتضحياته خلال الحرب والسلام، خاصة عندما أمر بالعفو العام عن الناس لدىٰ فتح مكة واستسلام الأعداء أمام الإسلام، وهذه وثيقة حيّة علىٰ هذه الصفات.

* * *

٢ ـ كلنا نعلم أن الأشخاص العاديين، حتىٰ النوابغ منهم، يتلونون بلون بيئتهم، طبعاً يتناسب ذلك مع تناسب ومدىٰ تأثير الأشخاص بها. والآن تصوّروا شخصاً عاش أربعين عاماً في بيئةٍ تتسم بالجهل وعبادة الأوثان، وثقافتها مبنية علىٰ الشرك والخرافة، كيف يمكن لمثل هذا الشخص أن يتحدث عن التوحيد الخالص، ويقف بوجه جميع مظاهر الشرك؟! وكيف يمكن أن تظهر أسمىٰ تجليات العلم في محيطٍ كله جهل؟! فهل يمكن قبول ظهور هذه الظاهرة العجيبة بدون تأييد إلهي من

ما وراء الطبيعة؟!.

* * *

٣ ـ يجب أولاً ملاحظة في أي عصر وزمن ظهر هذا النبي؟ في عصر كان العالم يطوي القرون الوسطىٰ، عصر الاستبداد، والتفرقة، والامتيازات الظالمة، طبقياً وعنصرياً، من الأفضل أن نسمع ذلك من لسان أمير المؤمنين الإمام علي (ع) الذي شهد مرحلة الإسلام وما قبله.

والآن تصوّروا ديناً شعاره المساواة بين البشر، وإلغاء التفرقة العنصرية والطبقات ويؤكد ﴿ **إنما المؤمنون أخوة** ﴾، فأي تناسب له مع الوضع في ذلك الزمن؟!.

* * *

٤ ـ محتوىٰ دعوته (ص) هو التوحيد علىٰ جميع الأصعدة، وحذف الامتيازات الظالمة، ووحدة عالم الإنسانية، ومكافحة الظلم والاستبداد، وإعلان الحكومة العالمية، والدفاع عن المستضعفين وقبول التقوىٰ والطهارة والأمانة كأفضل امتياز للقيم الإنسانية والإنسان.

* * *

٥ ـ وفي مجال البرامج التنفيذية، لم يسمح أبداً بتبرير الوسيلة من أجل الهدف، بل كان يسلك الوسائل المقدسة للوصول إلىٰ الهدف المقدس، ويقول بكل صراحة ﴿ **ولا يجرمنكم شنئآن قوم علىٰ ألّا تعدلوا** ﴾ (المائدة: ٨).

والدليل علىٰ هذا الأمر أنه كان يدعو لرعاية مبادىء الأخلاق خلال الحرب وعدم التعرض لغير المقاتلين، وعدم قطع أو حرق أو إتلاف النخيل والأشجار، وعدم تلويث المياه، وإظهار المحبة لأسرىٰ الحرب، والعشرات من أمثال ذلك.

٦ ـ إن تأثير الدعوة كان لدرجة أن الأعداء كانوا يخشون من اقتراب الأشخاص من النبي (ص) لأن تأثيره ونفوذه علىٰ الآخرين كان كبيراً جداً، وعندما كان يتحدث كانوا يُحدثون ضجة وضوضاء لكي لا يسمع الناس حديثه الجذاب والمؤثّر، إذ كان يروي القلوب العطشىٰ، ولكي يغطوا علىٰ نفوذِه المعجزة فقد أسموه (ساحراً) وأن كلامه (سحر)، وهذا بحد ذاته اعتراف ضمني بالتأثير العجيب الذي كانت تتركه دعوته.

* * *

٧ ـ إن تضحيته في سبيل الدعوة تدل علىٰ أنه كان يؤمن أكثر من كل شيء بهذه الدعوة. في بعض ميادين القتال عندما فرّ المسلمون بقي (ص) ثابتاً، وكان العدو يتعامل معه بشتىٰ الوسائل، عن طريق التطميع أو التهديد، ولكنه لم يكن ليهتم بكل تلك المسائل بل بقي ثابتاً علىٰ موقفِه ولم يضعف أو يتردد.

* * *

٨ ـ لقد سعوا مراراً للتساوم معه أو حرفه، ولكنه لم يستسلم أبداً وكان يقول: «لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي علىٰ أن أترك هذا الأمر ما تركته».

* * *

٩ ـ ليس فقط أن تأثير دعوته كانت عظيمة بين صفوف الناس، وأنها انتشرت بسرعة بينهم، فالأشخاص الذين طالعوا كتب المستشرقين في مجال الإسلام، رأوا تعجب هؤلاء المستشرقين من ظهور وسرعة انتشار الإسلام، مثلاً ثلاثة من الأساتذة الغربيين الذين كتبوا (تاريخ الحضارة العربية في الشرق) أعلنوا بصراحة هذه الحقيقة: «إنه رغم المساعي التي بذلت لمعرفة سرعة انتشار الإسلام في العالم، وإنه تمكن خلال أقل من قرن واحد أن

يغطي قسماً عظيماً من العالم المتمدن والمتحضر في ذلك العهد، بقيت هذه المسألة غامضة للمستشرقين».

نعم، إنها لغامضة حقاً، كيف تمكن الإسلام بوسائل ذلك العهد أن ينتشر بهذه السرعة، وأن يرسخ في قلوب الملايين، وأن يصهر الحضارات ليطلع بحضارةٍ جديدة؟!.

* * *

١٠ ـ وأخيراً نصل إلىٰ أن أعداءه كانوا مجموعة من زعماء الكفر والشرك والمستكبرين الظالمين الأغنياء والمغرورين، بينما كان المؤمنون غالباً من الشباب ذوي السرائر الطيبة، وقسمٌ عظيم منهم كانوا من الفقراء المحرومين، بل حتىٰ من العبيد، الذين لا يملكون غير القلوب الطاهرة والمتعطشة للحق.

* * *

من مجموع هذه الدراسة، التي هي في الحقيقة مفصّلة وواسعة، يمكننا أن نستنتج، أنها كانت دعوة إلهية، دعوة تنبع من وراء الطبيعة، من قِبل الله تبارك وتعالىٰ لإنقاذ البشر من الفساد والضياع والجهل والشرك والظلم.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ هل لدينا من طريق آخر لإثبات حقانية النبي (ص) غير المعجزة؟ ما هو هذا الطريق؟

٢ ـ ما هو المقصود بجمع القرائن؟ وقبل كل شيء يجب التفكير في أية أمورٍ وشؤون؟

٣ ـ هل يمكن استنتاج شيء من المقارنة بين وضع العرب قبل وبعد

الإسلام؟

٤ ـ اشرح ما تعرفه عن العرب والعالم عموماً في العصر الجاهلي.

٥ ـ لماذا اتهم أعداء الإسلام نبيَ الإسلام (ص) بالسحر؟.

* * *

الدرس العاشر

ختم النبوة

المفهوم الدقيق لختم النبوة:

نبي الإسلام (ص) هو آخر الأنبياء والرسل، وهكذا يكون ختم سلسلة النبوة به، وهذا من (ضروريات الدين الإسلامي). ومعنىٰ (ضروري) هو أن كل من يدخل في صفوف المسلمين، يفهم بسرعة أن جميع المسلمين يؤمنون بذلك، وأنه من الواضحات، والمُسَلّمات لديهم. أي أن كل من يتصل بالمسلمين يعرف أنهم، دينياً، يؤكدون علىٰ مبدأ (التوحيد)، ويعلمون أن المسلمين متفقون فيما يخص اختتام النبوة بالنبي الأكرم (ص)، ولذا لا يوجد أي مسلم ينتظر مجيء نبي جديد.

الحقيقة أن قافلة البشرية قد قطعت مراحل عديدة الواحدة بعد الأخرىٰ في مسيرتها التكاملية ووصلت إلىٰ مرحلة من النمو والتكامل بحيث تستطيع أن تعتمد علىٰ نفسها، أي أنها تستطيع بالاستفادة من التعليمات الجامعة للإسلام من حل مشاكلها. بتعبير آخر: إن الإسلام هو القانون النهائي والجامع لمرحلة نضوج البشر، فهو من حيث العقيدة، يضم أكمل

محتوىً ديني، ومن حيث العمل فهم منظم لدرجة أنه يتطابق مع حاجيات الإنسان في كل عصر وزمان.

* * *

الدليل علىٰ ختم النبوة بالنبي الأكرم (ص):

لإثبات ذلك لدينا أدلة كثيرة أهمها وأوضحها ثلاثة:

١ ـ ضرورة هذه المسألة: قلنا إن كل من له اتصال بالمسلمين في أية نقطة من نقط العالم، يدركُ أنهم يعتقدون بختم نبوة نبي الإسلام (ص)، وعليه أنه إذا قبل شخص الإسلام عن طريق الدليل والمنطق الكافي فإنه لا يملك إلّا أن مبدأ الاختتام هذا، وبما أننا أثبتنا في الدروس السابقة حقانية هذا الدين بالدليل الكافي فإنه يجب علينا أن نقبل مبدأ الختم أيضاً لأنه من ضروريات هذا الدين.

٢ ـ آيات القرآن الكريم، أيضاً، دليل واضح علىٰ ختم نبوة نبي الإسلام (ص)، منها: ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾ (الأحزاب: ٤٠).

شاع هذا التعبير في الوقت الذي طرحت قضية التبني بين العرب، إذ كانوا يتبنون شخصاً من والدين آخرين ويتخذونه ولداً لهم، فيدخل العائلة كأحد أفرادها، ويكون محرماً، ويرث. ولكن جاء الإسلام وألغىٰ هذا التقليد الجاهلي، وقال: إن المتبنين لا يكتسبون الحقوق الشرعية للابن الشرعي الحقيقي، ومن هؤلاء (زيد) الذي تبناه نبيُ الإسلام (ص)، فلا يُعتبر ابناً للرسول الأكرم (ص). ولهذا تشير الآية أنه بدلاً من أن تسموا النبي (ص) بأب أحد الأشخاص، ادعوه برسول الله وخاتم النبيين. إن هذا التعبير يدل علىٰ اختتام النبوة بالنبي الأكرم (ص) كما أن رسالته واضحة وثابتة للجميع.

السؤال الوحيد الذي يبقىٰ هنا هو: ما هو المفهوم الحقيقي لـ (الخاتم)؟.

(الخاتم) يأتي من (الختم) أي النهاية، الذي يختم وينهي عملاً، مثلاً وضع الخاتم في نهاية الرسالة، وإذا كان (الخاتم) الذي يلبس في يد، ويوضع في الإصبع، سُميَ (خاتماً) لأنه كان يُختم به علىٰ الرسالات حيث كان يحمل اسم صاحبه.

نقرأ في الروايات الإسلامية: إن الرسول الأكرم عندما كان يريد أن يرسل رسالة إلىٰ أحد الملوك أو الحكام في ذلك العهد ويدعوهم إلىٰ الإسلام، قيل له (ص) إن سلاطين العجم لا يقبلون رسالة غير مختومة، وكان الرسول (ص) يرسل الرسائل دون ختم، فأمر أن يعدّوا له ختماً يحمل هذه العبارة (لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله) ثم أمر بختم رسائله بذلك الختم.

وعليه يكون المعنىٰ هو المختتم لسلسلة الأنبياء.

٣ ـ لدينا روايات كثيرة وأحاديث عديدة تؤكد ختم النبوة بالنبي الأكرم (ص) منها:

١ ـ جاء في حديثٍ رواه جابر بن عبد الله الأنصاري عن النبي (ص): قال: إنما مثلي في الأنبياء كمثل رجل بنىٰ داراً فأكملها وحسنها إلاّ موضع لبنة، فكان من دخلها ونظر إليها فقال: ما أحسنها إلاّ موضع هذه اللبنة، قال (ص): فأنا موضع اللبنة، ختم بي الأنبياء. أورده البخاري ومسلم في صحيحيهما (نقل من (الميزان) للطباطبائي ج ١٦ ص ٣٢٧ طبعة اسماعيليان).

وقال الإمام الصادق (ع): «حلال محمد حلال أبداً إلىٰ يوم القيامة وحرامه حرام أبداً إلىٰ يوم القيامة».

وهناك حديث معروف لدىٰ الشيعة والسُّنة نقل عن النبي الأكرم (ص)

أنه قال للإمام علي (ع): «أنت مني بمنزلة هارون من موسىٰ إلاّ أنه لا نبي بعدي».

* * *

هناك أسئلة حول ختم النبوة بالنبي الأكرم (ص) لا بد من الاهتمام بها:

١ ـ يقول البعض: إذا كان إرسال الأنبياء فيضاً إلهياً كبيراً، لماذا إذن يجب أن يُحرَم إنسان عصرنا من هذا الفيض الكبير؟ ولماذا لا يأتي نبي جديد لهداية وقيادة إنسان هذا العصر؟ إن الذين يتساءلون بهذه الأسئلة يغفلون، في الحقيقة، عن نقطة وهي أن محرومية عصرنا ليس لأنهم، أي الناس، لا يستحقون ذلك، وإنما لأن قافلة البشرية قد وصلت مرحلة في مسيرتها الفكرية ووعيها بحيث أنها تتمكن من السير بما لديها من تعليمات النبي الأكرم (ص).

لا بأس أن نأتي بمثال هنا:

إن الأنبياء، أولي العزم، أي الذين لهم دين جديد وكتاب سماوي هم خمسة: (نوح، إبراهيم، موسىٰ، عيسىٰ، ونبي الإسلام محمد (ص)) قام كل واحد منهم في مقطع تاريخي خاص بهداية الناس والسعي لتكاملهم، وكان كل واحد منهم يطوي مرحلة من الزمن لكي يعطي المرحلة التالية إلىٰ نبي آخر من أولي العزم، حتىٰ وصلت هذه القافلة إلىٰ المرحلة النهائية، كالتلميذ الذي درس المراحل الدراسية حتىٰ وصل المرحلة الأخيرة والتخرج، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن مسألة الدراسة لا تنتهي أبداً، إذ هناك المرحلة الابتدائية فالمتوسطة والثانوية والجامعة ثم مرحلة الدكتوراه، فإذا كان الذي يحصل علىٰ درجة الدكتوراه لا يذهب إلىٰ الجامعة فهذا .لا يعني أنه لا يستحق ذلك بل لأنه لديه من المعلومات التي يتمكن بواسطتها من حل مشاكله العلمية، وأن يستمر في مطالعاته.

٢ ـ مع أن المجتمع البشري في حالة تحوّل مستمر، فكيف يمكن أن تلبي قوانين الإسلام الثابتة حاجيات الإنسان المعاصر؟.

جواباً نقول: إن للإسلام نوعين من القوانين، سلسلة منها هي كصفات الإنسان الثابتة كضرورة الاعتقاد بالتوحيد، وتنفيذ مبادىء العدالة، ومكافحة أي نوع من أنواع الظلم والإجحاف والعدوان. أما القسم الآخر فهو سلسلة من المبادىء العامة والجامعة، تتخذ صورة وشكلاً جديداً مع أي تغيّر يطرأ علىٰ الموضوع فتلبي في هذه الحالة الحاجات المختلفة لكل عصر وزمان. مثلاً لدينا مبدأ عام في الإسلام تحت عنوان (أوفوا بالعقود)، ومما لا شك فيه أنه مع مرور الزمن تظهر أنواع جديدة من العقود المفيدة، اجتماعية وتجارية وسياسية، والإنسان يستطيع مع التمسك بالمبدأ المذكور أن يلبي حاجته في هذا المجال.

وهناك مبدأ آخر تحت عنوان (قاعدة لا ضرر) حيث، طبقاً له، أن يتحدد كل حكم وقانون فيما يخص ضرر الفرد أو المجتمع.

تلاحظون كيف أن هذه القاعدة الإسلامية العامة تحل المشاكل؟! ولدينا الكثير من هذه القواعد في الإسلام وبالاستفادة منها نستطيع حل المشاكل المعقدة بعد انتصار الثورة الإسلامية.

٣ ـ لا شك أننا نحتاج إلىٰ قائد في مسائلنا الإسلامية. ومع عدم وجود النبي وغيبة خليفته، فإن مسألة القيادة تتوقف، ومع مبدأ ختم النبوة، وعدم توقع وانتظار ظهور نبي آخر، أليس ذلك خسارة للمجتمع الإسلامي؟.

جواباً نقول: لهذه المرحلة أيضاً تؤخذ المسألة بنظر الاعتبار، حيث تم حل المسألة عن طريق (ولاية الفقيه) إذ تكون القيادة بيد فقيه جامع للشروط وله علم وتقوىٰ ورأي سياسي علىٰ مستوىً عالٍ، وطريقة معرفة مثل هذا القائد مذكورة بوضوح في القوانين الإسلامية، إذن فلا قلق من

هـذه المسـألـة. وعليـه فـإن (ولايـة الفقيـه) هـي استمـرار خـط الأنبيـاء والأوصياء. إن قيادة الفقيه الجامع للشروط دليل علىٰ أن المجتمعات الإسلامية لم تُترك دون مُشرف.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ ما هو مفهوم (الختم) بصورة دقيقة؟
٢ ـ كيف يمكن معرفة (الختم) من الآيات القرآنية؟
٣ ـ لماذا يُحرم الناس في عصرنا من الأنبياء الإلهيين؟
٤ ـ كم عدد أنواع القوانين الإسلامية، وكيف تلبىٰ حاجات العصر؟
٥ ـ هل يمكن أن يكون المجتمع الإسلامي بدون قائد؟ كيف تُحل مسألة القيادة في عصرنا؟.

* * *

- ٤ -

عشرة دروس
في الإمامة

الدرس الأول

بحث الإمامة
من أين بدأ؟

نحن نعلم أن المسلمين انقسموا بعد نبي الإسلام (ص) إلىٰ قسمين: قسم كانوا يعتقدون أن النبي (ص) لم يعيّن خليفة بعده، بل ترك ذلك للأمة، أن يجتمعوا وينتخبوا قائداً لهم. . وهؤلاء هم (أهل السُّنة).

وقسم آخر كانوا يعتقدون أن خليفة النبي (ص) يجب أن يكون معصوماً من الخطأ والخطيئة مثله، وله علم جم لكي يستطيع القيام بالقيادة المعنوية والمادية للناس ويحفظ الإسلام واستمراره. كما كانوا يعتقدون أن تعيين مثل هذا الشخص غير ممكن إلاّ عن طريق الله تبارك وتعالىٰ وبواسطة النبي (ص)، والنبي الأكرم (ص) قام بذلك، وانتخب الإمام علياً (ع) خلفاً له (ص). هذا القسم يدعىٰ بالإمامية أو (الشيعة).

إن هدفنا من هذه الأبحاث المختصرة هو دراسة هذه المسألة طبقاً للأدلة العقلية والتاريخية والآيات القرآنية وسُنة النبي (ص). ولكن قبل الدخول في هذا البحث يجب الإشارة إلىٰ بعض النقط:

١ ـ هل إن هذا البحث يؤدي إلىٰ الاختلافات؟

يعترض البعض لدىٰ سماعهم الحديث عن مسألة الإمامة فينبري ويقول: ليس الآن وقت هذا الكلام!! اليوم يوم وحدة المسلمين، والحديث عن خليفة النبي (ص) يؤدي إلىٰ التفرقة والتشتت!! لدينا اليوم عدو مشترك يجب أن نراقبه؛ الصهيونية والاستعمار الغربي والشرقي، ولذا يجب أن نترك هذه المسائل التي تؤدي إلىٰ الاختلافات..

إن هذا الأسلوب من التفكير خاطىء بالتأكيد:

أولاً: إن الأبحاث التي تؤدي إلىٰ الاختلاف والتشتت هي تلك البحوث التي تعتمد علىٰ التعصب وعدم المنطق والحقد، ولكن الأبحاث المنطقية المستدلة، البعيدة عن التعصب الأعمىٰ، وفي جو يتسم بالصداقة الحميمة، ليس فقط أنها لا تؤدي إلىٰ التفرقة، وإنما تختصر الفواصل، وتقوي النقط المشتركة.

إنني قمت بزيارات كثيرة للحجاز للتشرف بزيارة بيت الله الحرام وكانت لي أبحاث كثيرة مع علماء أهل السُّنة، ولقد شعرتُ، كما شعروا هم، ليس فقط أن هذه الأبحاث والمناقشات لم تكن ذات أثر سيء علىٰ علاقاتنا، بل أدّت إلىٰ تفاهم وتفاؤل أكثر، واختصرت الفواصل بيننا، كما أنها أزالت المشاعر المشكوكة، التي يمكن أن تكون موجودة، المهم أن هذه الأبحاث تؤدي إلىٰ توضيح أن بيننا نقطاً مشتركة كثيرة يمكننا أن نعتمد عليها أمام عدونا المشترك.

إن أهل السُّنة أنفسهم ينقسمون إلىٰ أربعة أقسام (الحنفي، الحنبلي، الشافعي والمالكي). إن وجود هذه الفرق لم تؤد إلىٰ الاختلاف فيما بين أهل السُّنة، وإذا قبل هؤلاء، علىٰ الأقل بالفقه الشيعي بعنوان مذهب فقهي خامس فإن الكثير من المشاكل والفواصل تزول، كما حدث في المدة

الأخيرة أن المفتي الأكبر لأهل السُنّة ورئيس جامعة الأزهر في مصر (الشيخ شلتوت) قد خطا خطوة مؤثرة وأعلن رسمياً اعترافه بالفقه الشيعي بين أهل السُنة، وهكذا فقد ساعد كثيراً في إيجاد التفاهم بين المسلمين، وتوثقت بينه وبين المرجع الكبير آية الله البروجردي أواصر الصداقة.

ثانياً: إننا نعتقد أن تبلور الإسلام يتجلىٰ في المذهب الشيعي أكثر من المذاهب الأخرىٰ، في الوقت الذي نحترم فيه جميع المذاهب، إلاّ أن المذهب الشيعي بإمكانه أن يعرف الإسلام الحقيقي بجميع أبعاده بصورة أفضل وأن يحل المسائل المتعلقة بالحكومة الإسلامية، فلماذا لا نعلّم أطفالنا، بالدليل والمنطق، هذه المدرسة؟ إننا إن لم نفعل ذلك، فمن المؤكد أننا نخونهم!!.

إننا نعتقد أن النبي (ص) قد عيّن خليفة له، وما الضرر لو أننا ناقشنا هذا الموضوع عن طريق المنطق والاستدلال؟ ولكن يجب أن نكون في هذه البحوث علىٰ حذر من أن نجرح مشاعر الآخرين.

ثالثاً: إن أعداء الإسلام، وبهدف الإخلال بوحدة المسلمين كذبوا علىٰ الشيعة لدىٰ أهل السُنّة، وكذبوا واتهموا أهل السُنة لدىٰ الشيعة، حتىٰ أنهم تمكنوا في بعض البلدان أن يبعدوا أحدهم عن الآخر.

إننا عندما نطرح مسألة الإمامة بالأسلوب الذي ذكرناه، ووضحنا النقط التي يؤكدها الشيعة بأدلة من الكتاب والسُّنة، يصبح معلوماً أن تلك الدعايات ما هي إلاّ أكاذيب، وأن عدونا المشترك قد بثَّ السموم بيننا.

وكمثالٍ فإنني لا أنسىٰ أنني في زيارة للحجاز التقيت برجل من رجال الدين المعروفين جداً في السعودية، وتناقشنا، فقد قال لي إن الشيعة لديهم قرآن غير القرآن الموجود لديهم. فتعجبتُ، وقلت له: إن التحقيق في هذا الأمر بسيط جداً، وإنني أدعوك شخصياً أو ممثلاً عنكم لكي تسافر معنا، بعد أداء مراسم العمرة، إلىٰ إيران ودون سابق إطلاع، وتوجد هناك في

الشوارع والأزقة مساجد كثيرة، وتوجد نسخ من القرآن الكريم في كل مسجد، كما توجد نسخ في بيوت جميع المسلمين، وسنذهب إلىٰ أي مسجد أو بيت تريد، ونطلب منهم أن يعطونا نسخ القرآن الكريم وسيتضح لك أننا لا نختلف في كلمة وحتىٰ في نقطة واحدة وأن الكثير من نسخ القرآن التي نستفيد منها هي مطبوعة في الحجاز ومصر وبقية الدول الإسلامية.

لا شك أن هذا النقاش والحديث الحميم والمستدل تماماً قد غسل السموم العجيبة التي كانت في ذهن أحد علماء الدين المعروفين.

المقصود إن هذه الأبحاث المتعلقة بالإمامة، بالطريقة التي ذكرناها، تقوي وحدة المجتمع الإسلامي، وتكشف الحقائق، وتساعد في تقليل الفواصل بين المسلمين.

* * *

٢ ـ ما هي الإمامة؟

(الإمام)، كما هو معلوم من الاسم، بمعنىٰ (زعيم) و (قائد) للمسلمين، وفي العقيدة الشيعية فإن اسم (الإمام المعصوم) يُطلقُ علىٰ الشخص الذي يكون خليفةً للنبي (ص) في كل شيء، مع فارق أن النبي (ص) هو مؤسس الدين، و (الإمام) حافظ وأمين الدين، الوحي ينزل علىٰ النبي (ص)، ولا ينزل علىٰ (الإمام) بل يأخذ تعليماته من النبي (ص)، وله علم استثنائي.

من وجهة نظر (الشيعة) فإن (الإمام المعصوم) ليس بمعنىٰ قائد الحكومة الإسلامية وإنما هو القائد المعنوي والمادي، الظاهري والباطني، بل هو القائد في كل شيء في المجتمع الإسلامي، وحافظ العقيدة والأحكام الإسلامية، دون أي خطأ أو انحراف، وأنه العبد الصالح

المنتخب من قبل الله تبارك وتعالىٰ.

ولكن أهل السُّنة لا يفسرون (الإمامة) هذا التفسير، بل يعتبرون (الإمام) رئيساً لحكومة المجتمع الإسلامي، أو بالأحرىٰ إنهم يعتبرون الحكام في كل عصر وزمان خلفاء النبي (ص)، وأئمة للمسلمين!!.

طبعاً إننا سنثبت في الأبحاث القادمة أنه يجب أن يكون علىٰ الأرض، في كل عصر وزمان ممثل إلهي، (نبي) أو (إمام معصوم) ليحفظ دين الحق ويقود المؤمنين، وإذا حدث، ولأسباب، أن يختفي عن الأنظار، فإن ممثلين عنه ينوبون بتبليغ الأحكام وتشكيل الحكومة.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ ما هو منطق أولئك الذين يقولون: ليس اليوم يوم بحث في الإمامة؟

٢ ـ أمام هذا المنطق كم جواب مستدل موجود لدينا في هذا البحث؟

٣ ـ كيف بث أعداء الإسلام التفرقة بين المسلمين، وما هي طريقة معالجة ذلك؟

٤ ـ هل تتذكر نماذج من أسلوب التفرقة الذي قام به الأعداء؟

٥ ـ ما هو الفرق بين معنىٰ (الإمامة) لدىٰ الشيعة ولدىٰ السُّنة، وما هو الاختلاف بينهما؟.

* * *

الدرس الثاني

فلسفة
وجود الإمام

إن الأبحاث التي بحثناها حول ضرورة بعثة الأنبياء، عرفتنا إلىٰ حد كبير علىٰ ضرورة وجود الإمام بعد النبي (ص)، لأنهما يشتركان في الكثير من البرامج، ولكن يجب هنا أن نطرح مباحث أخرىٰ:

* * *

١ ـ التكامل المعنوي إلىٰ جانب وجود القادة الإلهيين:

قبل كل شيء نتوجه نحو هدف خلق الإنسان، وهو ذروة خلق العالم. وهو يطوي طريقاً طويلاً بمنعطفات كثيرة نحو الله، نحو الكمال المطلق، ونحو التكامل المعنوي، في جميع المجالات. ولا شك أنه لا يمكن قطع هذا الطريق بدون زعيم وقائد معصوم ومعلم سماوي، لأن هناك: (ظلاماً، فاَخشَ من خطر الضياع).

.صحيح أن الله تبارك وتعالىٰ جهّز الإنسان بقوة العقل والذكاء، ومنحه ضميراً وإدراكاً قوياً، وأرسل إليه الكتب السماوية، ولكن رغم كل تلك الوسائل التكوينية والتشريعية قد يخطىء في تشخيص طريقه ويقع في الخطأ، وبالتأكيد فإن وجود إمام معصوم يقلل من خطر الانحراف والضياع إلىٰ حدٍّ كبير، وهكذا يكون «وجود الإمام، استكمالاً لهدف خلق الإنسان».

وهذا الشيء هو ما يُسمىٰ في مدرسة العقيدة باسم (قاعدة اللطف) والقصد منه أن الله تبارك وتعالىٰ لَيضع تحت تصرف الإنسان جميع الإمكانات ليصل إلىٰ الهدف، من بينها إرسال الأنبياء، ووجود الإمام، وإلا لحدث نقض الغرض. (لاحظ ذلك جيداً).

* * *

٢ ـ المحافظة علىٰ الشرائع السماوية:

نحن نعلم أن نزول الأديان السماوية علىٰ قلوب الأنبياء أشبه ما يكون بهطول قطرات الماء الشفاف والزلال، الذي يحيي الأرواح، ولكنها عندما تهطل علىٰ بيئة ملوثة، وعقول عاجزة وغير طاهرة، فإنها تتلوث بالتدريج، وتدخل عليها الخرافة والأوهام، حتىٰ أنها تفقد تلك الشفافية بمرور الأيام، وفي هذه الحالة تفقد جاذبيتها وتأثيرها التربوي، فلا تروي عطش الصادي، ولا تسقي زهور الفضيلة.

وهنا تبرز ضرورة وجود الإمام المعصوم كحارس لأصالة الدين، ليحافظ علىٰ البرامج الدينية الخالصة ليحول بينها وبين الانحرافات والأفكار الملتقطة والآراء غير الصحيحة والأوهام والخرافات. ولو بقي دين بدون مثل هذا القائد فإنه وخلال مدة قصيرة يفقد أصالته ونقاءه.

ولهذا السبب يقول الإمام علي (ع) في إحدىٰ كلماته في نهج

البلاغة:

ـ «اللهم بلىٰ، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مَغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيناته»[1].

في الحقيقة إن قلب الإمام عليه السلام يشبه الصناديق المحكمة التي تضم وثائق مهمة بعيداً وحفاظاً من اللصوص، ولتبقىٰ مصانة من الحوادث، وهذا هو أحد أسباب ضرورة وجود الإمام.

* * *

٣ ـ القيادة السياسية والاجتماعية للأمة:

لا شك أنه لا يمكن لأي مجتمع بدون نظام اجتماعي ولا يوجد علىٰ رأسه قائد، أن يستمر في الحياة، ولهذا السبب فقد انتخبت جميع القوميات والشعوب إماماً لها منذ أقدم العصور، كان أحياناً صالحاً، وفي الكثير من الأحيان غير صالح، وكثيراً ما حدث بسبب حاجة الأمة إلىٰ قائد، أنْ فرض السلاطين أنفسهم بالقوة علىٰ الأمة ومسكوا بزمام الأمور. هذا من جانب، ومن جانب آخر، بما أن الإنسان ولكي يتمكن من الوصول إلىٰ هدف الكمال المعنوي، ولا بد أن يقطع هذا الطريق وحيداً، عليه أن يقطع هذا الطريق مع الجماعة والمجتمع، لأن قدرة الشخص منفرداً ضعيفة، فكرياً وجسمياً ومادياً ومعنوياً، بينما قدرة المجموع أكبر بكثير.

ولكن يجب أن يكون هناك نظام صحيح في المجتمع، لكي يساعد علىٰ نمو الكفاءات الإنسانية، ويكافح الانحرافات، ويحفظ حقوق الأفراد، وتكون لديه خطط للوصول إلىٰ الأهداف الكبيرة للقيادة، ثم لتتكاتف جميع الجهود في بيئةٍ حرة للمجتمع.

---

(١) نهج البلاغة ـ الكلمات القصار جملة ـ ١٤٧.

وبما أن الإنسان الخاطىء لا يملك القدرة علىٰ حمل هذه الرسالة العظيمة، وكما نحن لاحظنا بعيوننا دائماً انحراف الحكام السياسيين في العالم عن الطريق القويم، فلا بد من وجود إمام معصوم مرسل من قبل الله عز وجل للإشراف علىٰ هذا الأمر، ويحول بين الأمة والانحرافات بالاعتماد علىٰ قوىٰ الأمة وأفكار العلماء الصالحين.

وهذا سبب آخر لضرورة وجود الإمام، وأحد فروع (قاعدة اللطف).

ونكرر مرة أخرىٰ، إن تكليف الناس في الأزمنة الاستثنائية لغيبة الإمام المعصوم، واضح، وإن شاء الله تعالىٰ سنتحدث بالتفصيل عن ذلك خلال البحث في الحكومة الإسلامية.

* * *

٤ ـ لزوم إتمام الحجة:

إنّ القلوب يجب أن تكون مُهيئةً في ظل وجود الإمام، ومستمرة في قطع مسيرة الكمال المطلق، لإتمام الحجة علىٰ أولئك الذين يسيرون عمداً في طريق الخطيئة، لكي لا تكون المحاذير لهم بدون دليل وبدون عقاب، حتىٰ لا يحتج أحد قائلاً إنه لو كان هناك قائد إلهي سماوي لأخذ بيدنا وقادنا ولما انحرفنا!!.

الخلاصة إن طريق العذر مسدود، ودلائل الحق مُبيّنة بما فيه الكفاية، لإعلام وإطلاع الجاهلين، وتقوية خاطر العارفين الواعين واطمئنانهم.

* * *

٥ ـ الإمام هو الواسطة الكبيرة للفيض الإلهي:

يُشبّه الكثير من العلماء، تبعاً للأحاديث الإسلامية، وجود النبي

والإمام في المجتمع الإنساني، أو في كل عالم الوجود، بوجود (القلب) في جسد الإنسان. ونحن نعلم عندما ينبض القلب فإنه يرسل الدم في جميع العروق ليصل إلىٰ جميع الخلايا والأنسجة لتغذيتها.

وبما أن الإمام المعصوم، هو إنسان كامل يتقدم قافلة الإنسانية، وسبب لنزول الفيض الإلهي، وإن كل فرد يحصل بمقدار ارتباطه بالنبي أو الإمام من هذا الفيض، فلا بد من القول: بما أن القلب ضروري للإنسان، لذا فإن وجود واسطة الفيض الإلهي ضروري في جسد عالم الإنسان أيضاً. (لاحظوا ذلك جيداً).

مع العلم أن النبي والإمام لا يملكان من نفسيهما شيئاً ليعطوه للآخرين، فكل ما هو موجود إنما من الله تبارك وتعالىٰ، ولكن كما أن القلب واسطة للفيض الإلهي في الجسد، فإن النبي والإمام هما واسطة الفيض الإلهي للإنسان مهما كان ومن أي طبقة ومستوى.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ ما هو دور الإمام (ع) في التكامل المعنوي للإنسان؟

٢ ـ بأية طريقة يكون حفاظ الإمام (ع) للشريعة؟

٣ ـ ما هو دور الإمام (ع) في مسألة قيادة الحكومة والنظام الاجتماعي؟

٤ ـ ما معنىٰ (إتمام الحجة)؟ وما هو دور الإمام في هذا المجال؟

٥ ـ ما هي (واسطة الفيض)؟ وما هو أفضل تشبيه للنبي والإمام في هذا المجال؟.

* * *

الدرس الثالث

الشروط والظروف الخاصة للإمام (ع)

قبل كل شيء، تظهر هنا نقطة يجب الاهتمام بها، وهي: إنه يستفاد من القرآن الكريم، بصورة جيدة، بأن (مكانة الإمام) هي أسمىٰ مكانة يمكن أن يصل إليها الإنسان، حتىٰ أسمىٰ من مكانة (النبوة) و (الرسالة)، لأننا نقرأ في قصة إبراهيم الخليل، محطم الأصنام (ع) ما يلي: ﴿ وإذِ ٱبتلىٰ إبراهيم ربُّهُ بكلماتٍ فأتمهُنَّ قال إني جاعِلُك للناس إماماً ومِنْ ذريتي قال لا ينالُ عهدِي الظالمين ﴾ (البقرة: ١٢٤).

وهكذا يكون إبراهيم (ع)، بعد أن قطع مرحلة النبوة والرسالة والانتصار في مراحل الامتحانات الإلهية المختلفة، قد وصلَ إلىٰ هذا المقام السامي، مقام الإمامة الظاهرية والباطنية، والمادية والمعنوية.

ونبي الإسلام (ص) أيضاً كانت له، بالإضافة إلىٰ مكانة النبوة والرسالة، مكانة (الإمامة) و (القيادة) للناس، وكذلك كانت هذه المكانة يتمتع بها بعض الأنبياء أيضاً. هذا من جهة، ومن جهة أخرىٰ نحن نعلم

الظروف والشروط والصفات اللازمة للحصول علىٰ مكانةٍ ما تناسب الواجبات والمسؤوليات التي تحمّلها ذلك الشخص، يعني أنه كلما ارتفعت المكانة، كانت المسؤوليات أكبر.

مثلاً، في الإسلام، إن كل شخص يتصدىٰ لمقام القضاء، أو الإدلاء بالشهادة، وإمام جماعة، لا بد أن يكون عادلاً، إن العدالة ضرورية لمن يدلي بشهادته أو يقرأ سورة الحمد والإخلاص في صلاة الجماعة. ومن الواضح الشروط التي يجب أن تتوفر في شخص للحصول علىٰ مكانة (الإمامة) المهمة جداً.

علىٰ أية حال، فإن الشروط الحتمية التي يجب أن تتوفر في الإمام هي:

١ ـ العصمة من الخطأ والخطيئة:

الإمام، كالنبي، يجب أن يتمتع بالعصمة، أي الحصانة من (الخطأ) و (الخطيئة) وإلاّ لما استطاع أن يكون (قدوة) و (أسوة) و (قائداً) للناس، وموضع اعتماد المجتمع. الإمام يجب أن يسيطر علىٰ قلوب وأرواح الناس، وتكون أوامره نافذة دون تردد، ومن كان ملوثاً بالخطيئة لا يمكن أن يكون موضع قبول واعتماد واطمئنان الناس. وإن من يتعرض للخطأ والخطيئة أثناء حياته اليومية كيف يمكن الاعتماد عليه في أعمال المجتمع ويؤخذ بآرائه؟!.

لا شك أن النبي يجب أن يكون معصوماً، وهذا الشرط بالدليل الذي أوردناه يجب أن يكون متوفراً في الإمام. ويمكن إثبات ذلك من طريق آخر، إن (قاعدة اللطف) التي يعتمد عليها وجود النبي والإمام، فإنها تستوجب هذه الصفة أيضاً. لأن أهداف وجود النبي والإمام بدون مقام العصمة لا يمكنه أن يستقيم، كما أن الأسباب التي ذكرناها في الدروس السابقة ستبقىٰ ناقصة.

٢ ـ العلم الكثير:

الإمام، كالنبي، هو الملجأ العلمي للناس، فهو يجب أن يكون علىٰ علم بجميع أصول وفروع الدين، وظاهر وباطن القرآن الكريم، وسُنّة النبي، وكل ما يتعلق بالإسلام، بصورة كاملة، لأنه حافظ وحارس الشريعة وقائد ومعلم الناس. وإن الأشخاص الذين يعجزون أمام المسائل المعقدة، ويطلبون معونة الآخرين، ويقصر علمهم عن تلبية حاجات المجتمع الإسلامي، لا يستطيعون أبداً أن يتصدوا لمكانة ومقام (الإمامة) وقيادة الناس.

الخلاصة أن الإمام يجب أن يكون أعلم الناس بدين الله عز وجل، وأن يملأ الفراغ الذي حصل بوفاة النبي (ص) بسرعة، وأن يستمر بنشر الإسلام الصحيح، الخالي من أي انحراف.

* * *

٣ ـ الشجاعة:

الإمام يجب أن يكون شجاعاً وأشجع أفراد المجتمع الإسلامي، لأنه لا يمكن فصل الشجاعة عن القيادة، وعدم الوقوف بوجه المستبدين والظالمين وأعداء الدولة الإسلامية في الداخل والخارج.

* * *

٤ ـ الزهد والحرية:

نحن نعلم أن من يقع أسير زخارف الحياة يُخدع بسرعة، وتزداد إمكانية انحرافهم عن جادة الحق والعدالة، أحياناً عن طريق الطمع أو عن

طريق التهديد، فيقعون أسرىٰ الدنيا وينحرفون عن جادة الصواب. والإمام يجب أن يكون (أميراً) لا (أسيراً) بما له من إمكانات ومواهب، في هذه الدنيا. إنه يجب أن يكون حراً من كل قيد لعالم المادة، حراً من هوىٰ النفس، حراً من قيود المقام والمال والثروة، لكي لا يُخدع، ولا يؤثِّر عليه لكي يستسلم.

* * *

٥ ـ الجاذبية الأخلاقية:

يقول القرآن الكريم بالنسبة للنبي (ص): ﴿ **فبما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

ليس النبي (ص) فقط، وإنما الإمام، وكل قائد اجتماعي يحتاج إلىٰ أخلاق وجاذبية لكي يجذب نحوه الناس كالمغناطيس.

ولا شك أن أي نوع من الخشونة وسوء الأخلاق سبب لتشتت الناس وابتعادهم ويعتبر هذا عيباً كبيراً في أي نبي وإمام، بينما الأنبياء والأئمة منزهون من هذا العيب، وإلاّ لكان وجودهم عديم الفائدة.

* * *

هذه هي أهم الشروط التي ذكرها العلماء الكبار، طبعاً هناك صفات غير الصفات الخمسة المذكورة يجب وجودها في الإمام، ولكن ما ذكرناه هو الأهم.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ بأي دليل يعتبر مقام الإمامة أسمىٰ مقام للإنسان؟

٢ ـ هل كان النبي الكريم (ص) وبقية الأنبياء يتمتعون بمقام الإمامة؟
٣ ـ إن لم يكن الإمام معصوماً فأية أزمات تظهر؟
٤ ـ لماذا يجب توفر العلم الكثير لدىٰ الإمام؟
٥ ـ لماذا يجب أن يكون الإمام أشجع وأزهد وأكثر الناس حرية وأن يكون جذاباً أخلاقياً للناس؟.

* * *

الدرس الرابع

من يتعهد لتعيين الإمام؟

قسم من أهل السُّنة يعتقدون أن النبي الكريم (ص) رحل عن هذه الدنيا دون أن يعين خليفة بعده، وأنه ترك هذا الواجب للمسلمين لكي يتخذوا لأنفسهم إماماً وقائداً، وأن يتم ذلك عن طريق (إجماع المسلمين) وهو أحد الأدلة الشرعية. ويضيفون أن هذا الواجب قد تم تنفيذه وانتخب الخليفة الأول بإجماع الأمة، وهو أيضاً انتخب شخصياً الخليفة الثاني. والخليفة الثاني عين مجلس شورىٰ من ستة أشخاص لانتخاب خليفة له. وهذا المجلس كان يتألف من: علي (ع)، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص. وأدلىٰ هذا المجلس بثلاثة أصوات، أي سعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن، وطلحة، لصالح عثمان، وكان الخليفة الثاني قد صرح بأنه لو كان حدث وأن أدلىٰ ثلاثة أشخاص بآرائهم لصالح شخص وكان بينهم عبد الرحمن بن عوف (صهر عثمان) فهو المرجح!!.

وثار الناس بأدلة مختلفة في أواخر عهد عثمان، وقُتل دون أن يتمكن من أن يعهد لشخص آخر. وفي هذه الأثناء توجه المسلمون إلىٰ الإمام علي (ع) وبايعوه خليفةً لرسول الله (ص)، إلاّ معاوية الذي كان حاكماً علىٰ الشام، لأنه كان مطمئناً أن علياً (ع) لن يبقيه في منصبه، فأعلن العصيان، فأدىٰ ذلك إلىٰ وقوع حوادث مميتة وعصيبة في التاريخ الإسلامي أُريقت فيها دماء كثيرة من المسلمين الأبرياء. ولتوضيح بعض المواضيع العلمية والتاريخية لدينا مجموعة أسئلة نطرح أهمها في هذا المجال:

١ ـ هل تستطيع الأمة أن تنتخب خليفة للنبي (ص)؟

إن الإجابة علىٰ هذا السؤال ليس معقداً، فإذا كان المقصود بـ (الإمام) قيادة ظاهرية لمجتمع المسلمين، فإن انتخابه عن طريق الإدلاء بالآراء عمل متداول. ولكن إذا كانت (الإمامة) بالمعنىٰ الذي شرحناه، واستندنا لفهمه بالقرآن الكريم، لا يمكن أن يتم ذلك إلاّ عن طريق الله تبارك وتعالىٰ والنبي (ص) ـ وذلك عن طريق الإلهام ـ لأن شرط (الإمامة) طبقاً لهذا التفسير يقتضي العلم الوافر بجميع أصول وفروع الدين، وهذا العلم يستمد مصدره من السماء ويعتمد علىٰ علم النبي (ص) لكي يتمكن من المحافظة علىٰ الشريعة الإسلامية.

والشرط الآخر هو أن يكون الإمام معصوماً، يعني مبرأ من كل خطأ وخطيئة ومصوناً صيانة إلهية، لكي يتحمل أعباء مقام الإمامة والقيادة المعنوية والمادية، الظاهرية والباطنية، وكذلك يجب أن يتحلىٰ بالزهد والتقوىٰ والشهامة اللازمة لهذا المقام.

إن تشخيص هذه الشروط، لا شك، لا يتم إلاّ عن طريق الله عز وجل والنبي (ص)، فهو الذي يعرف فيمن يضع روح العصمة، وهو الذي يعلم نصاب العلم اللازم لإحراز مقام الإمامة، إلىٰ جانب الزهد والحرية والشجاعة والشهامة.

- إنّ أولئك الذين تركوا نصب الإمام وخليفة رسول الله (ص) إلىٰ الناس، إنهم في الحقيقة غيّروا المفهوم القرآني للإمامة، واعتبروا الإمامة مقتصرة علىٰ الحكومة العادية وتمشية الأمور الدنيوية للناس، وإلاّ فإن شروط الإمامة بالمعنىٰ الجامع والكامل تُشخّص من قبل الله سبحانه وتعالىٰ. تماماً كما أن شخص النبي لا ينتخب عن طريق آراء الناس بل يجب أن يكون الانتخاب من قبل الله عز وجل ويُعرِّفُهُ عن طريق المعجزات لأن صفات النبي لا تُشخّص إلا من قبل الله سبحانه.

* * *

٢ ـ أَلَمْ يعيّن النبي (ص) خليفة له؟

لا شك أن الدين الإسلامي دينٌ (عالمي) و (خالد)، وطبقاً لصريح آيات القرآن الكريم، لا يختص بزمان ومكان معينين.

ولا شك أن (الإسلام) لم يخرج من الجزيرة العربية حتىٰ وفاة الرسول الأكرم (ص). فمن جهة أمضىٰ النبي (ص) ١٣ عاماً من عمره الشريف في مكة يكافح الشرك وعبادة الأصنام وعشرة أعوام منذ هجرته الىٰ المدينة هي عصر ازدهار الإسلام، أمضىٰ أكثرها في (الغزوات) والحروب المفروضة من قبل الأعداء.

ورغم أن النبي (ص) كان يواصل، ليل نهار، تعليم المسائل والقضايا الإسلامية، ويُعرّف الإسلام الجديد في كافة أبعاده، إلا أنه كان يحتاج إلىٰ زمن أطول لتحليل الكثير من المسائل الإسلامية، وكان لا بد من وجود شخص يتحمل أعباء هذه المسؤولية الثقيلة كالنبي (ص)، من بعده. بالإضافة إلىٰ كل ذلك فإن استطلاع الوضع في المستقبل وإعداد المقدمات لاستمرار الدين يعتبر من أهم الأمور التي تفكر فيها القيادة ولا تسمح لنفسها أن تترك هذه المسألة المهمة يلفها النسيان.

ثم إن نبي الإسلام (ص) كان يصدر أوامره في أبسط المسائل، فكيف إذن لا يعين برنامجاً لمسألة الخلافة والزعامة وإمامة المسلمين المهمة؟!! إن مجموع هذه الأمور الثلاثة لدليل واضح علىٰ أن النبي الأكرم (ص) قد قام بعمل فيما يخص بتعيين خليفة بعده، ونحن إن شاء الله سنورد مجموعة من الروايات الإسلامية في هذا المجال توضح هذا الواقع المنطقي التي تؤكد أن النبي (ص) لم يغفل لحظة طوال حياته عن هذه المسألة المهمة، رغم التيارات السياسية الخاصة التي أوجدوها بعد رحيل النبي (ص) وسعوا من خلالها أن يلقوا في أذهان الناس أن النبي (ص) لم يعين خليفة بعده.

فهل من المعقول أن النبي (ص) الذي كان يخرج في الغزوات، مثلاً غزوة تبوك، لم يكن يخلي المدينة، بل كان يعين شخصاً لإدارتها، فكيف إذن لا يقوم بعمل في هذا المجال لمرحلة ما بعد وفاته (ص) ويترك الأمة في خضم الاختلافات والضياع دون أن يضمن استمرار الإسلام عن طريق إرشاداته للمستقبل؟!!.

لا شك إن عدم تعيين خليفة كانت له مخاطر كبيرة علىٰ الإسلام الجديد، والعقل والمنطق يحكمان بأنه من المستحيل أن يقوم النبي (ص) بذلك.

إنهم يقولون إنه (ص) ترك هذا الأمر للأمة؛ بينما لا نجد أية وثيقة تدل علىٰ ذلك.

* * *

٣ ـ الإجماع والشورىٰ:

لنفرض أن النبي الكريم (ص) ترك هذا الأمر الحياتي المهم، وكان المسلمون هم المكلفين بالانتخاب، ولكننا نعلم أن (الإجماع) يعني توافق جميع المسلمين، ولكن لم يحصل أبداً اتفاق وإجماع بالنسبة لخلافة

الخليفة الأول، وإنما كانت مجموعة من الصحابة قد عزمت علىٰ ذلك، ولم يشترك أحد من المسلمين من سائر بلاد المسلمين في هذا الانتخاب، وفي المدينة المنورة نفسها أيضاً، لم يتدخل علي (ع) وجمع كبير من بني هاشم في الانتخاب، ولذا فإن مثل هذا الإجماع غير مقبول. ثم لو كانت هذه الطريقة صحيحة فلماذا لم يقم (الخليفة الأول) بهذا الأمر بالنسبة لخليفته؟!! ولماذا انتخبه بنفسه؟!! فلو كان تعيين شخص يكفي فالنبي (ص) كان أولىٰ بأن يفعل ذلك. ولو كانت البيعة التالية تحل المشكلة، فإن النبي (ص) كان أفضل مَنْ يحل ذلك.

بالإضافة إلىٰ ذلك فإن المشكلة الثالثة جاءت مع الخليفة الثالث، إذ لماذا ترك الخليفة الثاني أسلوب الخليفة الأول في انتخابه، وألغىٰ السُّنة التي جاء هو بواسطتها؟ ولماذا ذهب نحو طريقة (الإجماع) عن طريق شورىٰ ولم ينتخب أحداً؟ ثم لو كانت (الشورىٰ) صحيحة، لماذا حُدّدت بستة أشخاص؟ وإن رأي ثلاثة يكفي لانتخاب شخص؟!.

هذه أسئلة تواجه أي محقّق في التاريخ الإسلامي، وعدم الإجابة عليها يَدلُّ علىٰ أن طريقة تعيين الإمام ليست تلك الطرق.

* * *

٤ ـ الإمام علي (ع) كان أحق الجميع:

لنفرض أن النبي الأكرم (ص) لم يعين أحداً خلفاً له. ثم لنفرض أيضاً أنه ترك هذا الأمر للأمة، ولكن هل يمكن ترك شخص، في عملية الانتخاب، يتحلىٰ بالعلم والتقوىٰ والامتيازات الأخرىٰ علىٰ الآخرين، والتوجه إلىٰ من يليه بالمرتبة بمراحل؟!!.

لقد كتبت مجموعة كبيرة من العلماء المسلمين، حتىٰ من أهل السُّنة، بكل صراحة، إن الإمام علياً (ع) كان أعلم بالمسائل الإسلامية وأفضل

بكثير من جميع المسلمين، والآثار والروايات المنقولة عنه (ع) تشهد بذلك، ويقول التاريخ الإسلامي عنه إنه كان ملاذ الأمة في جميع المشاكل العلمية. وحتىٰ لو كانوا يتوجهون بأسئلتهم إلىٰ الخلفاء حول مسائلهم المعقدة، كان الخلفاء يرسلونهم إلىٰ الإمام علي (ع).

أما عن صفاته الأخرىٰ كالشجاعة والشهامة والزهد والتقوىٰ وغيرها، فقد كانت واضحة وأفضل من الجميع. وعليه فإنهم لو أرادوا انتخاب أحدٍ لهذا المنصب فإن الإمام علياً (ع) كان أليق وأحق الجميع (لهذا البحث وثائق كثيرة لا مجال لها هنا).

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ لماذا لا يستطيع الناس انتخاب الإمام وخليفة النبي (ص)؟
٢ ـ هل يحكم العقل والمنطق بأن النبي (ص) لم يعين خليفةً له؟
٣ ـ كيف كانت طرق انتخاب الخلفاء الثلاثة الأوائل؟
٤ ـ هل كانت طرق انتخابهم تنطبق مع الموازين العلمية الإسلامية؟
٥ ـ بأي دليل كان الإمام علي (ع) أليق وأحق من الجميع؟!.

* * *

الدرس الخامس

القرآن والإمامة

إن القرآن الكريم، كتابنا السماوي، أفضل من يحل لنا المسائل وخاصة مسألة الإمامة، وذلك من أبعاد مختلفة.

* * *

١ ـ القرآن الكريم يعتبر الإمامة متأتية من قبل الله تعالىٰ:

وكما قرأنا في الأبحاث السابقة قصة إبراهيم محطّم الأصنام عليه السلام، يعتبر القرآن إمامة إبراهيم قد جاءت بعد أن نال مقام النبوة والرسالة، وأدىٰ الامتحانات الصعبة الكبيرة، فتقول الآية ١٢٤ من سورة البقرة: ﴿ وإذ ابتلىٰ إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً ﴾.

إن القرائن القرآنية والتاريخية المختلفة تدل علىٰ أن هذا المقام قد حصل عليه خليل الرحمن (ع) بعد جهاده مع الوثنيين في باب، وهجرته إلىٰ الشام، وبناء الكعبة، وأخذه لابنه إلىٰ المذبح.

فإذا كانت النبوة والرسالة تُعيّن من قبل الله تعالىٰ، فإن مقام الإمامة والقيادة الشاملة للخلق، التي تعتبر ذروة تكامل القيادة، هي أَوْلَىٰ أن تُعيّن من قِبل الله تبارك وتعالىٰ، وهذه المسألة ليست من البساطة حتىٰ يتم تعيينها من قبل الناس.

ثم إن القرآن نفسه يعبّر عن ذلك في نفس المكان فيقول: ﴿ **إني جاعلك للناس إماماً** ﴾.

وكما يقول في سورة الأنبياء الآية ٧٣ عن مجموعة من الأنبياء هم إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب: ﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا** ﴾.

شبيه هذا التعبير يُلاحظ في آيات أخرىٰ ويدل علىٰ أن هذا المقام إلهي يعين من قبل الله عز وجل.

وعندما نتتبع الآية السابقة المتعلقة بإمامة إبراهيم (ع)، نراه يطلب عليه السلام أن يكون هذا المنصب لأولاده وأحفاده في المستقبل إلاّ أن الجواب الذي يسمعه هو ﴿ **لا ينال عهدي الظالمين** ﴾ إشارة إلىٰ أن دعاءك قد استجيب، ولكن الذين يرتكبون المظالم من أبنائك لن يصلوا إلىٰ هذا المقام أبداً.

ورغم إن كلمة (ظالم) لغوياً لها معانٍ كثيرة وواسعة، فإنها تشمل جميع الخطايا العلنية والخفية وأي ظلم علىٰ النفس أو الآخرين، مع أن علم ذلك بشكل تام لله وحده، لأن الله عز وجل هو الذي يعلم ما في باطن الناس وما يضمرون، ولهذا يتبين أن تعيين هذا المقام لا يتم إلاّ عن طريق الله وحده سبحانه وتعالىٰ.

* * *

٢ - آية التبليغ:

تقول الآية ٦٧ من سورة المائدة:

﴿ يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾.

لحن هذه الآية يدل علىٰ مهمة ثقيلة موضوعة علىٰ عاتق النبي (ص) تحيط بها اضطرابات من كل جانب، رسالة من الممكن أن تواجَه بمعارضة الناس، ولذا فإن الآية تأمر النبي (ص) بإبلاغها، وتطمئنه من كل خطر محتمل قد يتعرض له.

إن هذه لا تتعلق، بالتأكيد، بالتوحيد أو الشرك أو مواجهة الأعداء من اليهود والمنافقين وغيرهم، لأن تلك المسائل كانت قد حلت قبل نزول سورة المائدة.

كما إن إبلاغ الأحكام الإسلامية البسيطة لم تكن لها مثل هذا القلق والأهمية، لأنه طبقاً لظاهر الآية المذكورة فإنه كان حكماً بمقدار وعلىٰ مستوىٰ (الرسالة) فإن لم يبلّغ ذلك الحكم كأنه لم يبلّغ (الرسالة) نفسها.

أليست هذه مسألة الخلافة؟! خاصة وأن هذه الآية نزلت في أواخر حياة النبي (ص)، وتتناسب مع مسألة الخلافة، وهي استمرار لنبوة ورسالة النبي (ص).

إضافة إلىٰ هذه الروايات الكثيرة، فإن روايات كثيرة أخرىٰ قد نقلت عن صحابة النبي الأكرم (ص)، أمثال: زيد بن الأرقم، أبو سعيد الخدري، ابن عباس، جابر بن عبد الله الأنصاري، أبو هريرة، حذيفة وابن مسعود، حتىٰ أن بعض هذه الروايات وصلت عن أحد عشر طريقاً، ونقلها جمع كبير من علماء أهل السُّنة من مفسرين ومحدثين ومؤرخين، ذكروا أن الآية المذكورة نزلت في علي (ع) وكذلك قصة يوم غدير خم[1].

---

(١) راجع (إحقاق الحق) و (الغدير) و (المراجعات) و (دلائل الصدق).

سنذكر، إن شاء الله تعالىٰ، مسألة (الغدير) في (بحث الروايات والسُّنة)، ولكن يكفي أن نذكر أن هذه الآية دليل واضح أن النبي الأكرم (ص) كان مكلفاً، بعد عودته من آخر حج، أواخر عمره الشريف، أن يُعلن الإمام علياً (ع) خليفة له وأن يعرفَهُ لكافة المسلمين.

* * *

٣ ـ آية (طاعة أُولي الأمر):

تقول الآية ٥٩ من سورة النساء: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم** ﴾.

هنا نجد (طاعة أولي الأمر) دون قيد أو شرط إلىٰ جانب طاعة الله والنبي (ص).

فهل المقصود من (أولي الأمر) هم الحكام في كل زمان ومكان؟! وهل إن المسلمين في كل بلد، وكل عصر، مثل عصرنا الحالي مجبرون بالطاعة دون قيد وشرط لحكامهم؟! (كما يقول جمع من المفسرين من أهل السُّنة).

إن هذا الكلام لا ينسجم مع أي منطق، لأن أغلب الحكام خلال العصور المختلفة كانوا منحرفين وظالمين وتابعين. فهل المقصود من ذلك أن الحكام يجب أن يكون حكمهم غير مخالف لأحكام الإسلام؟ وهذا أيضاً لا ينسجم مع مطلق الآية.

وهل المقصود صحابة النبي (ص)؟ وهذا المفهوم لا ينطبق مع شمولية الآية لكل عصر وزمان.

وعليه فإننا نفهم بوضوح أن المقصود هو ذلك الإمام المعصوم الموجود في كل عصر وزمان الواجب الطاعة دون قيد أو شرط، وأمره

واجب التنفيذ كأوامر الله عز وجل والنبي الأكرم (ص).

هناك أحاديث كثيرة موجودة في المصادر الإسلامية، في هذا المجال، تدل علىٰ أن (أولي الأمر) ينطبق علىٰ الإمام علي (ع) والأئمة المعصومين.

* * *

٤ ـ آية (الولاية):

تقول الآية ٥٥ من سورة المائدة:

﴿ إنما وليكم اللَّهُ ورسولُه والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾.

إن القرآن الكريم، وبملاحظة كلمة (إنما) التي تعني الحصر، يرىٰ ولي المسلمين في ثلاثة أشخاص **﴿ الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾.**

لا شك أن المقصود من (الولاية) ليس صداقة المسلمين فيما بينهم، لأن الصداقة الجماعية لا تحتاج إلىٰ قيد وشرط لأن (المؤمنون أخوة) حتىٰ ولو لم (يؤتوا الزكاة وهم راكعون)، ولذا فإن (الولاية) هنا تعني الرئاسة والقيادة المادية والمعنوية، خاصة إذا كانت موازية (لولاية الله) و (ولاية النبي (ص)).

وواضح أن الآية المذكورة بالأوصاف الموجودة فيها تشير إلىٰ شخص معين يؤتي الزكاة وهو راكع، وإلاّ فإنه ليس من الضروري أن يؤتي الإنسان الزكاة أثناء الركوع في الصلاة، وهذه الحقيقة (علامة) وليس (وصفاً).

إن مجموع هذه القرائن تدل علىٰ أن الآية المذكورة تشير إلىٰ قصة الإمام علي (ع) المعروفة حيث كان في حالة الركوع فجاء سائل إلىٰ المسجد فلم يعطه أحد، فرفع السائل يده إلىٰ السماء وقال: اللهم اشهد

أني سألت في مسجد رسول الله فلم يعطني أحد شيئاً. وكان علي (ع) راكعاً فأومأ إليه بخنصره اليمنىٰ وكان يتختم فيها فأقبل السائل حتىٰ أخذ الخاتم من خنصره، وذلك بمرأىٰ النبي (ص)، فلما فرغ من صلاته رفع رأسه إلىٰ السماء وقال (ص):

ـ اللهم موسىٰ سألك فقال: ربِّ اشرح لي صدري ويَسِّر لي أمري وآحلُلْ عقدةً من لساني يفقهُوا قولي، وآجعَلْ لي وزيراً من أهلي هارونَ أخي، أشدُدْ به أَزْري، وأشرِكْهُ في أمري. فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً: سنشد عضدك بأخيك، ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا. اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك، اللهم واشرح لي صدري ويسر لي أمري، واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أشدد به ظهري.

فما استتم رسول الله (ص) الكلمة حتىٰ نزل عليه جبرائيل من عند الله فقال: يا محمد اقرأ. قال: وما أقرأ؟ قال: اقرأ: ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾[1].

الملفت للنظر أن أغلب المفسرين الكبار من أهل السنة، والمؤرخين والمحدثين نقلوا نزول هذه الآية بحق الإمام علي (ع)، كما أن مجموعة من صحابة النبي، يزيد عددهم علىٰ عشرة، نقلوا شخصياً هذا الحديث عن النبي الأكرم (ص).

الآيات القرآنية كثيرة حول (الولاية)، ولكننا نكتفي بالآيات الأربعة التي نقلناها.

* * *

(١) تفسير الميزان ـ تفسير سورة المائدة، ج ٦.

فكّر وأجب:

١ ـ بيد مَنْ، من الناحية القرآنية، نصب وتعيين الإمام؟

٢ ـ ما محتوىٰ آية التبليغ، وفي أية ظروف نزلت؟

٣ ـ علىٰ من تصدق الإطاعة بلا قيد وشرط؟

٤ ـ بأي دليل تشير الآية ﴿ **إنما وليكم الله...** ﴾ إلىٰ القيادة والإمامة؟

٥ ـ من مجموع الآيات القرآنية في مجال الولاية، أية مسائل يمكن الاستفادة منها؟.

* * *

الدرس السادس

الإمامة
في سنة النبي (ص)

عند مطالعة كتب الأحاديث، خاصة مصادر أهل السُّنة، فإن الإنسان يصادف مجموعة ضخمة من أحاديث النبي الأكرم (ص) تثبت بوضوح مقام إمامة وخلافة الإمام علي (ع).

إن الإنسان ليأخذه العجب، أنه رغم كل هذه الأحاديث لا يبقىٰ مجال للشك والتردد في هذه المسألة، فكيف إذن يمكن أن تنتخب مجموعة طريقاً غير طريق أهل البيت (ع)؟!.

إن بعض هذه الأحاديث لها المئات من الأسانيد كحديث الغدير، ولبعضها الآخر العشرات، ومنقولة في عشرات الكتب الإسلامية المعروفة، وهي واضحة لدرجة أننا لو أغفلنا كل هذه الأحاديث وتركنا التقاليد جانباً فإن المسألة تبقىٰ واضحة بحيث لا تحتاج إلىٰ دليل.

وكنموذج سنذكر هنا عدداً من الأحاديث المعروفة من بين تلك الأحاديث، ومن أراد المزيد في هذا المجال سنذكر بعض المصادر

للرجوع إليها[1].

* * *

١ ـ حديث الغدير:

يذكر الكثير من المؤرخين أنه بعد أن أدىٰ النبي الأكرم (ص) آخر حج له في السنة الأخيرة من عمره الشريف رافقه عدد كبير من أصحابه القدماء والجدد والمؤمنين الذين اجتمعوا لأداء تلك المراسم حتىٰ وصلوا في طريق عودتهم إلىٰ (الجحفة) بين مكة والمدينة، ثم وصلوا إلىٰ الصحراء الجافة القاحلة (غدير خم)، وهذه المنطقة في الحقيقة ما هي إلّا تقاطع طرق.

وقبل أن يتفرق الحجاج إلىٰ النقط المختلفة من الحجاز أمر الرسول الأكرم (ص) بالتوقف ثم دُعي من كان في مقدمة القافلة إلىٰ العودة، كما وصل من تخلف عنها. كان المناخ حاراً جداً، ولا يوجد ظل علىٰ امتداد الصحراء، وأدىٰ المسلمون صلاة الظهر بإمامة النبي الأكرم (ص)، وعندما عزموا علىٰ العودة إلىٰ خيامهم، أخبرهم النبي (ص) أن يجتمعوا للاستماع إلىٰ بلاغ إلهي مهم ضمن خطبة مفصلة، ثم صعد النبي (ص) علىٰ أقتاب الإبل فحمد الله وأثنىٰ عليه وقال:

ـ أيها الناس إنما أنا بشرٌ مثلكم يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وإني مسؤول وإنكم مسؤولون فما أنتم قائلون؟.

فأجابوا: نشهد أنك قد بَلّغت وجهدت ونصحت فجزاك الله خيراً.

فقال رسول الله (ص): أليس تشهدون أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن جنته حق، وناره حق، وأن الموت حق، وأن البعث حق بعد الموت، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في

---

(١) أمثال: (المراجعات) و (الغدير).. الخ..

القبور؟.

فقالوا: بلىٰ نشهد علىٰ ذلك..
فقال (ص): اللهم فاشهد..
ثم قال (ص): أيها الناس، هل تسمعون صوتي؟
فقالوا: نعم.

فقال: إني تارك فيكم الثقلين؛ كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض، ما إن تمسكتم بها لن تضلوا.

ثم أخذ النبي (ص) ينظر حواليه كمن يبحث عن شخص ثم أبصر علياً (ع) فانحنىٰ وأمسك بيده ورفعها حتىٰ بان بياض ابطيهما، وهنا ارتفع صوت النبي (ص) قائلاً:

- أيها الناس، من أولىٰ الناس بالمؤمنين من أنفسِهم؟
قالوا: الله ونبيه أعلم.
فقال (ص): ألست أولىٰ بكم من أنفسكم؟
قالها ثلاث مرات، وأجابوه: نعم.

فقال (ص): من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من بغضه، وانصر من نصره، وأعن من أعانه، واخذل من خذله، وأدِر الحق معه حيث دار.

ثم قال: فليخبر الحاضر الغائب.
ولم تكن الجماهير قد تفرقت حتىٰ نزل جبرائيل، أمين الوحي، وقرأ هذه الآية علىٰ النبي (ص).

- ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي... ﴾.
ثم قال الرسول الأعظم (ص):

- الله أكبر، الله أكبر علىٰ إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضىٰ الرب برسالتي والولاية لعلي من بعدي.

فحدثت ضجة بين الجموع، وباركوا لعلي (ع) هذا المقام وبينهم أبو بكر وعمر فقالا:

ـ بخ بخ لك يا بن أبي طالب، أصبحت وأمسيت مولاي ومولىٰ كل مؤمن ومؤمنة.

* * *

ذكر الحديث أعلاه الكثير من علماء الإسلام في كتبهم بعباراتٍ مختلفة مختصرة أحياناً ومفصلة أحياناً أخرىٰ. وهذا الحديث من الأحاديث المتواترة، لا يشك أحد في صدورها من النبي الأكرم (ص)، لدرجة أن الكاتب المحقق العلّامة الأميني ذكر هذا الحديث، في موسوعته المعروفة (الغدير)، هذا الحديث نقلاً عن مائة وعشرة من صحابة النبي (ص)، وثلاثمائة وستين من العلماء والكتّاب الإسلاميين المعروفين، كما أنه وَرَدَ في أغلب كتب التفسير والتاريخ والحديث للأخوة أهل السُّنة، حتىٰ مجموعة كبيرة من العلماء المسلمين أفردوا كتباً مستقلة لهذا الحديث، منهم المرحوم العلّامة الأميني في كتابه المستقل الفريد والذي لا نظير له، فقد ذكر في كتابه اسم ستة وعشرين من علماء الإسلام أفردوا كتباً خاصة لهذا الحديث.

* * *

تردد جماعة من الذين لم يستطيعوا إنكار سند الحديث في دلالة الحديث علىٰ الإمامة والخلافة، ففسروا كلمة (مولىٰ) بمعنىٰ (صديق)، بينما الدقة في الحديث والظروف الزمنية والمكانية والقرائن الأخرىٰ تؤكد بوضوح أن الهدف لا يخرج عن مسألة الإمامة والولاية، بمعنىٰ القيادة الشاملة:

أ ـ إن آية التبليغ التي أوردناها في البحث السابق، والتي نزلت قبل هذه الحادثة، بلغتها القاطعة والقرائن التي فيها، تدل بوضوح إن الحديث

لم يكن عن الصداقة العادية، لأنها غير مهمة ولا تحتاج إلىٰ كل هذه الأهمية والتأكيد، كما أن آية (إكمال الدين) التي نزلت بعدها تدل علىٰ أن مسألة مهمة جداً هي مسألة قيادة وخلافة النبي (ص) مطروحة الآن.

ب ـ والدليل الآخر علىٰ قولنا هو أسلوب الحديث مع تلك المقدمة المفصلة في تلك الصحراء الملتهبة، والخطبة الغرّاء، وأخذ إقرار من الناس في تلك الظروف الحساسة، زمنياً ومكانياً.

ج ـ عبارات التبريك التي قيلت لعلي (ع) من قبل المجاميع ومختلف الأشخاص، وكذلك الأشعار التي نظمها الشعراء في ذلك اليوم، وبعد ذلك اليوم، كلها تدل علىٰ هذه الحقيقة، وهي أن الحديث كان علىٰ تعيين الإمام علي (ع) في مقام الإمامة والولاية السامية، لا شيء آخر.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ اشرح قصة الغدير.

٢ ـ حديث الغدير، في كم سند وَرَدَ عن النبي (ص)، وكم عدد الكتب التي نقلته؟

٣ ـ لماذا تدل كلمة (مولىٰ) في حديث الغدير علىٰ القيادة والإمامة، وليس (الصداقة)؟

٤ ـ أي دعاء دعا به النبي (ص) في حقِّ عليّ (ع) بعد حادثة الغدير؟

٥ ـ أين تقع (الغدير) و (الجحفة)؟.

* * *

الدرس السابع

حديث (المنزلة)
وحديث (يوم الدار)

نقل الكثير من المفسرين الكبار من الشيعة وأهل السنة حديث (المنزلة) في ذيل الآية (١٤٢) من سورة الأعراف التي تتحدث عن ذهاب موسىٰ لموعد له مع الله تبارك وتعالىٰ لمدة أربعين ليلة، وخلافة هارون له في قومه.

والحديث هو: تحرك النبي (ص) نحو تبوك (وتقع في شمال جزيرة العرب) حيث كان أمبراطور الروم الشرقية قد أعد جيشاً عظيماً ليغزو الحجاز ومكة والمدينة قبل أن تصدر الثورة الإسلامية برامجها الإنسانية الخاصة والمتحررة إلىٰ مناطقهم والقضاء عليها في مهدها.

عزم النبي (ص) علىٰ التوجه إلىٰ تبوك مع جيش عظيم، وخلف علياً مكانه علىٰ المدينة. فقال علي (ع): أتتركني مع الأطفال والنساء؟ ولا تسمح لي بالذهاب معك إلىٰ ميدان الجهاد وفيه الفخر الكبير؟.

فقال النبي (ص): ألا ترضىٰ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسىٰ

إلاّ أنه لا نبي بعدي؟!.

هذه العبارة موجودة في أشهر كتب الحديث لدىٰ أهل السُّنة، يعني صحيح البخاري وصحيح مسلم، مع اختلاف أنه ورد كاملاً في صحيح البخاري، وفي صحيح مسلم ورد مرةً كاملاً، ومرة بهذه العبارة (أنت مني بمنزلة هارون من موسىٰ إلاّ أنه لا نبي بعدي) كعبارة عامة.

في الكثير من كتب أهل السُنّة، ومنها (سنن ابن ماجة) و (سنن الترمذي) و (مسند أحمد)، وكتب كثيرة أخرىٰ، نُقل الحديث، وأما رواة الحديث من الصحابة فيزيدون عن العشرين، منهم: جابر بن عبد الله الأنصاري، وأبو سعيد الخدري، وعبد الله بن مسعود، ومعاوية.

وينقل أبو بكر البغدادي في (تاريخ بغداد) ج ٧ ص ٤٥٢ نقلاً عن عمر بن الخطاب: أنه رأىٰ شخصاً يسيء بالقول إلىٰ علي (ع)، فقال له عمر: إنني أعتقد أنك من المنافقين لأنني سمعت رسول الله يقول: إنما علي مني بمنزلة هارون من موسىٰ إلاّ أنه لا نبي بعدي.

* * *

ويستفاد من مصادر الحديث أن النبي الأكرم (ص) لم يقل تلك العبارة في قصة غزوة تبوك، بل ذكره في سبعة مواضع، مما يدل علىٰ عمومية مفهوم العبارة.

١ ـ في يوم المؤاخاة الأول بمكة.. أي في اليوم الذي عقد الأخوّة بين أصحابه في مكة وانتخب هو الإمام علياً (ع) أخاً له، فقال (ص) تلك العبارة.

وفي يوم المؤاخاة الثانية.. عندما عقد الأخوة بين الأنصار والمهاجرين كرر النبي (ص) حديث (المنزلة) مرة أخرىٰ. وفي ذلك اليوم أمر الرسول (ص) أن تغلق الأبواب التي تفتح علىٰ مسجد رسول الله الكبير، ويبقىٰ باب بيت علي (ع) مفتوحاً فقط، وكرر تلك العبارة.

وكذلك في غزوة تبوك وثلاثة مواضع أخرىٰ، وهي مذكورة بالسند في كتب أهل السُّنة، بحيث لا يبقىٰ أي مجال للشك أو الترديد في عمومية مفهوم حديث (المنزلة).

* * *

محتوىٰ حديث المنزلة:

إذا نظرنا إلىٰ الحديث، مجردين من أي غرض، وإصدار الأحكام سابقاً، فإننا نجد أن جميع المناصب التي كان يتمتع بها هارون تبعاً لمكانة موسىٰ بين قومه بني إسرائيل، ما عدا النبوة، كان يتمتع بها الإمام علي (ع) لأننا لا نجد قيداً أو شرطاً في الحديث.

ولهذا نستنتج ما يلي:

١ ـ إن الإمام علياً (ع) كان أفضل الأمة بعد النبي (ص) (لأن هارون كان يتمتع بهذه المكانة).

كان علي (ع) وزير النبي (ص) ومعاونه الخاص وشريك برنامجه في القيادة، لأن القرآن الكريم أثبت هذه المناصب لهارون. (سورة طه الآيات ٢٩ إلىٰ ٣٢).

٣ ـ كان علي (ع) خليفة النبي (ص)، ومع وجوده لم يكن شخص آخر يتمكن أن يتصدىٰ لهذه المكانة، كما كانت هذه المكانة لهارون من موسىٰ (ع).

* * *

حديث الدار:

بناءً علىٰ ما جاء في التواريخ الإسلامية، أُمر النبي الأكرم (ص) في

السنة الثالثة من بعثته بالإعلان عن الدعوة التي كانت حتىٰ ذلك الوقت سرية، كما جاء في الآية ٢١٤ من سورة الشعراء ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين..** ﴾ فدعىٰ النبي (ص) عشيرته الأقربين إلىٰ بيت عمه أبي طالب، وبعد تناول الطعام قال لهم:

ـ يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالىٰ أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني علىٰ هذا الأمر علىٰ أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟.

فسكت الجميع، فقام علي (ع) وقال: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه.

فقال رسول الله (ص): إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوه[1].

ولكن ذلك الرهط الضال لم يرض بما قاله الرسول (ص) وإنما سخروا منه.

إن هذا الحديث المعروف باسم (حديث الدار) واضح بما فيه الكفاية، ومن حيث قوة السند فإن الكثيرين من العلماء المسلمين من أهل السُّنة قد نقلوه مثل: ابن أبي جرير، ابن أبي حاتم، ابن مردويه، أبو نعيم، البيهقي، الثعلبي، الطبري، ابن الأثير، أبو الفداء، وآخرون.

ونحن إذا نظرنا إلىٰ الحديث المذكور، مجردين من أي غرض، فإن مسألة ولاية وخلافة الإمام علي (ع) تتضح لنا أكثر فأكثر، لأن مسألة الولاية والخلافة مذكورة فيه بصراحة.

* * *

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٦٣ (المترجم).

فكّر وأجب:

١ ـ ما هو حديث (المَنْزلة)؟ وعن كم مصدرٍ جاء؟
٢ ـ أية مكانة يثبت حديث المنزلة للإمام علي (ع)؟
٣ ـ ما هي مكانة هارون من موسىٰ، طبقاً للنصوص القرآنية؟
٤ ـ من هم العلماء الذين نقلوا حديث (المنزلة)؟
٥ ـ اشرح حديث الدار ومحتواه وسنده ونتيجته.

* * *

الدرس الثامن

حديث الثقلين
وسفينة نوح (ع)

سند حديث الثقلين:

إن أحد الأحاديث المعروفة والمشهورة بين علماء السُّنة والشيعة هو (حديث الثقلين). نقل هذا الحديث مجموعة كبيرة من الصحابة دون واسطة عن النبي (ص)، وبعض العلماء الكبار يعدّون رواة الحديث بأكثر من ثلاثين من الصحابة. كما ذكر الحديث عدد كبير جداً من المفسرين والمحدثين والمؤرخين في كتبهم، ولذا لا يمكن أن يتردد أحد أو يشك في تواتر هذا الحديث.

ونقل العالِم الكبير السيد هاشم البحراني هذا الحديث في كتابه (غاية المرام) عن ٣٩ سنداً من علماء أهل السُّنة و٨٠ سنداً من علماء الشيعة.

وقام العالم المحقّق مير حامد حسين الهندي، بتتبعٍ أكثر في هذا المجال فنقل الحديث عن حوالي مئتين من علماء أهل السُّنة، وجاء تحقيقه في هذا المجال في ستة مجلدات كبيرة.

ومن جملة المشهورين الذين نقلوا الحديث: أبو سعيد الخدري، أبو ذر الغفاري، زيد بن الأرقم، زيد بن ثابت، أبو رافع، جبير بن المطعم، حذيفة، ضمرة الأسلمي، جابر بن عبد الله الأنصاري، وأم سلمة.

أصل الحديث كما قال أبو ذر الغفاري هو: عندما كان ماسكاً بباب الكعبة التفت إلىٰ الناس، وسمعت رسول الله يقول: (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي وإنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض!)[1].

هذه الرواية موجودة في أهم كتب أهل السُّنة اعتباراً؛ مثل (صحيح الترمذي) و (النسائي) و (مسند أحمد) و (كنز العمال) و (مستدرك الحاكم).

ووردت في بعض الروايات كلمة (الخليفتين) بدلاً من كلمة (الثقلين)، ومن حيث المفهوم ليس هناك اختلاف كبير.

والطريف أنه يستفاد من الأحاديث الإسلامية المختلفة أن هذا الحديث ورد عن النبي الأكرم في أماكن مختلفة.

مثلاً، في حديث جابر بن عبد الله الأنصاري أنه (ص) قاله في مراسم الحج، يوم عرفة. بينما يذكر (عبد الله بن حنطب) أنه ورد في (الجحفة) ـ بين مكة والمدينة ـ، وتقول (أم سلمة) أنه (ص) قاله في غدير خم. وتذكر بعض الأحاديث أنه قاله (ص) في أيامه الأخيرة من عمره المبارك علىٰ فراش المرض. ويقول صاحب المراجعات أنه قال (ص) من علىٰ المنبر في المدينة. وينقل صاحب (الصواعق المحرقة) ـ ابن حجر: إن النبي بعد أن قال ذلك الحديث رفع يد الإمام علي (ع) وقال: هذا علي مع القرآن والقرآن مع علي ولا يفترقان حتىٰ يردا علي الحوض.

---

(١) الأصل المذكور في الكتاب هو (عترتي) فقط بينما المشهور هو (عترتي أهل بيتي). (المترجم).

وهكذا يتضح أن النبي الأكرم (ص) قد أكد مراراً هذا المبدأ الأساس وذلك في مناسبات عديدة لبيان هذه الحقيقة، ولكي لا ينسىٰ الناس ذلك.

* * *

محتوىٰ حديث الثقلين:

هنا عدة نقط يجدر ملاحظتها:

١ ـ تعريف (القرآن) و (العترة) باعتبارهما (خليفتين) أو (شيئين ثمينين) لدليل واضح علىٰ أن المسلمين يجب أن يتمسكوا بهما، خاصةً مع هذا الشرط الذي ورد في روايات كثيرة (ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي)، مما يعطي صورة أكثر تأكيداً.

٢ ـ موازاة (القرآن) بـ (العترة)، و (العترة) بـ (القرآن)، لدليل علىٰ أنه طالما أن القرآن لن ينحرف وأنه مصانٌ من كل خطأ ومحفوظ، كذلك العترة، أهل بيت النبي (ص)، لهم العصمة.

٣ ـ ورد صراحةً في بعض الروايات أن النبي سيحاسب الناس يوم القيامة علىٰ موقفهم من (الثقلين).

٤ ـ لا شك أننا مهما أردنا تفسير (العترة وأهل البيت) فإن الإمام علياً (ع) يكون المصداق البارز لهما، وطبقاً لروايات عديدة فإن الإمام علياً (ع) لم ينفصل أو يفترق عن القرآن أبداً، ولم يفترق القرآنُ عنه.

وإضافة إلىٰ ذلك نقرأ في روايات عديدة أنه لدىٰ نزول آية (المباهلة) نادىٰ النبي الأكرم (ص) علياً وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) وقال: هؤلاء أهل بيتي[1].

---

(١) مشكوة المصابيح ص ٥٦٨ طبعة دلهي.

٥ ـ رغم أن المسائل المتعلقة بيوم القيامة بالنسبة لنا نحن المحصورين في إطار هذا العالم، غير واضحة تماماً، إلاّ أنه يتضح لنا من الروايات أن المقصود بـ (الحوض) هو نهر خاص في الجنة له امتيازات كثيرة، وهو خاص بالمؤمنين الصالحين والنبي (ص) وأهل بيته (ع) وأتباع الإسلام.

من مجموع ما ذكرنا يتضح لنا أن مرجع الأمة وقائد المسلمين بعد النبي الأكرم (ص) هو الإمام علي (ع) ومن بعده الأئمة من أهل البيت.

* * *

حديث سفينة نوح:

من العبارات الجذّابة المنقولة عن النبي الأكرم (ص) في كتب أهل السُّنة والشيعة هو الحديث المعروف باسم (سفينة نوح). يقول أبو ذر الغفاري: قال رسول الله (ص): (ألا إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح، من ركبها نجىٰ ومن تخلّف عنها غرق).

هذا الحديث من الأحاديث المشهورة، ويؤكد أن يتبع المسلمون الإمام علياً (ع) وأهل بيت النبي (ص) بعد وفاته.

مع ملاحظة أن (سفينة نوح) كانت الملجأ الوحيد والوسيلة الوحيدة للنجاة عند مجيء الطوفان العظيم الذي شمل العالم، تتضح لنا حقيقة أن الأمة الإسلامية وبعد وفاة النبي الأكرم (ص) وعند هبوب العواصف والطوفان علىٰ المسلمين أن يتمسكوا بولاية أهل بيت النبي (ص).

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ ما هو محتوىٰ حديث الثقلين؟ وأي امتياز فيه لأهل البيت (ع)؟
٢ ـ من نقل حديث الثقلين؟
٣ ـ ما معنىٰ (الثقلين) وهل ورد تعبير آخر بدلاً منه في الأحاديث؟
٤ ـ في أية مواقف ذكر الرسول الأكرم (ص) (حديث الثقلين)؟
٥ ـ اشرح حديث (سفينة نوح) من حيث المحتوىٰ والسند.

* * *

الدرس التاسع

الأئمة الإثنا عشر

روايات الأئمة الإثني عشر:

بعد إثبات إمامة وخلافة الإمام علي (ع) المؤكدة يأتي الحديث عن بقية الأئمة. نقول باختصار:

أولاً: توجد بين أيدينا اليوم روايات عديدة في كتب أهل السُنة والشيعة تتحدث بشكل عام عن خلافة الخلفاء الإثني عشر بعد النبي (ص). وقد جاءت هذه الأحاديث في الكثير من المصادر المعروفة لأهل السُنة مثل صحيح البخاري، وصحيح الترمذي، وصحيح مسلم، وصحيح أبي داود، ومسند أحمد، وأمثال هذه الكتب. وقد جاء في كتاب (منتخب الأثر) مئتان وسبعون حديثاً في هذا المجال، أغلبها من كتب علماء أهل السنة والبقية من المصادر الشيعية. وكمثال نقرأ في (صحيح البخاري) وهو أهم كتب أهل السُنة في الحديث:

ـ «قال جابر بن سمرة: سمعت رسول الله (ص) يقول: يكون إثنا عشر أميراً، فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي إنه قال: كلهم

من قريش»[1] .

وجاء هذا الحديث في صحيح مسلم هكذا: «يقول جابر: سمعت رسول الله يقول: لا يزال الإسلام عزيزاً إلىٰ إثني عشر خليفة، ثم قال كلمة لم أفهمها، فقلت لأبي ما قال؟ فقال كلهم من قريش»[2] .

وجاء في كتاب (مسند أحمد) نقلاً عن عبد الله بن مسعود الصحابي المعروف، أن رسول الله (ص) سئل عن خلفائه فقال: «إثنا عشر كعدة نقباء بني إسرائيل»[3] .

* * *

محتوىٰ هذه الأحاديث:

ربطت هذه الأحاديث، في بعضها، (عزة الإسلام) بهؤلاء الخلفاء الإثني عشر، وفي بعضها الآخر، بقاء وحياة الدين، وأنهم جميعاً من قريش، وفي بعض هذه الأحاديث أنهم من (بني هاشم)، وهذا الشيء لا ينطبق علىٰ مذهب من المذاهب غير المذهب الشيعي، لأنه ينطبق تماماً مع عقيدة الشيعة، بينما علماء أهل السُّنة أصبحوا في الطريق المسدود عندما أرادوا تفسير ذلك.

فهل المقصود الخلفاء الراشدون وخلفاء بني أمية وبني العباس؟.

بينما نحن نعلم أن الخلفاء الأوائل لم يكن عددهم إثني عشر، ولا بني أمية، ولا بني العباس والعدد (إثنا عشر) لا ينطبق مع أي من هؤلاء.

ثم إنه يوجد بين خلفاء بني أمية مثل (يزيد)، وبين بني العباس مثل

---

(١) صحيح البخاري ج ٩ ص ١٠٠.
(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الإمارة.
(٣) مسند أحمد ـ ج ١ ص ٣٩٨.

(المنصور الدوانيقي) و (هارون الرشيد) لا يشك أحدٌ في ظلمهم واستكبارهم، ولا يمكن أن يكونوا خلفاء للنبي (ص) وفخراً للإسلام، ولا يمكن مقارنتهم بأيِّ معيار.

ثم إننا لا نجد العدد (١٢) في أي أمر، غير الأئمة الإثني عشر للشيعة.

والآن لنترك الموضوع إلىٰ أحد علماء السُّنة المعروفين ألا وهو (سليمان بن إبراهيم القندوزي) صاحب كتاب (ينابيع المودة) حيث يقول:

«قال بعض المحققين: إن الأحاديث التي تدل علىٰ أن الخلفاء بعد رسول الله (ص) إثنا عشر، فهي مشهورة، ونُقلت عن طرق مختلفة، والشيء الذي يمكن استنباطه مع مرور الزمن أن رسول الله (ص) كان يريد، من حديثه، عترته الإثني عشر من أهل بيته، لأنه لا يمكن حساب الإثني عشر علىٰ الخلفاء الأوائل، لأنهم لا يزيدون عن أربعة، ولا علىٰ بني أمية لأنهم أكثر من اثني عشر وكلهم ظلمة ما عدا عمر بن عبد العزيز، كما لم يكونوا من بني العباس، والنبي (ص) قال إنهم جميعاً من بني هاشم، كما نقل (عبد الملك بن عمر) عن (جابر بن سمرة)، والدليل علىٰ ذلك ما قاله النبي (ص) بصوت منخفض عندما سُئل من أية طائفة هم، لأن جمعاً من الناس لم يكونوا سليمي الطوية من خلافة بني هاشم، ثم إن الحديث لا ينطبق علىٰ خلفاء بني العباس، لأن عددهم يزيد عن إثني عشر، ومن جهةٍ أخرىٰ إنهم لا يعملون بآية (المودة): ﴿ **قل لا أسئلكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربىٰ** ﴾ (الشورىٰ: ٢٣). كما أنهم تجاهلوا حديث الكساء!! وعليه فإن الحديث ينطبق فقط علىٰ الأئمة الإثني عشر من أهل البيت، عترة النبي الأكرم (ص)، لأنهم من حيث العلم والمعرفة أعلم الجميع، ومن حيث الزهد والتقوىٰ أزهد الجميع، ومن حيث الحسب والنسب أعلىٰ من الجميع، فهم قد ورثوا العلم من جدهم رسول الله (ص). والشيء الذي يؤيد ذلك حديث الثقلين وأحاديث كثيرة أخرىٰ منقولة عن

النبي (ص)»[1].

والطريف أنه خلال زيارة لي لمكة المكرمة التقيت بعلماءٍ من الحجاز سمعت تفسيراً لهم لهذا الحديث مما يدل أنهم قد وصلوا إلىٰ طريق مسدود فهم يقولون: (ربما القصد من الخلفاء الإثني عشر هم الخلفاء الأربعة الأوائل في صدر الإسلام والبقية سيأتون في المستقبل ولم يظهروا لحدِ الآن!!! وهكذا فإن هؤلاء قد تجاهلوا ترتيب الارتباط المتواصل لهؤلاء الخلفاء في حديث النبي (ص) الواضح.

ولكننا نقول لماذا نترك التفسير الواضح الذي ينطبق مع الأئمة الإثني عشر لدىٰ الشيعة، ونلقي بأنفسنا في الأودية والطرق المغلقة؟!.

* * *

تعيين الأئمة بالاسم:

الشيء الذي يلفت النظر، أنه قد ورد في الروايات عن طرق أهل السُنّة عن النبي (ص) أسماء الأئمة الإثني عشر بصراحة ومشخصاتهم!.

ينقل الشيخ سليمان القندوزي، عالِم أهل السُنّة المعروف في كتاب (ينابيع المودة):

«حضر رجل يهودي يدعىٰ (نعثل) بين يدي رسول الله (ص)، وضمن أسئلته سأل عنْ أوصياء النبي (ص) وخلفائه، فعرّفهم الرسول (ص) كما يلي: إن وصيي علي بن أبي طالب وبعده سبطاي الحسن والحسين تلوه تسعة أئمة من صلب الحسين.

قال: يا محمد فسمّهم لي.

قال (ص): إذا مضىٰ الحسين فابنه علي، فإذا مضىٰ علي فابنه

(١) ينابيع المودة ص ٤٤٦.

محمد، فإذا مضىٰ محمد فابنه جعفر، فإذا مضىٰ جعفر فابنه موسىٰ، فإذا مضىٰ موسىٰ فابنه علي، فإذا مضىٰ علي فابنه محمد، فإذا مضىٰ محمد فابنه علي، فإذا مضىٰ علي فابنه الحسن، فإذا مضىٰ الحسن فابنه الحجة محمد المهدي (ع) فهؤلاء إثنا عشر»[1].

وفي نفس الكتاب نقلاً عن (كتاب المناقب) يوجد حديث آخر عن الأئمة الإثني عشر، اسماً ولقباً، وعن الإمام المهدي (ع) توجد إشارة بغيبته ثم ظهوره، وملىء الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً[2].

طبعاً الأحاديث في هذا المجال كثيرة وخاصةً لدىٰ الشيعة إذ تزيد عن حد التواتر.

* * *

من مات ولم يعرف إمام زمانه...

جاء في أحد كتب أهل السُّنة عن النبي (ص):

«من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية»[3]. هذا الحديث ورد في المصادر الشيعية بهذه الصورة: «من مات ولم يعرف إمامه مات ميتة جاهلية»[4]. هذا الحديث يدل بوضوح علىٰ وجود إمام معصوم في كل زمان ومكان يجب معرفته، وعدم معرفته يضر بالإنسان لدرجة يَعود به إلىٰ عهود الكفر والجاهلية. هل المقصود بالإمام في هذا الحديث هم أولئك الذين يرأسون الحكومات أمثال جنكيز وهارون والحكام من أتباعهم؟! لا شك أن الجواب سيكون بالنفي، لأن الحكام في الغالب من الظالمين

---

(١) ينابيع المودة ص ٤٤١.
(٢) ينابيع المودة ص ٤٤٢.
(٣) المعجم المفهرس لألفاظ الأحاديث النبوية. ج ٦ ص ٣٠٢.
(٤) بحار الأنوار ج ٦ (طبعة قديمة) ص ١٦.

المستبدين المرتبطين بالشرق والغرب وعملاء السياسات الأجنبية، ولا شك أن الاعتراف بهؤلاء وقبول (إمامتهم) يوصل الإنسان إلىٰ دار البوار وجهنم. إذن يتضح أنه لكل عصر وزمان إمام معصوم لا بد من العثور عليه وقبول قيادته. طبعاً تتحقق إمامةُ الأئمة إضافة للطريقة السابقة عن طريق النصوص والروايات المروية عن الإمام السابق للإمام اللاحق وعن طريق إعجازهم.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ روايات الأئمة الإثني عشر جاءت في أية كتب؟

٢ ـ ما هي محتويات هذه الأحاديث؟

٣ ـ ما هي التفاسير اللا مناسبة لهذه الأحاديث؟

٤ ـ هل وردت أسماء الأئمة الإثني عشر في كتب أهل السُّنة؟

٥ ـ ما هي الطريقة الأخرىٰ لإثبات الأئمة الإثني عشر؟.

* * *

الدرس العاشر

المهدي
الإمام الثاني عشر
والمصلح الكبير للعالم

نهاية الليل المظلم:

إذا ألقينا نظرة علىٰ وضع العالم اليوم، ورأينا تصاعد الجرائم والمذابح والحروب وسفك الدماء والاشتباكات والاختلافات الدولية، والانتشار المتزايد للمفاسد الأخلاقية، نسأل أنفسنا: هل سيستمر الوضع هكذا؟! وهل سينتشر نطاق الجرائم والمفاسد حتىٰ يتعرض المجتمع البشري لنوع من الحرب الدائمة، وينقرض؟! وهل ستطبق الانحرافات العقائدية والمفاسد الأخلاقية كالمستنقع المتعفن علىٰ المجتمع وتبتلعه؟! أم أن هناك أملاً في النجاة والإصلاح؟!

هناك جوابان علىٰ هذا السؤال المهم:

الجواب الأول: يطرح من قِبَل المتشائمين والماديين، أن مستقبل العالم مظلم وفي كل زمن يُتوقَّعُ أي احتمال للخطر. أما أولئك الذين

يعتقدون بمباني الأديان السماوية، خاصة المسلمين، والشيعة منهم بالأخص، يُعطون جواباً آخر ويقولون: (إن لهذا الليل المظلم صبح أملٍ يعقبه، وستزول هذه السحب الداكنة، وهذا الطوفان المميت، وهذه العاصفة المدمِّرة، وتصبح السماء مشرقة والشمس تلمع في السماء والهدوء يشمل كل شيء، وسوف لن تكون أمامنا هذه المستنقعات المخيفة، وتلوح في الأفق، القريب وليس البعيد، خطوط ساحل النجاة. إن العالم في انتظار مصلح كبير، سيغير العالم بانقلاب واحد لصالح الحق والعدالة.

طبعاً أتباع كل دين يسمون هذا المصلح الكبير باسم، ولكن الشاعر العربي يقول: عباراتنا شتىٰ وحسنُك واحدٌ وكلٌ إلىٰ ذاك الجمالِ يُشيرُ.

* * *

الفطرة وظهور المصلح الكبير:

إن الإلهامات الباطنية التي تكون أمواجها أحياناً أقوىٰ من وجهات النظر الفكرية، ليس فقط في مسألة معرفة الله تعالىٰ، وإنما في كافة العقائد الدينية، تستطيع أن تكون لنا بمثابة الدليل، وهي في هذه المسألة لكذلك. والأدلة علىٰ ذلك:

١ ـ المحبة العامة للعدالة العالمية، لأن جميع الناس في العالم مع كل ما لديهم من اختلافات، ودون استثناء، يعشقون السلام والعدالة، ونحن نصرخ ونسعىٰ ونطلب السلام العالمي بكل وجودنا. ولا يوجد دليل أفضل لفطرة ظهور ذلك المصلح الكبير، لأن إجماع الرأي هو دليل علىٰ فطرة ذلك (فكّروا في ذلك جيداً).

وكل عشق أصيل وفطري دليل علىٰ وجود المعشوق خارجه وعلىٰ جاذبيته. فكيف يمكن لله تبارك وتعالىٰ الذي خلق هذا التعطش في روح الإنسان دون أن يروي هذا العطش؟

ولهذا نقول إن فطرة العدالة في الإنسان تنادي بوضوح إن السلام والعدل سيشمل أخيراً العالم، وسيزول الظلم والاستبداد لتعيش البشرية كدولة واحدة وتحت علم واحد بتفاهم وطهارة.

٢ ـ انتظار جميع الأديان والمذاهب لظهور مصلح عالمي كبير، ويوجد فصل مهم في جميع الأديان في هذا المجال، ولا توجد مسألة الإيمان بظهور مصلح كبير لإصلاح أمور الإنسان بين المسلمين فقط، بل هناك وثائق تدل علىٰ أن ذلك كان موجوداً منذ القديم كعقيدة عامة، بين جميع الأقوام والشعوب بمذاهبهم في الشرق والغرب، وبما أن الإسلام يعتبر ديناً وأكمل الأديان لذا فهو يؤكد أكثر هذه المسألة.

* * *

جاء في كتاب (زند) وهو أحد الكتب المعروفة للزردشتيين، بعد الصراع الدائم بين الآلة والشياطين: «وأخيراً يصبح النصر من نصيب الآلة، وينقرضُ الشياطين... وينال الكون السعادة الأساسية، ويجلس الإنسان علىٰ عرش السعادة!!».

ومن كتاب (جاما سب نامه) لزردشت ينقل ما يلي:

ـ «ويخرج رجل من أرض العرب.. رجل برأس عظيم، وجسم كبير، وساق كبيرة، وبواسطة دين جده وبجيش جرّار.. يملأ الأرض عدلاً..».

وجاء في كتاب (وشن جوك) من كتب الهنود:

ـ «وأخيراً ستعود الدنيا إلىٰ شخص يحب الله، ومن عبادِه الخاصّين..».

ونقرأ في كتاب (باسك) من كتب الهنود:

ـ «عندما تنتهي الدنيا يأتي ملك عادل في آخر الزمان، ويكون إماماً للملائكة والجن والبشر، ويكون الحق معه، ويحصل علىٰ كل ما هو خفي

في البحار والأرض والجبال، ويُخبر عما في الأرض والسماء، ولن يكون أعظم منه علىٰ وجه الأرض».

ونقرأ في كتاب (المزامير) لنبي الله داود (ع)، وهو من كتب العهد القديم:

- «وسينقرض الأشرار، وسيرث الأرض المتوكلون علىٰ الله (تعالىٰ)».

وجاء في نفس الكتاب وفي نفس الفصل:

- «ويرث الصدّيقون الأرض ويسكنون فيها إلىٰ الأبد».

ومثل هذا الكلام ورد في كتاب (أشعيا النبي) ضمن كتب التوراة، وفي إنجيل (متّىٰ) نقرأ في الفصل ٢٤:

- «.. لأن مجيء ابن الإنسان يكون مثل البرق الذي يلمع من المشرق ويضيء في المغرب»[١].

ونقرأ في الفصل الثاني عشر من إنجيل لوقا:

- «كونوا علىٰ استعداد، أوساطكم مشدودة ومصابيحكم مُوقدة، كرجال ينتظرون رجوع سيدهم من العرس، حتىٰ إذا جاء ودقّ الباب يفتحون له في الحال»[٢].

وجاء في كتاب (علائم الظهور):

- «يمكن العثور علىٰ عقيدة مجيء وظهور مصلح عالمي في كتب الصين القديمة، وفي معتقدات الهنود، وبين سكان اسكندنافيا، وحتىٰ بين المصريين القدماء، والسكان الأصليين في المكسيك».

---

(١) إنجيل متّىٰ الفصل ٢٤ الآية ٢٨ - الكتاب المقدس - العهد الجديد - طبعة اتحاد جمعيات الكتاب المقدس ١٩٧٨ (المترجم).

(٢) إنجيل لوقا الفصل ١٢ الآية ٣٥ و ٣٦ - المرجع السابق (المترجم).

الأدلة العقلية:

ألف ـ يلقي علينا نظام الخلق هذا الدرس، وهو؛ إن العالم الإنساني لا بد أن يستسلم أخيراً لقانون العدل والمصلح الدائم.

توضيح ذلك: إن عالم الوجود، كما نعلم، يتكون من مجموعة أنظمة، ووجود القوانين المنظمة، في كل الوجود هذا، دليل علىٰ وحدة وترابط هذا النظام. ومسألة النظام والقانون والبرامج الدقيقة هي من أهم مسائل هذا العالم، فالمنظومات الكبيرة، وإلىٰ (الذرة) التي لو جمعت مليون ذرة لاستقرت علىٰ رأس دبوس، تخضع كلها لنظام دقيق.

الأجهزة المختلفة في أجسامنا، من محتوىٰ الخلية الصغيرة العجيبة، وحتىٰ عمل المخ وسلسلة الأعصاب والقلب والرئتين.. كلها لها أنظمة، وكما قال بعض العلماء إن كل واحد من هذه الأجهزة والأعضاء يعمل بدقة، كالساعة، في أجسامنا، وتعجز أدق أنظمة الكامبيوترات عنها.

في عالم مثل هذا، أيمكن أن يكون الإنسان، الذي هو (جزء) من هذا (الكل)، شيئاً نشازاً وغير منظّم، ويعيش في حرب وسفك دماء وظلم؟!

أيمكن للظلم والاستبداد والفساد الأخلاقي والاجتماعي، وكلها نوع من أنواع (اللا نظام)، أن يستقر ويتحكم دائماً بالمجتمع الإنساني؟!

النتيجة: إن رؤية الظلم تدلنا علىٰ هذه الحقيقة أن المجتمع البشري سيخضع أخيراً للنظام والعدالة، ويعود مرةً أخرىٰ مسيره الأساس في الخلق!.

* * *

ب ـ مسيرة تكامل المجتمعات، دليل آخر علىٰ المستقبل المشرق للعالم الإنساني، لأننا لا نستطيع أن ننكر حقيقة أن المجتمع البشري، ومنذ أن عُرف، لم يتوقف عند أية مرحلة، بل كان دائماً في حالة تقدم.

ومن الجوانب المادية، ومن حيث السكن، واللباس، نوع الغذاء والطعام، ووسائط النقل، ووسائل الإنتاج، كان الإنسان ذات يوم يعيش في أولىٰ مراحل الظروف المعيشية، واليوم وصل إلىٰ مرحلة تجعل العقول في حيرة، والأبصار تنبهر، ولا شك أن هذا التقدم يستمر.

ومن حيث العلوم والثقافة أيضاً كان التقدم مستمراً، وكان الإنسان يحصل كل يوم علىٰ اكتشاف جديد وتحقيق جديد وموضوع جديد.

و (قانون التكامل) هذا يشتمل علىٰ جميع الجوانب المعنوية والأخلاقية والاجتماعية أيضاً، ويسوق الإنسان والإنسانية نحو قانون عادل وسلام وعدالة دائمة، وفضائل أخلاقية ومعنوية، وإذا كنا نرىٰ المفاسد الأخلاقية تأخذ في الازدياد، فإنها أيضاً تمهد الأرضية لثورة تكاملية بالتدريج. إننا لا نقوم أبداً بتشجيع الفساد، ولكننا نقول عندما يجتاز الفساد الحدود، فإن رد الفعل يكون ثورة أخلاقية، وعندما يصل الإنسان إلىٰ طريق مسدود، وتكون العواقب وخيمة نتيجة خطاياه، ويصاب باليأس، فإنه علىٰ الأقل سيكون مستعداً لتقبل المبادىء التي يأتي بها قائد إلهي.

* * *

القرآن وظهور المهدي:

توجد آيات عديدة في القرآن الكريم تبشر بظهور هذا الإنسان العظيم، ونحن نكتفي من بين تلك الآيات بآية واحدة: نقرأ في سورة النور ـ الآية ٥٥ ـ ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعَمِلوا الصالحاتِ لَيستخلفنَّهُمْ في الأرض كما أستخلَفَ الذين من قبلهم﴾.

إن هذه الآية تدل بوضوح علىٰ أن السلطة ستخرج، في النهاية، من يد الحكام المتجبرين والمستبدين، ليحكم، من ثمَّ، المؤمنون الصالحون علىٰ وجه الأرض.

استمراراً للوعد المذكور في الآية هناك ثلاثة وعود أخرىٰ؛ تمكين الدين والنفوذ المعنوي لحكومة الله تبارك وتعالىٰ في القلوب ﴿وليُمكِنَنَّ لهم دينُهُم الذي ٱرتضىٰ لهم﴾. والثاني منح الأمن ـ ﴿وليُبدّلَنَّهُمْ من بعدِ خوفِهم أَمْناً﴾. والثالث قلع جذور الشرك من علىٰ الأرض ـ ﴿يعبدونَني لا يشركون بي شيئاً﴾.

وقال الإمام علي بن الحسين (ع) في تفسير الآية:

ـ «هم والله شيعتنا يفعل الله ذلك بهم علىٰ يدي رجل منا وهو مهدي هذه الأمة».

* * *

المهدي في مصادر الحديث:

كثيرةٌ هي الأحاديث، الواردة عن إقامة الحكومة العالمية في سلام وعدل من قبل رجل من بيت آل النبي (ص) اسمه (المهدي)، وذلك في مصادر الأحاديث الشيعية والسُنيّة، بحيث تتجاوز حدَّ التواتر. كما أنها تتواتر فيما يخص أنه الإمام الثاني عشر وخليفة النبي (ص)، والابن التاسع للإمام الحسين (ع)، والابن الحقيقي للإمام الحسن العسكري (ع).

في القسم الأول، أي (تواتر) الأحاديث عن ظهور المهدي (ع) في المصادر السُنية يكفي أن نعلم أن علماء أهل السنّة يذكرون ذلك في كتبهم، حتىٰ أننا نقرأ في رسالةٍ صادرة عن (رابطة العالم الإسلامي) وهي أكبر مركز ديني لأهل الحجاز، نُشرتْ مؤخراً: «هو آخر الخلفاء الراشدين الاثني عشر الذين أخبر عنهم النبي الأكرم (ص) في الأحاديث الصحاح، والأحاديث

عن (المهدي) (ع) نُقلت بكثرة من قبل الصحابة عن النبي (ص)».

وبعد أن تذكر الرسالة أسماء عشرين من الصحابة الذين نقلوا حديث المهدي (ع) عن النبي (ص)، تقول: وغير هؤلاء هناك الكثير ممن نقلوا هذه الأحاديث.. وقد دوّن بعض العلماء من أهل السنة كتباً في أخبار المهدي (ع) منهم أبو نعيم الأصفهاني، وابن حجر الهيثمي، والشوكاني، وادريس المغربي، وأبو العباس بن عبد المؤمن». وتصنيف الرسالة «وقد صرّح عدد من كبار علماء أهل السُنة قديماً وحديثاً بتواتر أخبار المهدي (ع)»، وبعد أن تذكر الرسالة أسماء عدد منهم تختم قولها: «لقد قال عدد من الحفّاظ والمحدثين بصراحة إن أحاديث المهدي، هي من الأحاديث الصحيحة والحَسَنة، وهي متواترة بصورة مؤكدة، وإن الاعتقاد بظهور المهدي واجب وهو من عقائد أهل السنّة، ولا ينكر ذلك إلا الجاهل والمبتدع».

* * *

أما حول أحاديث الشيعة:

فيكفي أن نعلم أنه نُقلت مئات الأحاديث في هذا المجال من قِبل مختلف الرواة عن النبي الأكرم (ص) وعن أئمة الهُدىٰ (ع)، بحيث تجاوزت حدّ التواتر، وأصبحت لدىٰ الشيعة من ضروريات الدين، إذ لا يمكن لأحدهم أن لا يعتقد بظهور المهدي (ع)، والكثير من مميزاتِهِ وعلائم ظهوره وحكومتِه.

ولقد كتب علماء الشيعة الكبار، منذ القرون الأولىٰ للإسلام وحتىٰ اليوم، مؤلفات عديدة في هذا المجال جمعوا فيها الأحاديث، ونحن كنموذج سنوردُ بعض الأحاديث هنا، ونحيل من يود الاستزادة في هذا المجال، إلىٰ مطالعة كتب (المهدي الثورة الكبرىٰ) و (بشارة الأمن والأمان) وكتاب (المهدي) تأليف العالم الكبير سيد صدر الدين صدر.

قال النبي الأكرم (ص): «لو لم يبقَ من الدهر إلّا يوم، لطوّل اللّهُ ذلك اليوم حتىٰ يبعث رجلاً من أهل بيتي يملأها قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظُلماً وجوراً».

وجاء في حديث للإمام الصادق (ع): «إذا قام القائم حكم بالعدل، وارتفع الجور في أيامِه، وأمنت به السبل وأخرجت الأرض بركاتها، وردّ كل حق إلىٰ أهله.. وحكم بين الناس بحكم داود وحكم محمد (ص)، فحينئذ تُظهر الأرض كنوزها، وتُبدي بركاتها، ولا يجد الرجل منكم يومئذ موضعاً لصدقته ولبره، لشمول الغنىٰ جميع المؤمنين..»[١].

نحن نعلم أنه أثناء عصر الغيبة، غيبة الإمام المهدي أرواحُنا فداه، يستمر خط الإمامة والولاية بواسطة نواب الإمام (ع)، أي العلماء والفقهاء.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ ما هو الاختلاف في وجهات نظر المؤمنين والماديين حول مستقبل العالم؟.

٢ ـ هل يمكن استنتاج ظهور المهدي (ع) عن طريق الفطرة؟.

٣ ـ هل لدينا دليل عقلي علىٰ الظهور؟ ما هو هذا الدليل؟.

٤ ـ ماذا يقول القرآن الكريم عن الظهور والمهدي (ع)؟.

٥ ـ ما هي وجهة نظر السنّة في هذا المجال؟.

* * *

(١) بحار الأنوار ج ١٣.

ـ ٥ ـ

عشرة دروس
في المعاد

الدرس الأول

سؤال مهم:
هل الموت بداية أم نهاية؟

أكثر الناس يخافون من الموت، لماذا؟!

كان الموت دائماً يتجسم كحيوان مرعب أمام بصر الإنسان، يشغل بالَهُ ويسقم مذاقه. وليس فقط أن الإنسان يخشىٰ من (اسم) الموت لخشيته من القبر، ولذا فهو يُجمّل المقابر لينسىٰ حقيقتها.

وأثار هذا الخوف ظاهرة في الآداب المختلفة في العالم، حيث يُشار إلىٰ الموت بتعابير مختلفة مثل (قبضة الموت).. وغيرها. وعندما يريد إنسان أن يشير إلىٰ شخص ميت، فإنه يستخدم عبارات ليبعد الخوف عن مخاطبه. ولكن يجب أن نفسر ونحلل لماذا يخاف الإنسان من الموت؟! ولماذا يوجد بعض الناس خلافاً لذلك لا يخشون من الموت، بل إنهم يستقبلونه مبتسمين بافتخار؟!

نقرأ في التاريخ، بينما يجري البعض وراء إكسير الحياة، فإن البعض الآخر يتوجهون برحابة صدر إلىٰ ميادين الجهاد وعلىٰ شفاههم، حتىٰ إنهم

أحياناً يشكون من طول العمر، ويتمنون لقاء الله سبحانه وتعالىٰ، كما يلقىٰ الحبيب حبيبه، واليوم أيضاً نرىٰ هذا الأمر بوضوح جبهات الحق ضد الباطل، وكيف أنهم يحملون أرواحهم علىٰ أكف أيديهم.

* * *

الدليل الأساس للخوف:

بدراسة دقيقة نصل إلىٰ أن عامل الخوف لا يعدو شيئين:

١ ـ تفسير الموت بمعنىٰ الفناء:

الإنسان يهرب دائماً من العدم، ويفر من المرض لأنه يعني عدم السلامة، ويخشىٰ الظلام لأنه يعني عدم وجود النور. ويرتعب من الفقر لأنه يعني عدم الغنىٰ. وأحياناً يخاف من البيت الخالي، ويستولي عليه الخوف في الصحراء الخالية، لعدم وجود أحد هناك.

والعجيب أنه يخاف من الميت، مثلاً إنه غير مستعد للبقاء في غرفة مع جثة ميت، بينما نجده كان يجالس ذلك الميت عندما كان حياً!!

ولِنَرَ الآن لماذا يخشىٰ الإنسان من العدم، الدليل واضح، فالوجود له علاقة مع الوجود والمعرفة، ولا يمكن أن ينسجم الوجود مع العدم، إذن فإننا غرباء مع العدم تماماً وهذا شيء طبيعي.

ولو عرفنا أن الموت يعني نهاية كل شيء، واعتقدنا أنه بالموت ينتهي كل شيء فإن الحق سيكون معنا عندما نخاف، ونخشىٰ حتىٰ من (اسمه)، لأن الموت يسلب منا كل شيء.

ولكن إذا اعتبرنا الموت بداية حياة جديدة خالدة تطل علىٰ عالم كبير، فإنه سيكون من الطبيعي أن لا نخافه، بل نبارك لأولئك الذين يخطون مرفوعي الرأس نحو الموت.

٢ ـ الأضابير السوداء:

نعرف بعض الأشخاص لا يعتبرون الموت فناءً، ولا ينكرون الحياة بعد الموت، ولكنهم رغم ذلك يخشون الموت، لأن صحيفة أعمالهم سوداء ومظلمة لدرجة يخافون فيها من عقاب ما بعد الموت. وهؤلاء لهم الحق أن يخافوا، وهم أشبه ما يكونون بمجرمين خطرين يخشون الخروج من السجن، لأنهم يعرفون إنْ أخرجوهم إنما ليذهبوا بهم إلىٰ الإعدام.

أما أولئك الذين لا يرون الموت (فناءً)، وليست لهم أضابير سوداء فلماذا يخافون من الموت؟!

ولا شك أنهم يريدون الحياة بكل وجودهم أيضاً، ولكن ليتزودوا بالكثير لحياتهم الجديدة بعد الموت، وهم يستقبلون الموت في سبيل الهدف والفخار ورضا الله سبحانه.

* * *

نظرتان مختلفتان:

قلنا إن الناس فئتان، الأكثرية هي تلك الفئة التي تخشىٰ من الموت، والأقلية هي الفئة التي ترحّب بالموت في سبيل هدف كبير، كالشهادة في سبيل الله عز وجل، أو علىٰ الأقل عندما يشعرون بأن حياتهم الطبيعية توشك علىٰ الانقضاء، فإنهم لا يشعرون بالحزن علىٰ ذلك.

الدليل هو أن لهاتين الفئتين نظرتين مختلفتين:

الفئة الأولىٰ: إما أنها لا تؤمن بعالم ما بعد الموت، وإن كان لها إيمان فإنه إيمان متزعزع غير ثابت، ولذا فإنها تعتبر لحظة الموت، لحظة الوداع مع كل شيء، طبعاً هذا شيء مخيف، وإنه لمؤلم الخروج من الضياء والنور إلىٰ ظلام القبر المطلق، تماماً كالمجرم الذي يذهبون به إلىٰ

المحكمة وجريمته واضحة، ولذا فإن الخوف يستولي عليه.

الفئة الثانية: ترىٰ الموت ولادة جديدة، خروجاً من المحيط المحدود والمظلم للدنيا إلىٰ عالم أوسع وأرحب ومضيئاً.

التحرر من قفص صغير وضيق، والتحليق في السماء الواسعة، والخروج من بيئةٍ هي مركز النزاع والصراع والظلم والحقد والحروب، والدخول إلىٰ بيئةٍ خالية من كل تلك الصفات. ولهذا فمن الطبيعي أن لا يخشىٰ هؤلاء مثل هذا الموت ويقولون كما قال الإمام علي (ع): ابن أبي طالب أنس بالموت من الطفل بثدي أُمه.

ولذا ليس من باب الصدف أن نلتقي في تاريخ الإسلام بأشخاص كالإمام الحسين (ع) وأصحابه المضحين الذين كلما اقتربت ساعةُ شهادتهم، وجوههم تشرق شوقاً لرؤية ولقاءِ الحبيب.

ولهذا السبب أيضاً، نقرأ في تاريخ الإمام علي (ع) المليء بالفخار والمجد أنه عندما نزلت ضربة سيف ذلك المجرم علىٰ رأسه صاح: (فزت وربّ الكعبة)!!

من البديهي أن مفهوم هذا الكلام ليس أن يلقي الإنسان بنفسه إلىٰ التهلكة ويغض الطرف عن الحياة، دون أن يستفيد منها في سبيل الأهداف الكبيرة. وإنما المقصود هو الاستفادة من الحياة بصورة صحيحة، دون الخشية من نهاياتها، خاصةً إذا كانت النهاية في سبيل هدف سام.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ لماذا يخشىٰ الناس من الموت؟ وما دلائل ذلك؟

٢ ـ لماذا يبتسم عدد من الناس للموت ويعشقون الشهادة في سبيل الله تعالىٰ؟

٣ ـ بِمَ يمكن تشبيه لحظة الموت؟ بماذا يشعر كل من المؤمنين والكافرين في تلك اللحظة؟

٤ ـ هل رأيتم في حياتكم أشخاصاً لا يخشون الموت؟ ما هي ذكرياتكم عن هؤلاء؟

٥ ـ ما هو منطق الإمام علي (ع) عن الموت؟.

* * *

الدرس الثاني

المعاد
يعطي مفهوماً للحياة

لو نظرنا إلىٰ الحياة في هذه الدنيا بدون أي اعتبار للحياة الأخرىٰ فإنه سيكون بلا معنىٰ. وهذا يشبه تماماً أن نفترض مرحلة الجنين بدون الحياة في هذه الدنيا، فالجنين يبقىٰ لأشهر سجيناً في الظلمات في بطن أمه، ولو أنه فكر، أي الإنسان، حول مرحلة الجنين في حياته لتعجب حقاً.

لماذا أنا سجين في السجن المظلم؟
لماذا يجب أن أسبح في الماء والدماء؟
وماذا ستكون نتيجة عمري؟
من أين أتيت، ولأي شيء كان مجيئي؟

أما لو أنه أُطْلِعَ علىٰ أن تلك المرحلة هي مقدمات، حيث تأخذ أعضاؤك أشكالها، وتصبح قوياً، استعداداً للحركة في العالم الواسع.

وبعد مرور تسعة أشهر، يصدر أمر تحريرك من هذا السجن، وتخطو في عالم فيه شمس مشرقة، وقمر منير، وأشجار خضراء، وأنهار جارية

وأشياء أخرىٰ، وعند ذلك تتنفس الصعداء وتقول: لقد فهمت الآن فلسفة وجودي هنا!

هذه المرحلة هي مقدمات، قاعدة انطلاق، مدرسة استعداداً للوصول إلىٰ الجامعة.

وأما إذا انقطعت علاقة الحياة الجنيني بالحياة في هذه الدنيا، فإن كل شيء سيكون مظلماً وبلا معنىٰ.

* * *

والموضوع هو نفسه فيما يتعلق بالحياة في هذه الدنيا وعالم ما بعد الموت.

فما هي الضرورة أن نعيش حوالي سبعين سنة في هذه الدنيا بين المشاكل؟! فنحن مدة من عمرنا تكون بلا تجربة، وعندما نكتسب التجربة تكون أعمارنا قد انتهت!

ومدة من عمرنا يجب أن ندرس ونحصل علىٰ العلوم، وعندما نحصل علىٰ ذلك يكون الشيب قد غزا رؤوسنا!

ثم لماذا نعيش، لنأكل ونلبس وننام؟! والاستمرار في هذه الحياة الرتيبة لعشرات السنوات؟!

وهل حقاً أنّ هذه السماء الواسعة، وهذه الأرض الممتدة، وكل هذه المقدمات، تحصيل العلوم واكتساب التجارب، وجميع الأساتذة والمربين كل ذلك للأكل واللبس، ولهذه الحياة المنحطة؟!

لهذا السبب يكون هذا الضياع في الحياة لأولئك الذين لا يقبلون بالمعاد مبدأ، لأنهم لا يستطيعون اعتبار هذه الشؤون الصغيرة هدفاً في الحياة، ولا يؤمنون بعالم ما بعد الموت.

وكثيراً ما يلاحظ أن عدداً من هؤلاء يقدمون علىٰ الانتحار للخلاص

من مثل هذه الحياة التافهة التي لا معنىٰ لها.

ولكن إذا آمنّا أن هذه الدنيا (مزرعة) للآخرة، فلا بد أن نبذر البذور ونجني الثمار في حياة خالدة وأبدية.

الدنيا (جامعة) يجب أن نحصل منها علىٰ العلوم، ونستعد لحياة في عالم خالد، والدنيا (جسر) يجب أن نعبر عليه.

في هذه الحالة لن تكون الحياة في هذه الدنيا ضياعاً وبلا مفهوم، بل مقدمة لحياة خالدة وأبدية، ومهما سعينا في سبيلها فهو قليل.

نعم، إن الإيمان بالمعاد يعطي مفهوماً لحياة الإنسان، وينقذه من (الاضطراب) و (القلق) و (الضياع).

* * *

الإيمان بالمعاد عامل مهم في التربية:

إضافة إلىٰ ذلك فإن الاعتقاد بوجود محكمة كبرىٰ في الآخرة ضروري جداً في الحياة الحاضرة.

افترضوا أن يعلن في بلد ما أنه خلال اليوم الفلاني سوف لن يحاسب علىٰ أي جريمة تقع، ولن تنظم أضابير في تلك الجرائم، والناس أحرار دون الخوف من أي عقاب في أن يفعلوا ما يشاؤون، وأن الشرطة والجيش سيقفون عن العمل في ذلك اليوم، وستعطل المحاكم.

تصور حال المجتمع في ذلك اليوم!!

إن الإيمان بالبعث يوم القيامة، هو إيمان بوجود محكمة كبرىٰ لا يمكن مقارنتها بمحاكم هذا العالم. مميزات هذه المحكمة هي كما يلي:

١ ـ هي محكمة لا تؤثر فيها التوصيات، ولا الروابط والعلاقات، ولا تتغير آراء القضاة بالوثائق الكاذبة والمزورة.

٢ ـ هي محكمة لا تحتاج إلىٰ مراسم ومقدمات التي تحتاجها محاكم هذا العالم، ولهذا فإنها لن تطول، تتم دراسة (الوثائق) بسرعة هائلة وبدقة وتصدر الأحكام.

٣ ـ هي محكمة، وثائق اتهام الأشخاص هي نفس أعمالهم، يعني أن أعمالهم تحضر في المحكمة، ويكتشفون رابطتهم بالشخص الفاعل، بحيث لا يبقىٰ مجال للإنكار.

٤ ـ شهود تلك المحكمة، هم الأيدي والأرجل والآذان والعيون واللسان وجلد جسم الإنسان، وحتىٰ الأرض وحيطان البيت الذي ارتكبت الخطيئة فيه، هؤلاء هم الشهود الذين لا يمكن إنكارهم، وهم (الآثار الطبيعية) لأعمال الإنسان التي لا تُنكر.

٥ ـ هذه المحكمة، الحاكمُ فيها هو الله تبارك وتعالىٰ، الله الذي يعرف كل شيء، ولا يحتاج لشيء أو أحد، وأعدل الجميع.

٦ ـ ثم إن العقاب في هذه المحكمة ليس طبق مقررات وقوانين، وإنما هي أعمالنا التي تتجسم وتبدأ بتعذيبنا، أو بإغداقِ الرحمة علينا.

إن الإيمان بمثل هذه المحكمة يصل بنا إلىٰ منزلة السير علىٰ خطىٰ الإمام علي (ع) ونقول:

ـ «والله لأنْ أبيتَ علىٰ حَسك السَّعدان مُسَهَّداً، أو أُجَرَّ في الأغلال مُصفّداً، أَحبُّ إليَّ من أن ألقىٰ الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصِباً لشيءٍ من الحُطام»(١).

إن الإيمان بهذه المحكمة الذي يدفع بالإنسان إلىٰ أن يضع يد أخيه علىٰ حديدةٍ ساخنة، لأنه فرّق بينه وبين الآخرين في بيت مال المسلمين، وعندما يرتفع صراخه ينصحه ويقول له:

---

(١) نهج البلاغة ـ الخطبة ٢٢٤.

ـ «يا عقيل، أتئن من حديدة أحماها إنسانُها لِلَعِبه، وتَجرُّني إلىٰ نارٍ سَجَرها جبّارُها لغضبِه».

فهل يمكن خداع شخص يملك هذا الإيمان؟!

وهل يمكن شراء ضميره؟!

وهل يمكن صرفه عن مسير الحق بالتهديد والتطميع؟!

والقرآن الكريم يقول: عندما يرىٰ المذنبون صحيفة أعمالهم يصرخون: ـ **﴿يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾**.

وهكذا يتصاعد موج قوي من المشاعر والإحساس بالمسؤولية أمام كل عمل، في أعماق روح الإنسان، تكبح جماح الإنسان أمام الانحرافات والضياع والمظالم والعدوان.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ إذا لم يكن هناك عالم آخر بعد الحياة المحدودة في الدنيا، فماذا يحدث؟!

٢ ـ لماذا يقدم الأشخاص، الذين ينكرون المبدأ والمعاد، علىٰ الانتحار؟!

٣ ـ ما الفرق بين محكمة الآخرة، ومحاكم هذه الدنيا؟!

٤ ـ ما هو أثر الإيمان بالمعاد علىٰ عمل الإنسان؟

٥ ـ ماذا قال أمير المؤمنين الإمام علي (ع) لأخيه عقيل؟ ماذا أراد وبماذا أجابه الإمام؟!

* * *

الدرس الثالث

نموذج محكمة الآخرة
داخل نفوسكم!

مع أنها موضوع جديد مسألة الحياة بعد الموت، والمحكمة الكبرىٰ يوم القيامة للإنسان المسجون في حدود هذا العالم، إلاّ أن الله عز وجل قد جعل لنا نموذجاً مصغراً لتلك المحكمة في هذه الدنيا، اسمها (محكمة الضمير)، ولكن يجب أن لا ننسىٰ أننا قلنا نموذجاً مصغراً.

دعونا نوضح هذا الموضوع:

إن الإنسان يحاكم أمام عدة محاكم عن الأعمال التي يؤديها.

المحكمة الأولىٰ: هي تلك المحكمة العادية للإنسان مع جميع نقط الضعف. رغم أن وجود مثل هذه المحاكم العادية له تأثير كبير في التقليل من الجرائم، ولكن هذه المحاكم هي بشكل لا يمكن أن نتوقع معها تنفيذ العدالة بصورةٍ كاملة، لأنه لو تدخّل، أو تسلّل، إليها حكام غير صالحين وقوانين غير صحيحة، فإن وضعها سيكون معلوماً، رشاوىٰ، محسوبيات، وعلاقات خاصة، ولعباً سياسية، وألف مسألة أخرىٰ، تؤثر فيها بشكل، كما قيل: عدمها أفضل من وجودها، لأن وجودها سيكون عاملاً لتنفيذ

المقاصد الفاسدة!

وإذا كانت قوانينها عادلة وقضاتها يتسمون بالتقوىٰ، فإنه أيضاً يحدث أن الكثير من المجرمين ينفّذون أعمالهم الإجرامية بمهارة بحيث لا يتركون أثراً يدل عليهم. أو أنهم يقومون بأعمال مخادعة ومزورة بحيث يشلون يد القضاة ويجعلون القوانين بلا أثر.

* * *

المحكمة الثانية: التي هي أشد حساباً وأدق هي محكمة (عقاب العمل).

إن لأعمالنا آثاراً تلاحقنا إن عاجلاً أم آجلاً. فإن لم يكن هذا حكماً عاماً، علىٰ الأقل إنه يصدق علىٰ الكثيرين.

لقد رأينا حكومات أشاعت الجور والظلم والاستبداد، وعملت ما أرادت، ولكنها وقعت في البئر التي حفرتها، ولاحقتها أعمالها، وسقطت بحيث لم يبقَ منها أثر سوىٰ اللعنة عليها.

وبما أن (عقاب العمل) هو علاقة العلة والمعلول، والعلاقات العينية الخارجية، لذا يندر أن يتمكن أحد أن يهرب من قبضتِه. والقصور الوحيد الذي يؤخذ علىٰ هذه المحكمة أنها ليست عامة للجميع، ولهذا السبب فإنها لا يمكن أن تجعلنا بعيدين عن الحاجة للمحكمة الكبرىٰ يوم القيامة.

* * *

المحكمة الثالثة: التي هي أدق حساباً، هي محكمة (الضمير).

في الحقيقة كما أن المنظومة الشمسية بنظامها العجيب تتلخص بصورة مصغرة داخل (الذرة)، لذا يمكن القول إن محكمة الآخرة موجودة بصورة مصغّرة في باطننا. لأنه توجد قوة غامضة داخل وجود الإنسان يسميها الفلاسفة باسم (العقل العملي)، ويسميها القرآن الكريم (النفس

اللوّامة)، ويطلق عليها اليوم اسم (الضمير). فما إن يقوم الإنسان بعمل سيء كان أم حَسَن سرعان ما تتشكل هذه المحكمة دون ضجة، ولكن بكل جد، وتبدأ المحاكمة، ونتيجة الحكم تكون علىٰ شكل عتاب أو تشجيع نفسي.

وأحياناً تقوم المحكمة هذه بإنزال السياط بالمجرمين وتندبهم لدرجة أنهم يتمنون الموت بكل رحابة صدر، ويفضلونه علىٰ الحياة، ويكتبون في وصاياهم (إننا انتحرنا لكي نتخلص من عذاب الضمير). فأحياناً تشجع إنساناً لعمله الطيب بحيث تبعث فيه الفرح والسرور والهدوء العميق الذي لا يوصف ولا يعرف حدوداً للذته الباطنية.

إن هذه المحكمة العجيبة لها مميزات:

١ ـ القاضي، والشاهد، ومنفّذ الحكم والمتفرجون في هذه المحكمة.. واحد، هو (الضمير)، الذي يدلي بالشهادة ويُصدر الحكم، ويشمّر عن ساعديه لتنفيذ الحكم.

٢ ـ خلافاً للمحاكم المملوءة بالضجة العادية، حيث من الممكن أن تطول محاكمة لعدة سنوات، فإن محكمة الضمير سريعة جداً، بحيث لا يحتاج إلىٰ وقت ومدة. طبعاً، أحياناً، ولإثبات التهمة وإزاحة الستار عن الغفلة التي من الممكن أن تحصل تصبح الحاجة للوقت ضرورية، ولكن بعد كشف الوثائق فإن إصدار الحكم يكون سريعاً وقاطعاً.

٣ ـ حكم هذه المحكمة قاطع فليس هناك استئناف وإعادة النظر، ولا يرسل إلىٰ ديوان القضاء الأعلىٰ.

٤ ـ هذه المحكمة لا تعاقب فقط، وإنما تعطي الجوائز لمن يستحق ذلك، وعليه فهي محكمة يُحاكم فيها المذنبون والصالحون، يعاقب المذنب ويُثاب الصالح طبقاً لأعمالهم.

٥ ـ عقاب هذه المحكمة لا يشبه أبداً العقاب العادي، حيث في الظاهر لا يوجد سجن ولا سوط ولا خشبة إعدام، ولكنه أحياناً يُحرق

ويُسجن بحيث لا تسع الدنيا لإنسان بما رحبت، وتضيق وتصغر حتىٰ تصبح مثل زنزانة انفرادية مخيفة.

الخلاصة: إن هذه المحكمة ليست من أنواع محاكم هذه الدنيا، بل من محاكم يوم القيامة.

وهذه المحكمة عظيمة بحيث أن القرآن الكريم يُقسم بها ويصفها بمستوىٰ محاكم القيامة، فيقول:

﴿ لا أُقسِمُ بيومِ القيامةِ * ولا أُقسِمُ بالنفسِ اللوامة * أَيَحْسَبُ الإنسانُ ألَّنْ نجمعَ عظامَه * بلَىٰ قادرين علىٰ أنْ نُسوّيَ بنَانه * ﴾.

* * *

ومع كل ذلك فإن هذه المحكمة فيها بعض القصور لدنيويتها، فهي لا تجعلنا في غير حاجة لمحكمة يوم القيامة، لأنها:

١ ـ الضمير لا يحيط بكل شيء، بل يشمل محيط الفكر وما يشخصه الإنسان.

٢ ـ أحياناً يتمكن إنسان مخادع ماهر أن يخدع الضمير ويحتال عليه.

٣ ـ أحياناً يضعف نداء الضمير لدىٰ بعض الجناة لدرجة لا يصل إلىٰ سمعه.

وهنا تتجلىٰ ضرورة وجود المحكمة الكبرىٰ الرابعة ليوم القيامة.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ في كم محكمة يحاكمُ الإنسان؟

٢ ـ ما هي علائم المحكمة الأولىٰ واسمها؟

٣ ـ ما هي مميزات المحكمة الثانية؟

٤ ـ ما هي مميزات المحكمة الثالثة؟
٥ ـ ما هي مميزات ونقط الضعف في محكمة الضمير؟ عَدِّدها.

* * *

الدرس الرابع

المعاد عندما تتجلىٰ الفطرة

يقال عادة، إن معرفة الله موجودة في فطرة الإنسان، ولو بحثنا في الوعي واللا وعي داخل باطن الإنسان لوجدنا الإيمان وارتباطه بمبدأ من مبادىء ما وراء الطبيعة، مبنياً علىٰ علم وبرنامج وهدف هذا العالم، ولكن هذا الأمر لا ينحصر بمسألة (التوحيد ومعرفة الله) إذ لا بد من وجود جميع أصول وفروع الدين الأساسية في الفطرة، وإلا لما حصل تنسيق وانسجام بين أجهزة (التشريع) و (التكوين) ـ (لاحظ ذلك بدقة).

نحن إذا راجعنا أنفسنا ودرسنا أعماقنا فإننا سنسمع؛ أن الحياة لا تنتهي بالموت، وإنما الموت نافذة علىٰ عالم البقاء.

لكي نفهم هذه الحقيقة لا بد من ملاحظة النقط التالية:

١ ـ التعلق بالبقاء:

إذا كان حقاً أن الإنسان خُلق للفناء والعدم، إذ لا بد أنه يتعلق ويعشق الفناء، وأنه يلتذ، في نهاية العمر، بالموت، ولكننا نرىٰ إن الموت

(بمعنىٰ العدم) ليس فقط غير مقبول لديه، وإنما يهرب منه بكل وجوده. إن الركض وراء الحياة والعمر الطويل، والبحث عن إكسير الشباب، والتنقيب عن ماء الحياة، كل واحد من هذا دليل على هذه الحقيقة.

إن هذه العلاقة وحب البقاء تدل علىٰ أننا خُلقنا للبقاء، فلو كنا خُلقنا للفناء والعدم، إذن لما كان هناك معنىً لهذا الحب والعلاقة.

إن جميع أنواع العشق أو الحب أو التعلق الموجودة في باطننا، تُكمل وجودنا، وهكذا فإن عشق البقاء، أو حب البقاء، أيضاً هو مكمل لوجودنا.

لا تنسوا أننا نواصل بحث (المعاد) بعد قبولنا لوجود (الله) الحكيم العالم تبارك وتعالىٰ، ونحن نعتقد أن كل ما خلق في وجودنا إنما هو طبقاً لنظام وحساب دقيق، ولذا لا بد أن يكون حب الإنسان للبقاء طبقاً لنظام وحساب، وهو وجود عالم آخر بعد هذا العالم.

* * *

٢ ـ (البعث) لدىٰ الأقوام الأخرىٰ:

كما يذكر تاريخ البشر، فإن الدين كان موجوداً بين الأقوام الماضية ومنذ أقدم العصور، وهذا هو ما يدل علىٰ الاعتقاد الراسخ لدىٰ الإنسان القديم بمسألة (الحياة بعد الموت) أيضاً.

إن الآثار التي اكتشفت عن الإنسان القديم، وحتىٰ إنسان ما قبل التاريخ، وطريقة بناء قبور الموتىٰ، وكيفية الدفن، تدل جميعاً علىٰ هذه الحقيقة، وهي أنهم كانوا يؤمنون بالحياة بعد الموت، إن هذه العقيدة المتجذرة بين البشر لا يمكن اعتبارها مسألة بسيطة، أو أنها كانت عادة، أو نتيجة تلقين..

إننا عندما نجد عقيدة متجذّرة وموجودة عبر التاريخ في المجتمعات

الإنسانية، فإنها تدل علىٰ أنها موجودة بالفطرة، لأن الفطرة هي وحدها التي تتمكن أن تبقىٰ أمام صروف الزمن وتوالي العصور والتحولات الاجتماعية والفكرية، وإلاّ فإن العادات والتقاليد تُنسىٰ وتندثر عبر مرور الزمن.

إن ارتداء اللباس الفلاني عادة، أو جزء من تقليد، وهذه العادة تتغير مع تغيير البيئة والمكان، أو مع مرور الزمن.

وأما حب الأم لطفلها فهو غريزة متأصلة، ولذا لا يمكن أن يزيلها تغيير البيئة، ولا مرور الزمن، ولا يمكن أن تُترك بالنسيان. ومثل هذه الغريزة دليل علىٰ أنها موجودة في فطرة الإنسان.

عندما يقول العلماء: «إن الدراسات الدقيقة تدل علىٰ أن الطوائف البشرية الأولىٰ كانت لها مذاهب.. لأنهم كانوا يدفنون موتاهم بطريقة خاصة ومع أدواتهم ووسائل عملهم، وبهذه الطريقة، وبهذا الأسلوب كانوا يعكسون اعتقادهم بوجود عالم آخر».

وهكذا نعرف بصورة جيدة أن الأقوام القديمة كانت تعترف بوجود حياة بعد الموت، حتىٰ وإن كان أسلوب ذلك خاطئاً ويعتقدون أن الحياة الأخرىٰ تشبه الحياة في هذه الدنيا، وأن الميت يحتاج إلىٰ أدواته ووسائل عمله.

* * *

٣ ـ إن وجود محكمة باطنية باسم (الضمير) هو دليل آخر علىٰ فطرية المعاد:

وكما قلنا سابقاً إننا جميعاً نشعر بوضوح أن في داخلنا توجد محكمة تحصي علينا أعمالنا، تثيبنا بالخير علىٰ أعمال الخير، بحيث نشعر بالراحة باطنياً ويشملنا فرح غامر، لا يمكن وصف اللذة التي تحصل من جرّاء ذلك بأي قلم، وتنزل عقوبة، خاصة بالنسبة للذنوب الكبيرة، بحيث يشعر المذنب بمرارة الحياة.

وكثيراً ما يلاحظ أن العديد من الأشخاص الذين ارتكبوا جرائم كبيرة كالقتل، وهربوا، عادوا من تلقاء أنفسهم مستسلمين للعدالة فالإعدام، ودليل ذلك هو للتخلص من عذاب الضمير.

إن الإنسان عندما يرىٰ هذه المحكمة الباطنية يتساءل:

ـ «كيف يمكن وأنا هذا المخلوق الصغير أن أكون حاملاً لمثل هذه المحكمة، بينما العالم الواسع المخلوق لا يملك مثل هذه المحكمة؟!».

* * *

وعليه يمكن إثبات فطرة الاعتقاد بالمعاد بثلاث طرق:

١ ـ عن طريق حب البقاء.

٢ ـ عن طريق وجود الإيمان عبر التاريخ البشري.

٣ ـ وعن طريق نموذج مصغّر لها في باطن الإنسان.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ كيف يمكن معرفة الأمور الفطرية عن غير الفطرية؟

٢ ـ بأي دليل يحب الإنسان البقاء، وكيف يمكن أن يكون ذلك دليلاً علىٰ فطرة المعاد؟

٣ ـ أكانت الأقوام القديمة تؤمن بالمعاد؟

٤ ـ كيف تقوم محكمة الضمير بمنحنا الثواب أو إنزال العقاب؟

٥ ـ ما هي الرابطة أو العلاقة بين محكمة الضمير والمحكمة الكبرىٰ يوم القيامة؟

* * *

الدرس الخامس

البعث
في ميزان العدالة

بدراسة مختصرة في نظام عالم الوجود وقوانين الخلق، فإننا سنرىٰ أن في كل مكان قانوناً يتحكم في كل شيء. وفي جسم الإنسان يتحكم هذا النظام بشكل دقيق وعجيب، فإن أقل تغيير أو إخلال يؤدي إلىٰ المرض أو الموت.

مثلاً في جهاز العين، وجهاز القلب، وجهاز المخ، ترىٰ أن كل شيء قد وُضع موضعه بدقة، وبالحجم اللازم، وهذه العدالة والنظام ليس فقط موجودة في جسم الإنسان، بل موجودة في عالم الخليقة بأجمعه.

بالعدل قامت السموات والأرض.

إن الذرة صغيرة جداً لدرجة يمكن حمل الملايين منها علىٰ رأس دبوس. إذن تصوروا كم يجب أن يكون محتوىٰ الذرة دقيقاً ومنظماً بحيث تستمر في العيش ملايين السنين.

إن ذلك إنما بسبب العدالة والحساب الدقيق في نظام الإلكترونات والپروتونات، ولا يخرج أي جهاز، كبيراً كان أم صغيراً، عن هذا النظام العجيب.

هل حقاً أن الإنسان موجود استثنائي؟ وهل هو شيء منفصل عن هذا العالم الكبير، ويجب أن يكون حراً بلا نظام ويرتكب الظلم؟ أم أن هناك نقطة مجهولة؟.

الاختيار وحرية الإرادة:

الحقيقة أن الإنسان يختلف اختلافاً أساسياً مع جميع موجودات العالم، وهو أنه يملك (حرية الإرادة والاختيار).

فلماذا خلقه الله حراً، وترك له الاختيار في أن يفعل ما يشاء؟

الدليل، إنه إن لم يكن حراً لما سار في طريق التكامل، وهذا الامتياز الكبير يضمن التكامل المعنوي والأخلاقي، مثلاً لو أُجبر شخص علىٰ مساعدة المستضعفين والأعمال الخيرية لصالح المجتمع، فإن هذه الأعمال الخيّرة رغم ذلك لا تأتي لصاحبها بأي تكامل أخلاقي وإنساني، ولكن إذا كان الشخص يقوم بعُشر ذلك العمل الإنساني من تلقاء نفسه فإنه يخطو بتلك النسبة نحو التكامل الأخلاقي المعنوي.

وعليه فإن الشرط الأول للتكامل المعنوي الأخلاقي هو وجود الاختيار وحرية الإرادة لدىٰ الإنسان، وليس الإجبار، كعوامل الطبيعة الاضطرارية في العالم، وإذا كان الله سبحانه وتعالىٰ قد منح هذه الهبة الكبيرة للإنسان فإنما لهذا الهدف السامي.

ولكن هذه النعمة الكبيرة شبيهة بالوردة التي تنمو حواليها الأشواك، وهي استغلال الأشخاص من هذه الحريّة والتلوث بالظلم والفساد والخطيئة.

طبعاً ليس هناك من مانع لله تبارك وتعالىٰ أن ينزل به البلاء بحيث لا يفكر في ذلك، كأن يشل يده، ويعمي بصره، ويقطع لسانه.

صحيح أنه في هذه الحالة سوف لن يستغل أحد الحرية استغلالاً سيئاً ولن يتوجه إلىٰ الخطيئة، ولكن هذه التقوىٰ في الحقيقة لها جانب إجباري، ولا يأتي بفخر للإنسان بأي صورة من الصور، وإنما كان خوفاً من العقاب الشديد السريع.

إذن، لا بد أن يكون الإنسان حراً، ويقف أمام الامتحانات الإلهية المختلفة، ويبقىٰ مصوناً - إلاّ في الحالات الاستثنائية - من العقاب الفوري، لكي تتجلىٰ قيمة وجوده.

ولكن يبقىٰ هناك موضوع واحد، وهو: إذا بقي الوضع علىٰ هذا المنوال وانتخب كل واحد طريقاً، فإن قانون العدالة الإلهية، التي تظلل العالم، سيُنقض!

وهنا نتيقنُ أن هناك محكمة للإنسان يقف الجميع أمامها، دون استثناء، لينالوا جزاء أعمالهم من العدالة العامة لخالق الخلق.

فهل من الممكن أن يقوم أمثال نمرود وفرعون وجنكيز وقارون بمظالم واستبداد طوال عمرهم، دون أن يكون حساب وكتاب لهم؟!!

فهل يستوي المجرمون والمتقون في كفة العدالة الإلهية؟!!

إذ يقول القرآن الكريم: ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون** ﴾ (القلم: ٣٥ و ٣٦).

وفي مكان آخر يقول: ﴿ **أم نجعل المتقين كالفجّار** ﴾ (ص: ٢٨).

صحيح أن بعض المذنبين ينالون جزاء أعمالهم في هذه الدنيا، وصحيح أن محكمة الضمير مسألة مهمة، وصحيح أن ردود الفعل تشمل الإنسان إذا ظلم وأخطأ واستبد. ولكن إذا تمعنا جيداً فإننا سنرىٰ بأن هذه

الأمور الثلاثة ليست عامة لينال الظالم والخاطىء بقدر ظلمه وخطيئته، وهناك الكثيرون الذين يهربون من جزاء أعمالهم وعذاب الضمير، وردود أفعالهم الشريرة، أو لا ينال العقاب الكافي.

لا بد من وجود محكمة عادلة لأمثال هؤلاء لا تترك أصغر عمل خير أو شر دون محاسبة، وإلاّ فإن مبدأ العدالة لن يتحقق.

وعليه فإن قبول (وجود الله سبحانه) و (عدلِه) يساوي قبول وجود (يوم القيامة) و (العالم الآخر)، وهذان لا يمكن الفصل بينهما.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ كيف تقوم السماوات والأرض بالعدل؟

٢ ـ لماذا مُنح الإنسان (حرية الإرادة والاختيار)؟

٣ ـ ماذا يحدث لو أن الأشخاص الأشرار ينالون جزاءهم فوراً نتيجة أعمالهم في هذه الدنيا؟

٤ ـ لماذا لا يُغنينا جزاء العمل، وعذاب الضمير، وردود فعل الأعمال عن محكمة يوم القيامة؟

٥ ـ أية رابطة بين (العدل الإلهي) ومسألة (المعاد)؟

* * *

الدرس السادس

لقد رأينا يوم القيامة مراراً في هذه الدنيا

الآيات القرآنية الكريمة تبيّن بوضوح هذه الحقيقة أن الوثنيين وبقية الكفار ليس في عصر النبي (ص) فقط، وإنما في العصور الأخرىٰ أيضاً أن مسألة (المعاد) وإحياء الموتىٰ، كانت تبعث علىٰ التعجب والرهبة في قلوب الناس، حتىٰ أنهم كانوا يعتبرون ذلك جنوناً ويقولون لبعضهم البعض:

ـ ﴿ هل نُدلُّكُمْ علىٰ رجلٍ يُنبِّئُكُمْ إذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمزَّقٍ إنكم لفي خَلقٍ جديدٍ أَفترىٰ علىٰ اللَّهِ كَذِباً أمْ بهِ جِنّة ﴾ (سبأ: ٧).

نعم، كانت العقيدة بعالم ما بعد الموت وإحياء الموتىٰ تُحسب نوعاً من الجنون نتيجة الجهل وانعدام الفكر، أو حتىٰ تهمةً علىٰ الله تبارك وتعالىٰ، كما كانوا يعتبرون دبيب الحياة في المواد الجامدة نوعاً من الجنون.

ولكن القرآن الكريم جاء باستدلالات مختلفة أمام تلك الأفكار، ويمكن أن يستفيد منها الأشخاص العاديون وكذلك العلماء الكبار، كلٌّ

حسب مقدرته.

ورغم أن شرح جميع دلائل القرآن في هذا المجال يحتاج إلىٰ تأليف كتاب مستقل ولكننا سنأتي بطرف منها هنا:

١ ـ يقول القرآن لأولئك: إنكم ترون يومياً في حياتكم المعاشية مشاهد من (المعاد)، كيف تموت الموجودات ثم تحيا مرةً أخرىٰ، فهل تشكّون بعد ذلك في (المعاد)؟

ـ ﴿ **واللَّهُ الذي أرسلَ الرياحَ فتُثيرُ سَحاباً فسُقناهُ إلىٰ بلدٍ مَيّتٍ فأَحيينا به الأرضَ بعد موتِها كذلك النُشُور** ﴾ (فاطر: ٩).

ننظر إلىٰ الطبيعة في فصل الشتاء، كل شيء يوحي بالموت، تتعرىٰ الأشجار تماماً من الأوراق والورود والثمار، وتبقىٰ خشبة واقفة بلا حياة، لا تحمل وردة تبتسم، ولا زهرة تزهر. كما لا نرىٰ حياة تدب في الجبال والصحارىٰ.

ويأتي فصل الربيع، يتلطف الجو، وتتنزل قطرات المطر التي تبعث الحياة، وفجأة تبدأ حركة في الطبيعة؛ تظهر الأعشاب، تورق الأشجار، تتفتح الأزهار، وتتقافز الطيور والعصافير علىٰ الأغصان، وتقوم (القيامة)!!

إن لم يكن للحياة بعد الموت مفهوم، لما رأينا كل عام أمام أعيننا ذلك المشهد، ولو كانت الحياة بعد الموت شيئاً مستحيلاً، أو جنوناً، لما تكررت أمامنا كأمرٍ حسي!!

ثم ما الفرق بين حياة الأرض بعد الموت، وحياة الإنسان بعد الموت؟!!

* * *

٢ ـ وأحياناً يقود القرآن الكريم أولئك نحو بدء الخلق، ويذكرهم بأولِ خلقٍ. جاءَ أعرابي بقطعةِ عظم مهترئة إلىٰ النبي الأكرم (ص) وصاح: «يا محمد! من يقدر أن يحيي هذه العظمة المتآكلة؟ قل لي من يقدر؟» لقد

تصور هذا الأعرابي أنه جاء بدليل قاطع ضد مسألة المعاد: فيأتي القرآن الكريم إلىٰ النبي الأكرم (ص) ويأمُرهُ ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾ (يس: ٧٩).

فأي فرق بين بداية الخلق، والخلق المجدد؟!!

ويقول القرآن الكريم ذلك في آيات أخرىٰ، مثلاً يقول في جملة قصيرة مملوءة بالمعاني: ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ (الأنبياء: ١٠٣).

* * *

٣ ـ وأحياناً يذكِّرُ الله عز وجل بوسعةِ خلق السموات والأرض ويقول:

ـ ﴿ أوليس الذي خلق السمواتِ والأرضَ بقادرٍ علىٰ أنْ يخلُقَ مثلَهُمْ بلىٰ وهو الخلّاقُ العظيم * إنما أمرُهُ إذا أرادَ شيئاً أنْ يقولَ له كُنْ فيكون * ﴾.

إن الذين يشكّون في هذه المسائل، كانوا أشخاصاً لا تتجاوز أفكارهم محيط بيوتهم الحقيرة، وإلا لعرفوا أنَّ العودة إلىٰ الحياة أيسر من بدء الخلق، وأن تجديد حياة الموتىٰ بقدرةِ خالق السموات والأرض ليست مسألة معقدة.

* * *

٤ ـ وأحياناً يعكس أمامهم (قيامة) (الطاقات) فيقول:

ـ ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه تُوقِدون ﴾ (يس: ٨٠).

عندما نمعن النظر في هذا التعبير العجيب للقرآن الكريم، ونستمد العون من العلوم الحديثة، فإن العلم يقول لنا: عندما نحرق خشب شجرةٍ ونحصل علىٰ نار فإن تلك الحرارة إنما هي الطاقة وحرارة ونور الشمس، إدُّخِرتْ في الشجرة طوال السنين، بينما كنا نعتقد أن نور وحرارة الشمس

استهلكت واندثرت، ولكننا نرىٰ اليوم أن الشجرة تحيىٰ مرةً أخرىٰ، وتلبس حُلّةً جديدة من الحياة.

فهل يصعب علىٰ اللَّهِ الذي ادّخر النور وحرارة الشمس لعشرات السنوات في الشجرة، وفي لحظة أخرج كل ذلك منها، أيصعب عليه أن يدب الحياة من جديد في الموتىٰ؟!

علىٰ أية حال نرىٰ القرآن الكريم كيف يرد علىٰ الذين يشكّون في (المعاد) ويعتبرونه جنوناً بمنطقٍ مستدل وواضح ويثبت (المعاد)، وقد أوضحنا جانباً من ذلك فيما ذكرنا.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ لماذا كان المشركون يتعجبون من مسألة (المعاد)؟

٢ ـ كيف نشاهد (المعاد) في عالم النبات كل عام؟

٣ ـ لماذا يأتي القرآن الكريم بآيات الحياة في الرحم (أي الجنين في الرحم) كدليل علىٰ المعاد؟

٤ ـ ما هي (قيامة الطاقات)؟

٥ ـ لماذا ركّز القرآن الكريم علىٰ (الشجَر الأخضر)؟.

* * *

الدرس السابع

المعاد وفلسفة الخلق

يتساءل كثيرون: لماذا خلَقنا الله عز وجل؟!

وأحياناً يذهبون أبعد من ذلك: ما هي فلسفة خلق هذا العالم الكبير؟

الفلاح يزرع الشجرة لثمارها، فيحرث الأرض ويبذر البذور.. والخالق لأي هدف خلقنا؟!

هل كان الله سبحانه وتعالىٰ، يشعر بالنقص ليسد النقص بخلقنا؟ في هذه الحالة لا بد أن يكون محتاجاً، وهذا ما لا ينسجم مع عدم احتياجه لمقام وأنه موجود إلىٰ ما لا نهاية.

هناك كلام كثير للإجابة عن هذا السؤال، ولكن يمكن اختصار الجواب في عدة جمل واضحة وهي:

ـ إنه لمن الخطأ الكبير أن نقارن صفات الله عز وجل بصفاتنا. فنحن موجودات محدودة نعمل لنرفع النواقص، ندرس لنزيل الجهل عنا، نعمل لكي نحصل علىٰ المال، نطلب الصحة لكي لا نمرض.

أما الله تبارك وتعالىٰ، فهو وجود بلا نهاية من جميع النواحي، فإذا أدّىٰ عملاً فلا بد أن نبحث عن الهدف خارج وجوده عز وجل، إنه لا يخلق ليحصل علىٰ ربحٍ، وإنما هدفُهُ أن (يمنّ علىٰ الخلق).

إنه شمس مشرقة لا انطفاء ولا نهاية لها، لا يحتاج للنور، فهو يشع لكي يستفيد الجميع من نوره، ومن ذاته المملوءة فيضاً بلا نهاية، فيسوق الموجودات نحو التكامل.

إنّ خلقَنا من العدم هو خطوة عظمىٰ نحو التكامل. كما إن إرسال الأنبياء ونزول الكتب السماوية، وتعيين القوانين والبرامج، كلها دليل للسير نحو هذا التكامل.

إن هذه الدنيا جامعة كبيرة، ونحن طلبة هذه الجامعة.

إن هذه الدنيا مزرعة، ونحن فلاحو هذه المزرعة.

إن هذه الدنيا متجرة رابحة، ونحن تجارُها.

إذن كيف نتمكن أن لا نعتقد بهدفية خلق الإنسان؟ بينما لو نظرنا حولنا ودقّقنا النظر في جميع الموجودات، سنرىٰ أن لكل واحد هدفاً.

في مصنع البدن العجيب، إننا لا نملك جهازاً بلا هدف حتىٰ رموش العين والعمق الموجود في باطن القدم!!

إذن فكيف يمكن أن تكون ذرات وجودنا لها أهداف، بينما لا يكون لوجودنا أي هدف؟!

لنخرج من وجودنا، وننظر إلىٰ العالم الكبير، فإننا سنرىٰ لكلٍ جهاز هدفاً، هدف شعاع الشمس، هدف المطر، هدف تركيب الهواء، ولكن هل من الممكن أن يكون مجموع هذا العالم بلا هدف؟!

الحقيقة كأن لافتة كبيرة قد وضعت في قلب هذا العالم الواسع، تبيّن الهدف النهائي، أحياناً لعظمة هذه اللافتة لا نستطيع أن نراها في اللحظات

الأولىٰ، والعبارة المكتوبة علىٰ اللافتة هي (التربية والتكامل).

* * *

الآن وقد تعرّفنا علىٰ هدفية الخلق بصورة إجمالية، فهل يمكن أن تكون حياتنا القصيرة في هذه الدنيا مع جميع مشاكلها ومصائبها هدفاً لخلقنا؟

افرضوا أنني أعيش، في هذه الدنيا، ستين عاماً، أسعىٰ من الصباح وحتىٰ المساء للحصول علىٰ رزقي اليومي، فأعود مساءً متعباً إلىٰ البيت، وتكون النتيجة أن أستهلك طوال عمري عدة أطنان من الطعام والماء، ثم وبعد جهود مضنية أبني بيتاً، وبعد ذلك أذهب وأترك هذه الدنيا، فهل هذا الهدف يستحق أن آتي وأجهد له كل هذا الجهد؟!

إذا قام مهندس ببناء عمارة عظيمة وسط الصحراء، ويستغرق البناء سنوات طويلة، ثم يوفّر في العمارة كل وسائل الترفيه والراحة، فإذا سُئل عن هدفِهِ، يقول: (إن هدفي أن يمر عابر سبيل من هنا، طوال عمر هذه العمارة، ليستريح فيها ساعة واحدة!!) ألا نتعجب من قوله، ونقول له: «إن استراحة ساعة لا تستحق كل هذه الأشياء».

* * *

لهذا السبب لا يعتقد هؤلاء بيوم القيامة والحياة بعد الموت، بل يرون حياة هذه الدنيا بلا معنىٰ، وهذا ما نلاحظه كثيراً في أقوال الماديين أنَّ حياة هذه الدنيا بلا هدف. حتىٰ أن أشخاصاً منهم يُقدمون علىٰ الانتحار لأنهم كما يقولون قد تعبوا من هذه الحياة المادية المكررة التي لا هدف لها.

إن الشيء الذي يعطي للحياة معنىً وهدفاً، ويجعلها معقولة وحكيمة، هو أن تكون هذه الدنيا وهذه الحياة مقدمة لعالم آخر، وأن يكون تحمّل مشاكل هذه الحياة وإعداد المقدمات، من أجل الاستفادة من مسيرة

الحياة في سبيل الخلود.

لقد جئنا سابقاً بمثال عن جنين في بطن أمِهِ، كان له عقل وذكاء، يقولون له: (لا شيء بعد هذه الحياة التي لديك هنا) من المؤكد أنه سيعترض علىٰ حياته ويقول (ما معنىٰ أن أبقىٰ هنا سجيناً؟ أن آكل دماً وأبقىٰ مربوط الساقين هنا، ثم لا شيء بعد ذلك؟ ما هو هدف الخالق من هذا الخلق؟». ولكن إذا اطمأن أن هذه الأشهر هي مرحلة سرعان ما تزول، وهي مقدمة لحياة أطول في الدنيا، التي هي عالم أوسع من محيط الجنين مملوء بالعظمة والنور، وفيه نِعَمٌ كثيرة، فإنه عندئذ سيطمئن إلىٰ أن مرحلة الجنين لها مفهوم وهدف معقول، ولهذا فيمكن تحملها، (أي مرحلة الجنين).

يقول القرآن الكريم: ﴿ **ولقد علمتم النشأة الأولىٰ فلولا تذكّرون** ﴾ (الواقعة: ٦٢).

الخلاصة: إن هذا العالم بكل وجوده يصرخ أن هناك عالماً آخر بعد هذا العالم، وإلا لكانت الحياة عبثاً ولغواً ولا معنىً لها.

اسمعوا ما يقوله القرآن الكريم: ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾ (المؤمنون: ١٠٥)، إشارة إلىٰ أنه لولا (المعاد)، الذي يعبّر عنه في القرآن الكريم بالعودة إلىٰ الله عز وجل، لكان خلق الإنسان مساوياً للعبث.

النتيجة أن فلسفة الخلق تقول: لا بد من وجود عالم آخر بعد هذا العالم.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ لماذا لا يمكن مقارنة صفات الله عز وجل بصفات الخلق؟

٢ ـ ما هو الهدف من خلقنا؟

٣ ـ هل يمكن أن يكون الهدف من خلق الإنسان هو العيش في هذه الدنيا؟

٤ ـ ماذا تُعلّمنا مقارنة حياة المرحلة الجنينية مع الحياة في الدنيا؟

٥ ـ كيف يستدل القرآن الكريم من خلق هذا العالم علىٰ وجود الآخرة؟

* * *

الدرس الثامن

بقاء الروح
دليل علىٰ يوم القيامة

لا يعلم أحد منذ متىٰ فكر الإنسان بوجود (الروح)، ولكن يمكن القول: إن الإنسان ومنذ البداية كان يجد فرقاً بينه وبين الحيوانات، بينه وبين الحجر، والخشب، والجبل، والصحراء، وحتىٰ الحيوانات.

فهو قد رأىٰ حالة الحُلُم، وكذلك حالة الموت، إنه كان يشعر دون أن يحدث تغيير في الجسم والمادة، يتعرض لتقلباتٍ عظيمة في حالةِ النوم والموت، ومن هنا فَهِم أن هناك جوهراً آخر يحمل معه غير الجسم.

وكان يرىٰ أيضاً أن هناك فرقاً بينه وبين الحيوانات، فهو يملك في تصرفاته حرية الإرادة والاختيار، بينما حركات الحيوانات غريزية وإجبارية.

وعندما وجد، بصورة خاصة، في عالم النوم، أن أعضاء الجسم ساكنة، شعر أن هناك قوة غامضة تتحكم في وجوده، فأسماها (الروح).

عندما وضع العلماء أساس الفلسفة، جعلوا (الروح) مسألة فلسفية مهمة إلىٰ جانب بقية المسائل. وبعد ذلك أخذوا يدلون بآرائهم حول هذا

الموضوع، لدرجة قال البعض إن العلماء المسلمين ذكروا حوالي ألف رأي ونظرية حول حقيقة (الروح) والمسائل الأخرىٰ المتعلقة بها. والحديث حول هذا الموضوع طويل، والجواب علىٰ هذا السؤال موضوع مهم وهو:

ـ «هل (الروح) مادة أم لا»؟ وبتعبير آخر «هل هي مستقلة أم أنها من الخواص الفيزيائية والكيمياوية للمخ وسلسلة الأعصاب»؟!

بعض الفلاسفة الماديين يصرون علىٰ أن (الروح) وظواهر الروح، هي مادية ومن خواص خلايا المخ، وعندما يموت الإنسان فإن (الروح) تذهب أيضاً، تماماً كما لو أننا ضربنا ساعة بمطرقة وحطمناها تتوقف عن العمل!

مقابل هؤلاء توجد مجموعة من الفلاسفة الإلهيين. وحتىٰ أن مجموعة من الفلاسفة الماديين يعتقدون أن الروح لن تموت بموت الجسم، بل إنها تستمر في الحياة. وهناك دلائل كثيرة لإثبات هذه المسألة يعني أصالة الروح واستقلالها وبقائها. وهذه الدلائل معقدة نوعاً ما، ولكننا سنتناول، في حديثنا المختصر، أوضح هذه الدلائل بعبارات بسيطة وسهلة لشبابنا الأعزاء:

١ ـ لا يمكن وضع عالم كبير في محيط صغير:

افرضوا أنكم جالسون علىٰ ساحل بحر عظيم وإلىٰ جانبه جبال شاهقة، والأمواج الهائجة ترتطم بصخور الساحل ثم تعود غاضبة إلىٰ البحر.

إن الصخور العظيمة في سفح الجبل تُشير إلىٰ شموخ قمة الجبل حيث تخيّم عليها السماء الزرقاء، كما تمتد علىٰ البحر، وفي الليل تظهر العظمة هناك بأجلىٰ معانيها.

ننظر لحظة إلىٰ هذا المشهد، ثم نغمض عيوننا ونجسّم ما رأينا في أذهاننا بتلك العظمة.

لا شك أن هذا التصوير الذهني، لتلك العظمة، يحتاج إلىٰ مكان لا يمكن أن تستوعبه خلايا المخ الصغيرة، وإلاّ فإنه لا بد من رسم تصوير كبير علىٰ نقطة صغيرة، هذا بينما نحس نحن ذلك التصوير مرسوماً بعظمتِه داخل ذهننا.

إن هذا يدل علىٰ أننا نملك (جوهراً) آخر غير الجسم وخلايا المخ بإمكانه رسم أي تصوير، مهما كان عظيماً وبأي مقياس كان، داخله. ولا شك أن هذا (الجوهر) لا بد أن يكون ما وراء عالم المادة، لأننا لا نرىٰ مثل هذا في عالم المادة.

* * *

٢ ـ ميزة ظاهر الروح:

إننا نتلمس مميزات فيزيائية وكيمياوية كثيرة داخل وجودنا، فحركة القلب والمعدة، ميزة فيزيائية، ولكن ترشحات البصاق، وعصارات المعدة علىٰ الغذاء، هي عوامل كيمياوية، إن أمثال هذه العوامل كثيرة في أجسامنا.

وإذا كانت الروح والفكر مادية، ومن المميزات والخواص الكيمياوية لخلايا المخ، إذن لماذا يوجد فرق كبير بينها وبين بقية خواص أجسامنا؟!

إن الفكر والروح تربط بيننا وبين العالم وتطلعنا علىٰ ما يدور حولنا، وأما خواص البصاق الكيمياوية وعصارات المعدة والحركات الفيزيائية للعين واللسان والقلب ليست لها تلك الحالة.

بتعبير آخر، إننا نشعر بصورة جيدة أن وجودنا يرتبط بالعالم خارجنا ونحن علىٰ اطلاع بمسائلِه، والآن يأتي هذا السؤال: هل إن العالم خارجنا يتسرب إلىٰ داخلنا؟! بالطبع لا.. إذن ما هي حقيقة المسألة؟!

حتماً إن الصورة تأتي أمامنا، ونحن، وبالاستفادة، من خاصية ظاهرة الروح نطّلع علىٰ العالم خارجنا، وهذه الخاصية لا توجد في أية ظاهرة فيزيائية أو كيمياوية في أجسامنا. (لاحظوا ذلك جيداً).

وبتعبير آخر أيضاً، هناك حاجة ضرورية لكي نلم بالموجودات خارجنا، الظاهرة لعياننا. وهذه الإحاطة لا ترتبط بخلايا المخ، إن خلايا المخ تستطيع فقط أن تتأثر بالخارج، تماماً كبقية خلايا الجسم.

إن هذا الفرق يدل، أن هناك حقيقة أخرىٰ غير التغييرات الفيزيائية والكيمياوية في الجسم تحيطنا علماً بخارج وجودنا، وهذه الحقيقة ليست سوىٰ (الروح) الحقيقية التي تعلو المادة وخواص المادة.

* * *

٣ ـ دلائل تجربة أصالة واستقلال الروح:

لحسن الحظ أن العلماء تمكنوا بطرق علمية وتجارب أن يثبتوا أصالة واستقلال الروح، ويوجهوا جواباً مفحماً لأولئك الذين ينكرون استقلال الروح، ويعتبرونها من خواص المادة:

١ ـ الأحلام (المغناطيسية، والهيبنوتيسية) هي من تلك الدلائل الحية التي أثبتت ذلك ضمن اختبارات عديدة، ورآها الكثيرون، ومن لم يرها فإليهم نشرح مختصر مفيد: «يستغرق بعض الأشخاص، بأساليب علمية مختلفة من قبل الآخرين، في النوم، يسمىٰ من يقوم بذلك باسم (العامل) بينما الشخص الذي يستغرق في النوم يسمىٰ (مديوم)، أي أنه عن طريق التلقين وتمركز الفكر والقوة المغناطيسية للعين وأمثال ذلك يستغرق في نوم عميق، وليس كالنوم العادي، وإنما النوم الذي يمكن خلاله من إقامة رابطة معه والتحدث معه وأخذ الجواب منه.

وفي تلك الحالة تأخذه الروح إلىٰ نقط مختلفة، وأحياناً تأتي بأخبار

جديدة، وأحياناً أخرىٰ يحصل الإنسان علىٰ معلومات ما كان ليحصل عليها في الحالة العادية. وأحياناً يتحدث بلغة، غير لغته الأم، لم يكن له بها سابقة معرفة. وقد يتمكن من حل مسائل رياضية معقدة في تلك الحالة. وأحياناً أخرىٰ يكتب علىٰ لوحةٍ موضوعة في صندوق مغلق بإحكام.

كما قد تظهر الأرواح علىٰ شكل أشباح مضيئة وظلال في تلك الجلسات، وقد شرحنا ذلك في كتاب (عودة الأرواح).

٢ ـ سيريتيسم ـ أو (الارتباط بالأرواح) بعد الموت علامة أخرىٰ علىٰ أصالة واستقلال الروح.

توجد الآن جمعيات روحية في كافة أرجاء العالِم، وطبقاً لقول العالم المصري المعروف (فريد وجدي)، أنه توجد أكثر من ثلاثمائة مجلة وصحيفة من قبل تلك الجمعيات في العالم. وتشترك شخصيات معروفة في جلساتها التي تُحضّر فيها الأرواح، وتتم أعمال خارقة للعادة.

ورغم أن هناك نصّابين يدّعون العلم بمسألة الارتباط بالأرواح، رغم جهلهم لذلك وبهدف الاحتيال علىٰ الناس، يسعون للحصول علىٰ الأموال، ولكن ذلك لا يمنع من الاعتراف بحقيقة الروح التي يعترف بها المحققون الكبار، وكذلك مسألة إمكانية الاتصال بالأرواح.

جميع هذه الأمور دليل علىٰ أصالة واستقلال الروح وبقائها بعد الموت وخطوة مؤثرة نحو (المعاد)، والحياة بعد الموت.

٣ ـ إن الأحلام التي نراها هي مشاهد تتجسم أمامنا في النوم، وأحياناً تكشف النقاب عن حوادث المستقبل، والمسائل الخفية، بحيث لا يمكننا أن نقول إنٰ ذلك حدث من باب المصادفة، وهذا دليل آخر علىٰ أصالة واستقلال الروح.

غالباً ما يكون قد سمع أشخاص في حياتهم عن نماذج من الأحلام الصادقة، وكيف أن الصديق الفلاني قد رأىٰ حُلُماً تحقق في اليقظة تماماً،

بحيث يدل علىٰ أن روح الإنسان لها ارتباط بالعوالم الأخرىٰ، في حالة النوم، فترىٰ حوادث المستقبل.

إن مجموع هذه الأمور تدل، بشكل واضح، علىٰ أن (الروح) ليست (مادة) وليست لها مميزات المخ الفيزيائية والكيمياوية، بل إنها حقيقة من وراء الطبيعة لا تندثر ولا تزول بموت الجسم، وهذا الأمر يمهد الطريق لإثبات مسألة (المعاد)، و (عالم ما بعد الموت).

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ ما هو الفرق في مسألة (الروح) بين الفلاسفة الإلهيين ومجموعة من الماديين؟

٢ ـ ما المقصود من عدم انطباق الكبير علىٰ الصغير، الذي هو من دلائل أصالة الروح؟

٣ ـ ماذا تعرف عن النوم المغناطيسي؟

٤ ـ ما المقصود بـ (الإتصال بالأرواح)؟

٥ ـ كيف أن الأحلام الصادقة دليل علىٰ أصالة واستقلال الروح؟

* * *

الدرس التاسع

معاد
الجسم والروح

من الأسئلة المطروحة في بحث (المعاد) هذا السؤال: هل المعاد له جانب (روحاني) فقط؟ أم أن جسم الإنسان يعود في العالم الآخر، أي بروحه وجسده اللذين يملكهما في الدنيا، ولكن علىٰ مستوىً أسمىٰ ليبدأ حياة جديدة؟

كان بعض الفلاسفة القدماء يعتقدون بالمعاد الروحاني، واعتبروا الجسم (مركباً) يوجد مع الإنسان في هذه الدنيا فقط، وبعد الموت لا يحتاج إليه، فيتركه ويُسرع إلىٰ عالم الأرواح.

ولكن العلماء المسلمين الكبار والكثير من الفلاسفة يعتقدون أن (المعاد) له جانبان، روحي وجسمي، صحيح أن الجسم يتحول إلىٰ تراب يتناثر، ولكن الله سبحانه وتعالىٰ قادر وعالِم بجميع ذرات التراب إذ يجمعها يوم القيامة، ويلبسها رداء حياة جديدة، ويسمىٰ ذلك (المعاد الجسمي) لأنهم لا يشكون في عودة الروح، وإنما الحديث هنا عن عودة الجسم

أيضاً، لذا سمي بذلك الاسم.

علىٰ أية حال إن جميع الآيات القرآنية التي تتحدث عن المعاد ـ وهي كثيرة ومتنوعة ـ تعتمد أيضاً علىٰ (المعاد الجسمي).

* * *

شواهد المعاد الجسمي في القرآن الكريم:

* لقد قرأنا سابقاً كيف جاء أعرابي بقطعة عظم إلىٰ النبي الأكرم (ص) وسأل: من يستطيع أن يحيي هذه (العَظْمة)؟ فيجيبُه الرسول (ص) بأمرٍ من الله تعالىٰ ﴿ **قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلقٍ عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون** ﴾ (يس: ٧٩ و ٨٠).

وفي مكان آخر يقول: ﴿ **ونفخ في الصّور فإذا هم من الأجداثِ إلىٰ ربهم ينسلون** ﴾ (يس: ٥١) و ﴿ **خُشّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداثِ كأنهم جرادٌ منتشر** ﴾ (القمر: ٧).

ونحن نعلم أن القبر مكان الأجساد التي تصبح تراباً وليس مكاناً للأرواح.

* الحقيقة أن تعجب المنكرين للمعاد يتركز في قولهم: عندما نصبح تراباً تذرونا الرياح كيف نعود مرة أخرىٰ إلىٰ الحياة؟ ﴿ **وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أَإنا لفي خلقٍ جديد** ﴾ (السجدة: ١٠)، ويجيبهم القرآن الكريم: ﴿ **أولم يروا كيف يُبدىءُ اللَّهُ الخلق ثم يعيدُهُ إن ذلك علىٰ اللَّهِ يسير** ﴾ (العنكبوت: ١٩).

* كانت عرب الجاهلية تقول؛ كما بيّن ذلك القرآن الكريم في سورة المؤمنون ٣٥: ﴿ **أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مُخْرَجون** ﴾.

إن هذه الآيات القرآنية وغيرها تبين بوضوح أن الرسول الأعظم (ص) كان دائماً يتحدث عن (المعاد الجسمي)، ولهذا كان المشركون الجاهلون يتعجبون، ولهذا نرىٰ القرآن الكريم يذكر نماذج من المعاد الجسمي في عالم النبات وأمثال ذلك التي تُرىٰ بالعين لأولئك ويستشهد بالخلق الأول وقدرة الله تبارك وتعالىٰ.

ولهذا لا يمكن للمسلم مهما كانت معلوماته عن القرآن الكريم أن يشك في المعاد الجسمي، فإنكار المعاد الجسمي، من وجهة نظر القرآن، يساوي إنكار مبدأ المعاد.

* * *

الشواهد العقلية:

بالإضافة إلىٰ ذلك يقول العقل: إن الروح والجسد حقيقتان لا تنفصلان عن بعضهما البعض، ومع استقلالهما يرتبطان مع بعض، وينشآن مع بعض، ويتكاملان مع بعض، ومن المسلّم به، لاستمرار الحياة الخالدة، أنهما يحتاجان بعضهما لبعض.

وإذا انفصلا في مرحلة البرزخ، الفاصلة بين الدنيا والآخرة، لمدة قصيرة، فإن هذا الأمر لا يمكن أن يكون دائمياً، فكما أن الجسم بدون الروح ناقص، فإن الروح بدون الجسم ناقص أيضاً. إن الروح قائد وعامل الحركة، والجسم آلة تستجيب للأوامر، ولذا لا يمكن أن يكون أيٌّ منهما في غير حاجةٍ للآخر. إلاّ أن الروح، يوم القيامة، تحتل مكانة سامية، وبنفس النسبة لا بد للجسم أن يتكامل، وهذا ما يجب أن يكون، أي أن الجسم يوم القيامة يكون خالياً من النواقص والعيوب.

علىٰ أية حال إن الجسم والروح يتواجدان معاً ويكمل أحدهما الآخر، والمعاد لا يمكن أن يكون فيه الجانب الروحي أو الجانب الجسمي

فقط. بتعبير آخر إن دراسة خلق الجسم والروح والارتباط بينهما دليل واضح علىٰ أن (المعاد) يتم بالإثنين معاً.

ومن جهة أخرىٰ إن قانون العدالة يقول: إن (المعاد) يكون بالإثنين، إذ أن الإنسان إن عمل خيراً يكون عمل بجسمِهِ وروحِهِ، وإن عمل شراً يكون كذلك أيضاً، ولهذا يكون العقاب والثواب للإثنين معاً، فإن كان يشمل الجسم دون الروح، أو الروح دون الجسم، في هذه الحالة لا ينفّذ قانون العدالة أبداً.

أسئلة عن المعاد الجسمي:

في هذا المجال طرح العلماء أسئلة متعددة، ولاستكمال البحث لا بد من طرح بعض هذه الأسئلة:

١ ـ طبقاً لتحقيقات علماء الطبيعيات، أن جسم الإنسان يتعرض لعدة تغييرات خلال عمر الإنسان، ويشبه تماماً حوض السباحة الذي يدخل إليه الماء من جهة ويخرج رويداً رويداً من جهة أخرىٰ، ومن البديهي أنه بعد مدة يتبدل ماء الحوض تماماً. وهذا الأمر قد يتعرض له جسم الإنسان كل سبع سنوات مرة واحدة، وعليه فإننا نتغير عدة مرات خلال أعمارنا. والآن يُطرح هذا السؤال: أي جسم من هذه الأجسام يعود مرة أخرىٰ؟ جواباً نقول: الجسم الأخير، وهو كما قرأنا في الآيات السابقة من أن الله عز وجل يعيد الحياة إلىٰ العظام المتآكلة من جديد، ومفهوم هذا الكلام أن الجسم الأخير هو الذي يعود، وكذلك فإن القيام من القبر مفهومه هو عودة الجسم الأخير.

أما النقطة المهمة هنا هي أن الجسم الأخير يحتفظ بآثار ومميزات جميع الأجسام التي كانت للإنسان طوال عمرِهِ. بتعبير آخر: إن الأجسام التي تندثر وتزول بالتدريج تنتقل جميع خواصها التي كانت تملكها إلىٰ جسم المستقبل. وعليه فإن الجسم الأخير هو وريث جميع صفات الأجسام

السابقة، ويستطيع طبقاً لقانون العدل أن ينال الثواب والعقاب.

* * *

٢ ـ يقولِ البعض: عندما نتحول إلىٰ تراب، وذراتنا تصبح جزءاً من النباتات والفواكه وبالنتيجة تصبح جزءاً من جسم إنسان آخر، فما هو التكليف يوم القيامة؟ (هذا هو ما يسمىٰ في الفلسفة وعلم الكلام بـ (شبهة لآكل والمأكول).

رغم أن جواب هذا السؤال واسع، ولكننا نسعىٰ أن نختصر قدر الإمكان.

نقول جواباً علىٰ هذا السؤال: لا شك أن ذرات جسم إنسان (الذي أصبح تراباً) دخل جسم إنسان آخر لا بد أن يعود إلىٰ الجسم الأول (الآيات التي أوردناها هي أوضح شاهد).

المشكلة التي تظهر في هذه الحالة هي أن الجسم الثاني سيبقىٰ ناقصاً.

ولكن يجب أن نقول: إنه لن يبقىٰ ناقصاً، وإنما يصغر، لأن هذه الذرات قد توزّعت علىٰ كافة نقط الجسم، وإذا أخذ منها فإن ذلك يتم بنفس النسبة من كافة أنحاء الجسم، ولذا يضعف ويصغر.

وعليه فإن الجسم الأول لن يفنىٰ ولا يفنىٰ الجسم الثاني، فالشيء الوحيد الذي يحدث هو أن الجسم الثاني يصغر.. وهذا لن يخلق أية مشكلة، لأننا نعلم أنه في يوم القيامة تتكامل أجسام الإنسان، وتزول العيوب والنقص منها، تماماً كنمو الطفل، أو كالجريح الذي تلتئم جروحه، ولن تتغير شخصيته. إن الأجسام الناقصة والصغيرة، في يوم القيامة، تتكامل في عالم الكمال. وهكذا لن تبقىٰ مشكلة.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ هل حياة الإنسان يوم القيامة تشبه حياته في هذه الدنيا؟

٢ ـ هل نستطيع أن نعرف بصورة دقيقة ثواب وعقاب يوم القيامة في هذه الدنيا؟

٣ ـ هل نِعَم الجنة وعذاب جهنم لها جانب جسمي فقط؟

٤ ـ ما المقصود بتجسم الأعمال، وكيف يستدل القرآن الكريم علىٰ ذلك؟

٥ ـ ما هو جواب عقيدة تجسم الأعمال علىٰ المشاكل في بحث (المعاد)؟

* * *

الدرس العاشر

الجنة والجحيم
وتجسم الأعمال

كثيرٌ أولئك الذين يتساءلون: هل عالم ما بعد الموت يشبه هذا العالم، أم أن هناك فرقاً بينهما؟ وهل نعمه وعقابه ونظامه وقوانينه تشبه ما هو موجود في هذا العالم؟

جواباً يجب القول بصراحة: لدينا شواهد كثيرة تدل علىٰ وجود فرق كبير بين هذا العالم والعالم الآخر، لدرجة أن ما نعرفه عن يوم القيامة في هذا العالم أشبه ما يكون شبحاً يتراءىٰ لنا من بعيد.

من الأفضل أن نستفيد من مثال (الجنين)، فكما هو الفرق بين (عالم الجنين) وهذه (الدنيا)، كذلك هو بين هذه (الدنيا) أو العالم، وبين (العالم الآخر)، أو أكثر.

فلو أن الطفل في (عالم الجنين) كان يملك عقلاً وذكاءً، وأراد تصويراً عن الدنيا خارج الرحم، أي السماء والأرض، والشمس والقمر، والنجوم، والجبال والغابات والبحار، من المؤكد أنه لن يتمكن.

إن الطفل الذي يكون في (عالم الجنين) ولم يرَ سوىٰ المحيط المحدود داخل بطن الأم فإن الشمس والقمر، والبحار والأمواج والعواصف والنسيم والورود وجماليات هذا العالم لا مفهوم لها لديه، ولو فرضنا أن شخصاً كلّمه خارج بطن الأم فإنه لن يفهم أبداً.

إن اختلاف محدودية هذا العالم مع اتساع العالم الآخر، هو بقدر هذه النسبة أو أكثر، ولهذا فإننا لا نستطيع أن نعرف النعم الموجودة في الجنة أو العالم الآخر.

ولذا نقرأ في حديث: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر».

والقرآن الكريم يعكس نفس هذا المعنىٰ إذ يقول: ﴿ **فلا تعلم ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ (السجدة: ١٧).

إن الأنظمة التي تتحكم بالعالم الآخر له اختلاف كبير مع ما هو موجود في هذا العالم، مثلاً: الشهود في محكمة القيامة علىٰ أعمال الإنسان يداه ورجلاه وجلد جسمه، بل حتىٰ الأرض التي ارتكب عليها الخطيئة أو الحَسَنة:

ـ ﴿ **اليومَ نختِمُ علىٰ أفواهِهِم وتُكلِّمُنا أيديهم وتشهدُ أرجُلُهم بما كانوا يكسبون** ﴾ (يس: ٦٥).

ـ ﴿ **وقالوا لجلودِهم لِمَ شَهدتُمْ علينا قالوا أنطَقنا اللَّهُ الذي أنطق كلَّ شيء** ﴾ (فصلت: ٢١).

طبعاً كان تصور ذلك صعباً ذات يوم، ولكن بتقدم العلوم في تسجيل المشاهد والأصوات، لم يعد هناك مجال للتعجب.

علىٰ أية حال ورغم أننا نرىٰ شبحاً لِنعَم العالم الآخر، ولا نستطيع الوقوف علىٰ اتساع وأهمية ومميزات ذلك، إلّا أننا نعلم أن نِعم العالم

الآخر، وكذلك عقابه، لها جانب جسمي، وجانب روحي، لأن (المعاد) له الجانبان، وطبعاً يجب أن يكون له العقاب والثواب، يعني وكما يقول في البعد المادي والجسمي ﴿ **وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ أن لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ... ولهم فيها أزواج مطهرةٌ وهم فيها خالدون** ﴾ (البقرة: ٢٥). يقول عن النعم المعنوية ﴿ **ورضوان من الله أكبر** ﴾ (التوبة: ٧٢).

نعم، إن أهل الجنة يشعرون بلذة وفرح وسرور بحيث لا يقارنه شيء عندما يشعرون أن الله تبارك وتعالىٰ راضٍ عنهم وقد قبل أعمالهم.

وأما بالنسبةِ لأهل الجحيم، فإنه بالإضافة إلىٰ العذاب الجسمي والنار يواجهون غضب الله عز وجل وعدم رضاه، وهو أسوأ من كل تعذيب!

* * *

تجسم الأعمال:

يستفاد من الكثير من الآيات أن أعمالنا تعود للحياة يوم القيامة، وتظهر لنا بمختلف الأشكال، أهمها عقاب وثواب تجسم هذه الأعمال.

فالظلم يحيط بنا كسحابة سوداء، كما جاء في حديث للنبي (ص):

ـ الظلم هو الظلمات يوم القيامة.

ـ ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامىٰ ظُلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً** ﴾ (النساء: ١٠).

ـ ﴿ **يوم ترىٰ المؤمنين والمؤمنات يسعىٰ نورُهُمْ بين أيديهم وبإيمانهم** ﴾ (الحديد: ١٢).

إن المرابين الذي يَخْلون بتعادل المجتمع اقتصادياً بأعمالهم المخزية، هم كالمرضىٰ المصابين بالصرع الذين يسعون للوقوف علىٰ أقدامهم ولكنهم يسقطون لعدم تمكنهم من حفظ تعادلهم، ولهذا يقومون ويسقطون.

والأموال التي جمعها المحتكرون واكتنزوها ولم يدفعوا منها حقوق المحرومين تصبح طوقاً ثقيلاً في أعناقهم، بحيث لا يستطيعون الحركة:

ـ ﴿ **ولا يحسبنِ الذين يبخلون بما آتاهُمُ اللَّهُ من فضلِه هو خيراً لهم بل هو شرٌ لهم سيُطَوّقون ما بخلوا به يوم القيامة** ﴾ (آل عمران: ١٨٠)، كذلك سائر أعمال كل واحد تتجسم بصورة مناسبة.

نحن نعلم أن العلم اليوم يقول إنه لا يوجد شيء في العالم يزول فالطاقة والمادة تتغير شكلاً وصورة، دون أن تزول، وأعمالنا لا تخرج عن هذه القاعدة فهي تبقىٰ خالدة، رغم أن أشكالها تتغير.

يقول القرآن الكريم آية قصيرة تهزُّ المشاعر عن القيامة:

ـ ﴿ **ووجدوا ما عملوا حاضراً** ﴾ (الكهف: ٤٩).

في الحقيقة أن ما يحصده الإنسان إنما يحصد أعمال يديه، ولذا وفي ختام هذه الآية يضيف القرآن الكريم ﴿ **ولا يظلم ربك أحداً** ﴾.

ونقرأ في مكان آخر من القرآن الكريم عن يوم القيامة:

ـ ﴿ **يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليرُوا أعمالهم * فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره *** ﴾ (الزلزلة: ٦ و ٧ و ٨).

أتلاحظون؟! إنه يقول إنكم سترون نفس تلك الأعمال.

وبملاحظة هذه الحقيقة، وهي أن أعمالنا، صغيرة كانت أم كبيرة، حسنة كانت أم سيئة، ستبقىٰ ثابتة ومحفوظة في هذا العالم ولن تُمحىٰ، وستكون معنا يوم القيامة، وهذا تحذير للجميع ليكونوا محتاطين في أعمالهم، ويتجهوا نحو الخير بصدق ووفاء.

والعجيب أنه تم اختراع أجهزة بإمكانها أن تجسم هذه المسألة في هذه الدنيا.

كتب أحد العلماء يقول:

ـ لقد أصبح بالإمكان الاستماع إلىٰ صدىٰ الأمواج الصوتية لصنّاع الكوز المصريين قبل ألفي عام، حيث توجد كوز في المتاحف المصرية تعود لألفي سنة، إذ أن الصنّاع عندما قاموا بصنع الكوز علىٰ العجلات الدائرية فقد تم طبع أصوات العمّال علىٰ الكوز، ولقد أُمكن اليوم إحياء تلك الأمواج الصوتية بحيث نستمع إليها.

علىٰ أية حال تمت الإجابة عن الأسئلة التي طُرحت حول (مسألة المعاد) و (الخلود) و (الثواب) و (العقاب) في القرآن المجيد، مع الأخذ بنظر الاعتبار (تجسم الأعمال) التي تدلّ علىٰ أن أعمالنا مهما كانت سيئة أو حسنة تتركُ أثراً علينا وهذا الأثر يبقىٰ دائماً.

* * *

فكّر وأجب:

١ ـ هل حياه الإنسان يوم القيامة تشبه حياته في هذه الدنيا؟

٢ ـ هل نستطيع أن نرىٰ عقاباً وثواباً في هذه الدنيا؟

٣ ـ هل نِعَم الجنة وعذاب الجحيم لهما جانب جسمي؟

٤ ـ ما المقصود بتجسم الأعمال، وكيف يدلل عليها القرآن الكريم؟

٥ ـ بماذا تجيب عقيدة تجسم الأعمال علىٰ المشاكل في بحث (المعاد)؟

* * *

الفهرس

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http://www. daralhadi.com